عزيزي القارىء

يتساءل الفيلسوف الفرنسي المعاصر جون فرنسوا ريفيل، في دراسة نشرتها مجلة «لوبوان»: «هل يمكن وصف افتتاح مدينة «ديزني لاند» الأوروبية في مارن لابال بشرق باريس بأنه تشرنوبيل ثقافية على حد تعبير مارجريت دوراس؟». ويضيف: «إذا كان ذلك صحيحا فإنني أعتقد أنه لا يعود إلى التهديد الذي تمثله هذه المدينة الترفيهية بقدر ما يعود إلى التشوش الذهني الذي أثارته في صفوف النخب الفكرية في بلادنا. وإذا كانت الثقافة الفرنسية (والأوروبية بتعميم أكبر) تتعرض للتهديد من ميكي ماوس، أو بتعبير أدق من وصوله هنا، فتلك هشاشة مثيرة للفزع.. فالعديد من أصدقاء ميكي ماوس والعديد من الحكايات التي استلهمها والت ديزني - مخترع تلك الشخصية - تنتمي إلى الميراث الثقافي الأوروبي. و«سنو وايت والأقزام السبعة» «والجمال النائم» و«سفينة القرصان في جزيرة الكنز» كلها مجرد أمثلة لدين أمريكا - وسداد لدينها - لأوروبا».

من هذا المنطلق يتناول ريفيل، بالتفنيد والسخرية، مخاوف بعض الأوساط الفكرية في فرنسا وأوروبا من «غزو الثقافة الأمريكية لأوروبا» وهو يقابل بين هذه النزعة ونزعة أمريكية مقابلة تسود في بعض الدوائر الأكاديمية الأمريكية، وفي وسائل الإعلام، تقول إن كل الثقافة الغربية بدءا من أفلاطون وحتى تولستوي، مرورا بدانتي وسرفانتس وشكسبير ونيتشه، يجب اعتبارها مشبوهة لأنها تعكس رؤية «نخب الرجل الأبيض». وذلك ملمح واحد من ملامح صراع الهويات الثقافي الدائر الآن على ساحة الفكر في أوروبا وأمريكا.

وملمح آخر يطرحه كتاب «من يزدهر؟ كيف تصاغ القيم الثقافية والاقتصادية والنجاح السياسي» للكاتب الأمريكي لورنس هاريسون، والذي يتساءل فيه: «هل تسير أمريكا على الدرب نفسه الذي سارت عليه من قبل اليونان القديمة، وروما القديمة، وأسبانيا القرن السادس عشر، وبريطانيا المعاصرة؟ إن واجبنا أن ننقب أكثر في ماضينا لكي نعثر - عبر سديم الرومانسية والحنين - على أمريكا المثلى، فنحن نشعر بما أصاب القيم الأمريكية التقليدية».

وفي ملمح ثالث لصراع الهويات الثقافي - داخل المجتمع الأمريكي - يبرز الصراع بين دعاة «التعددية الثقافية» - أي احترام الثقافات المتنوعة في الولايات المتحدة وحق كل ثقافة في النمو المستقل والتفاعل الحر مع الثقافات الأخرى - وأنصار «التفاعلية الثقافية» الذين يرون أن الثقافة القائمة هي نتاج لتفاعل ثقافات متعددة، أو هي «هجين» من ثقافات متعددة، وبالتالي لا ينبغي التركيز على عنصر واحد من العناصر المكونة لها بل ينبغي التعرف إلى كافة عناصرها وإلى الثقافات التي أسهمت بأقساط متفاوتة في تكوينها.

هذه الملامح المتعددة لصراع الهويات الثقافي في الساحة الغربية - الأوروبية والأمريكية - نقرؤها معا عزيزي القارىء في مقال «النخب الثقافية : ميكي ماوس والكمبيوتر الشخصي» .ونتأمل ونحن نقرأ ونراجع أيضا، مفهومنا نحن لصراع الهوية الثقافي بين مجتمعاتنا وبين مجتمعات الغرب، أو بين الأنا والآخر، لأننا في أحيان كثيرة نبني تصورنا للآخر على«أسس تسكينية» أي أننا نثبته، أو نضعه في مقولة الثبات ونضع أنفسنا في مقولة التغير، وليس الوضع كذلك كما نرى، فالتغير والصراع لا يدوران على جبهة المواجهة بين الأنا والآخر فحسب، بل يدوران أيضا داخل كل من الجبهتين.

ونقرأ في العدد أيضا، عزيزي القارىء - ضمن الملف الخاص «فنانون واعدون »- عن تجارب ورؤى مجموعة من الفنانين التشكيليين الشبان، من أمريكا وألمانيا وانجلترا وأسبانيا وإيطاليا وكندا والمكسيك وشيلي واليابان وأوكرانيا، وعن عوالم جمالية تسعى أعمال هؤلاء الفنانين إلى إبداع ملامحها، وعن علاقة حميمة بالتقاليد يجدون أنفسهم يدفعونها في اتجاهات جديدة وغير متوقعة.

ونقرأ معا مقالات «أسرار الطبيعة، الإيقاعات الفلكية للمناخ»، «وموجز تاريخ التطهير العرقي»، و«الهجوم على فرويد»، و«المشكلات الاجتماعية في روسيا»، و«البحث عن قبر الإسكندر»، ومقالات أخرى عديدة تضيء المشهد الثقافي لعالمنا.

رئيس التحرير





جان فرنسوا ريفيل
لورنس هاريسون
ريتشارد جامبينو
برايان براون

ترجمة: أحمد خضر

هل توجد «طبقة مهيمنة» في المجتمعات الديمقراطية تستخدم الثقافة، بما في ذلك نظام التعليم والإنتاج الفكري والفني، لفرض رؤيتها للعالم؟ إن ما يدعونا إلى القلق هو أن عددا كبيرا من الذين يراودهم هذا التساؤل يحتلون مناصب مسؤولة في المدارس، وإدارات المتاحف، والمؤسسات الرئيسية في الجهاز الثقافي، بما في ذلك هيئات حكومية ذات ميزانيات ضخمة. فهل هذا في صالح المجتمع؟ وهل سيكون له تأثير صحي في الثقافة الشعبية، على حساب ما اعتاد البعض تسميته بالثقافة الرفيعة؟

هنا، يطرح جان فرنسوا ريفيل بعض الأفكار المحورية حول ما تعنيه ـ وما لا تعنيه ـ هذه التساؤلات.. ويقدم البروفيسور ريتشارد جامبينو دفاعا حماسيا عن السياسة التقليدية وغير الرسمية في أمريكا، «أي تعدديتها الثقافية»، التي تتعرض هذه الأيام لهجمات من اتجاهات متباينة.. على حين يطرح لورنس هاريسون من جانبه بعض التأملات حول العلاقة بين الثقافة والاقتصاد.

العنوان الأصلي للمقال:
Cultural Elites, Mickey Mouse And PC. Current, November 1992.

مراجعة : هيئة التحرير

1 - من يخاف ميكي ماوس؟

جان فرنسوا ريفيل*

هل يمكن وصف افتتاح مدينة ديزني لاند الأوروبية في مارن لافال (شرق باريس) في أبريل بأنه «تشرنوبيل ثقافية» على حد تعبير إحدى العبقريات الفرنسية (مارجريت دوراس)؟ إذا كان هذا صحيحا، فإنني أعتقد أنه لا يعود إلى التهديد الذي تمثله هذه المدينة الترفيهية بقدر ما يعود إلى التشوش الذهني الذي أثارته في صفوف النخب الفكرية في بلادنا.

ميكي ماوس وأصدقاؤه:

إذا كانت الثقافة الفرنسية (والأوروبية بتعميم أكبر) تتعرض للتهديد من ميكي ماوس، وبتعبير أدق من وصوله إلى هنا، فهذه هشاشة مثيرة للفزع. لكن الذين يصبون احتقارهم عليه إما متناقضون أو جهلة، لأن العديد من أصدقاء ميكي ماوس، والعديد من الحكايات التي استلهمها والت ديزني - الرجل الذي اخترع شخصية ميكي ماوس - تنتمي إلى الميراث الثقافي الأوروبي. و«سنووايت والأقزام السبعة»، و«الجمال النائم»، و«بينوتشيو» لكارلو كولودني، وموسيقى «فانتازيا» وسفينة القرصان في «جزيرة الكنز»، كلها مجرد أمثلة لدين أمريكا - وسداد لدينها - لأوروبا.

والأجدر بكل المهتمين حقيقة بحيوية الثقافات أن يفتنوا بتاريخ الحكايات الفولكلورية التي تحولت من أعماق التقاليد الشفاهية للفلاحين الأوروبيين إلى أدب مكتوب بعد أن جمعها بيرولت وجريم وآخرون، لتقرأ على أسماع أطفالنا طوال عدة عقود، ثم تحولت إلى شخصيات كرتونية مفعمة بالحيوية وذاعت شهرتها في سائر أنحاء العالم على يد فنان من كاليفورنيا، وأخيرا تتحول الآن إلى أماكن ترفيهية. فما قيمة هذه الأفكار الحمائية الجوفاء التي تجعلنا ننقلب على جذورنا؟ وهل هناك إسباني من الغباء بحيث يعترض على شيوع شهرة العبقرية القشتالية على يد كتاب أجانب مثل كورنين في مسرحية «السيد» أو موليير في مسرحية دون جوان أو ليسج في مسرحية جيل بلاس؟ فمن المؤكد أن هذه الأعمال هي في الواقع أعمال أدبية راقية وليست مادة لتسلية الجماهير. لكن حكايات العصور الوسطى الفولكلورية التي استمد منها والت ديزني معظم أعماله كانت هي الأخرى مادة لتسلية الجماهير.

* جان فرانسوا ريفيل : فيلسوف فرنسي. وهذه المقالة جزء من دراسة له نشرت في مجلة Le Point.

إن الثقافة هي تاريخ الهجرات والاقتباسات وتبادل المعارف. فما كان للدراما اللاتينية أن تقوم من دون النماذج اليونانية. كما سار شعراء الثريا* الفرنسيون على خطى الشعراء الإيطاليين.

وأعجب بودلير ومالارميه بإدجار آلان بو قبل أن تعرفه الولايات المتحدة.

وأتساءل: هل كان عندنا وزير للثقافة في عهد هنري الثاني، وهل كان سيطلب من رونسار** ألا يقلد بترارك إلا مرة واحدة أسبوعيا. وبالقطع ليس في أيام الآحاد؟!. لقد كان من المستحيل قيام صناعة السينما الأمريكية من دون الفنانين الأوروبيين من أمثال شابلن، وستروهايم، ولوبتسن، وكابرا. وكان من المستحيل وجود الموسيقى الأمريكية دون العبقرية الأفريقية. بل إن الشر أحيانا يخلق الجمال: مثلما قادت العبودية إلى موسيقى الجاز.

ولنتأمل معا المفارقة التالية: إيطاليا تمنح أمريكا عصابات المافيا، وأمريكا تفرض حظرا على المافيا، ولولا هذا الحظر لظل النشاط الاقتصادي لهذه العصابات محدودا. لكن ما أروع الأفلام التي أنتجت في سياق هذا التسلسل المؤسف للأحداث! وهكذا، فإن أمريكا تدين لرجال العصابات الأوروبيين الذين ألهموا سينمائييها واحدا من أشهر مواضيعها السينمائية التي لا تقل ثراء عن أفلام الغرب الأمريكي - التي انتقلت في الوقت ذاته لتصبح منتجا إيطاليا.

ومما لا شك فيه أن الأمور لا تسير دائما على هذا النحو الفاتن. فأفلام الرسوم المتحركة اليابانية، التي يشاهدها أطفالنا على شاشات التليفزيون اليوم، أفلام بالغة الانحطاط. لكنني لا أعتقد أن هناك طريقة

---

* شعراء الثريا Pleiude poets: مجموعة من سبعة شعراء فرنسيين، في عهد هنري الثاني، سعت إلى إدخال أشكال جديدة على الشعر الفرنسي وإلى تخليص اللغة من الطنين البلاغي الأجوف. واقتدوا في مسعاهم هذا بتجربة شعراء التنوير الإيطاليين. والثريا Pleiude هن بنات أطلس السبع اللاتي حولن، وفقا للأسطورة الإغريقية، إلى مجموعة نجوم. ويطلق الاسم تجاوزا على أي مجموعة من سبعة أشخاص لامعين «المترجم».

** رونسار (1524 ـ 1585) Pierre de Ronsard، شاعر فرنسي، وأبرز شعراء الثريا. حاول رونسار وزملاؤه تحويل اللغة الفرنسية إلى لغة أدبية ـ تماما كما فعل بترارك مع اللغة الإيطالية ـ ثرية وطيعة وأنيقة تليق بالشعر (المترجم).

قاطعة لتحديد ما يمكن أن يمر وما لا يجب أن يمر. إذ إن الذوق السيىء للزبون لا يقل أهمية عن جشع المنتج. والحل الوحيد هو تثقيف الناس والأمل في أن يتبينوا الفن الجيد من الفن السيىء. والتأثيرات الدولية لها كذلك خصوصيتها المتفردة. فالرواية الأمريكية لم تتمتع أبدا بالتأثير نفسه الذي كان لها في فترة ما بين الحربين العالميتين، عندما كانت الولايات المتحدة انعزالية. لكن روائيي مايفترض أنها أمريكا الإمبريالية اليوم لا يُقرأون هنا الآن بالقدر نفسه.

وعلى النقيض من ذلك، فإن الأمريكيين ـ سواء القراء العاديون أو الأكاديميون المتخصصون ـ أصبحوا، منذ 1945، من كبار المستهلكين للأدب الأوروبي والأمريكي اللاتيني. ومنذ عام 1960، أخذت الدعوات والجوائز والاحتفائيات تنهال على الروائيين والمؤرخين الفرنسيين في نيويورك وشيكاغو ولوس أنجليس وميامي.

ويبدو أن الغضب ينتابنا اليوم إزاء فكرة أن المخرجين الأمريكيين أفضل منا في تكييف الصياغات الخالدة للتسلية الشعبية لتتناسب مع وسائل الإعلام اليوم. فالميلودراما، والحكايات الخرافية، وقصص الرعب، والروايات البوليسية، والقصص الساخرة، والعنف، وصراع الخير والشر ـ كانت كلها صياغات موجودة دائما. إذ إن رامبو هو تقريبا روكامبويل اليوم، وكولومبو هو شرلوك هولمز اليوم. ومازال لدينا بالتأكيد سبرانو، وميجي، ومانون الينابيع. ولكننا نعدل في القصص القديمة أكثر من اختراعنا لقصص جديدة. ولكي نعزي أنفسنا بغياب روح الاختراع من عندنا، نقول إن التسلية الشعبية الأمريكية مجرد نتاج لاعتبارات تجارية محضة. فكيف إذن نصنف فانتوماس؟ ومع ذلك، وفي تناقض صارخ، نجد وزير ثقافتنا، حتى وهو يحاول منع هذه الأفلام والمسلسلات التليفزيونية من الوصول إلى الشاشتين الصغيرة والكبيرة عندنا، يجري وراء مخرجيهم ونجومهم ليغطيهم بالنياشين، ويظهر إلى جانبهم على صفحات الصحف. وهو ما يؤكد أن التعالي والحسد يتلازمان دائما.

إن الأفلام والمسلسلات التليفزيونية الأمريكية ليست كلها استخفافا رخيصا. فهي أيضا تعالج ـ وربما بشجاعة أكثر منا ـ فضائح وإخفاقات المجتمع الأمريكي. ولا يتم ذلك بأسلوب مجرد: بل بتحويل الأحداث الحقيقية والساخنة إلى دراما. فلماذا يفعلون هذا أفضل بكثير منا؟ لماذا لم نخرج حتى الآن فيلما دراميا وثائقيا عن قضية بيشيني (أكبر فضيحة في عالم التجارة الفرنسي)؟ لأنه منذ بداية الجمهورية الخامسة، والثقافة الفرنسية تنزع ـ على نحو متزايد ـ إلى أن تصبح ثقافة رسمية. ومع ذلك، كان علينا أن نختار بين الدعم والحرية وقد اختار جانب كبير من مخرجينا الدعم.

إن المرء ليصدم عندما يعرف عدد الكتاب، غير المعروفين على المستوى العام، الحاصلين على المنح الرئاسية، والمستفيدين من المناصب

الرسمية عديمة الجدوى، والفائزين بمقاعد التخلف في الزيارات التي تنظمها الدولة للخارج. ومن الواضح أن هذه النماذج المرفهة المترفة لا يمكن أن توجه إلى المؤسسة ماهو أكثر إيذاء من السهام المطاطية.

لكن الثقافة الحقيقية تصنع على الأرض حيث يلتقي المبدع وجمهوره بحرية تامة وحيث تبرز الموهبة مهما كانت.

لكن ليس هناك دليل أفضل على أن الفرنسيين بدأوا بنسيان معني التحرر الروحي من أن أحدا لم يصدم من أن وزير الثقافة الفرنسي هو في الوقت نفسه المتحدث الرسمي باسم الحكومة؟ وهل هناك تصريح أكثر وضوحا من هذا لرؤية النظام لهدف الثقافة؟

إن الثقافة، والثقافة الأمريكية ذاتها، أكثر من مجرد أفلام ومسلسلات تليفزيونية. وقد سلم الأوروبيون بسهولة شديدة بأن الاعتبارات الاقتصادية (التي تسود بالطبع في التليفزيون) هي التي تتحكم في الإنتاج الفني أكثر من حب الفن الذي تجاوزه الزمن. لكن الثقافة أيضا بحث علمي، وموسيقى، ورسم، وكتابة وأفكار. وسأترك الأمر للمتخصصين لكي يقرروا أين - بالضبط - يتحول البحث العلمي إلى ضرورة، لكن في مجالات الثقافة الأخرى، أقترح أن نتوقف عن القلق إزاء مانشاهده على شاشات التليفزيون ونهنىء أنفسنا على صحة مجتمعنا. فنحن بالتأكيد لسنا سوى مستعمرة أمريكية بالنسبة للموسيقى وبقية المجالات الأخرى. وعلى النقيض من ذلك، إذا كنا نصر على جعلها قضية، فبإمكاني القول إن أمريكا، وليست فرنسا، هي المعنية بالموضوع.

فالنخب الفكرية في أمريكا في الدوائر الأكاديمية ووسائل الإعلام، رغم وصفها عادة بالليبرالية، تظل معادية لليبرالية كما نفهم نحن المصطلح في أوروبا. وتتعرض الجامعات الأمريكية لهجوم من فيروس غريب اسمه «التصحيح السياسي». ووفقا لهذا الوهم، فإن كل الثقافة الغربية، بدءا من أفلاطون وحتى تولستوي، مرورا بدانتي ومونتيني وسرفانتس وشكسبير ونتشة، يجب اعتبارها مشبوهة لأنها تعكس رؤية

«نخب الرجل الأبيض». وفي هذه المنظومة الأقرب إلى الكمبيوتر الشخصي، فإن كل حضارة، بغض النظر عن درجة بشاعة انتهاكاتها لحقوق الإنسان أو اعتدائها على المجتمعات الأخرى، لها الحق في العيش وفقا لطبيعتها - باستثناء الحضارة الأوروبية وامتدادها الأمريكي. فهل سينجح هذا الجنون؟ إذا حدث ذلك، فلن تكون تلك هي المرة الأولى التي تقوم فيها عقيدة، يفترض أنها تقدمية، تحت غطاء الإنسانية العالمية، بتنظيم عملية دمارها الذاتي، والتعصب والرقابة.

وعلاوة على ذلك، فإن الأزمة الفكرية على الجانب الآخر من المحيط تنشأ عن عواقب أخرى غير مقصودة للنجاح الأمريكي: وأعني هنا عالمية اللغة الإنجليزية. وقد أدى هذا إلى ضيق أفق الثقافة الأمريكية الرفيعة. فالمفكرون الأمريكيون يقابلون في كل مكان أقرانا يتحدثون لغتهم، الأمر الذي يعطي الأمريكيين تصورا خاطئا بأنهم مطلعون جيدا على كل شيء. وفي واقع الأمر، يجعلهم هذا يعتمدون على مجموعة صغيرة من «المترجمين» الذين يلخصون الاتجاهات السائدة لهم. ويفقدون الألفة الحميمية مع الثقافة الأخرى، والفهم الحدسي الذي يجيء من قراءة اللغة في صورتها الأصلية، وسماعها منطوقة، والإحساس بها.

منذ عشرين عاما، كان من الممكن أن تقابل في دور النشر الأمريكية الكبرى نساء ورجالا يتحدثون مع عاملين وعاملات في هذه الدور وهم يتكلمون عدة لغات ويمتلكون ثقافة عالمية حقة. واليوم. ليس من غير العادي أن تدخل إلى دار نشر كبرى لا يتحدث موظفوها أي لغة أجنبية واحدة. وتقدم دور النشر الآن مكافآت لقراء من الخارج يزودونها بتقارير عن الكتب الإنجليزية، وهم عادة أكاديميون قد يعرفون اللغة لكنهم يعرفون عن النشر القدر نفسه الذي تعرفه أمينة مكتبة الأفلام عن الإخراج السينمائي. وعلاوة على ذلك، فإن الأكاديميين متأخرون عادة في فهمهم للحضارة التي يدرسونها، وهو ما يؤكد الطابع المحلي الجديد في أمريكا.

وهكذا، فإذا كانت وسائل الإعلام والأفلام والمسلسلات الأمريكية موجودة في سائر أنحاء العالم، فإن العكس ليس صحيحا، ومعظم المفكرين الأمريكيين لا يملكون سوى معرفة سطحية وميكانيكية بالأحداث والأفكار التي تدور في الخارج. والحوار الفكري الضخم، الحوار الدولي العميق والإبداعي والخلاق، يجري في أوروبا وأمريكا اللاتينية وحتى على مستوى التليفزيون، فإن أوروبا تسبق أمريكا بكثير فيما يتعلق بالبرامج الثقافية التليفزيونية. وأليس من الأمور ذات الدلالة أن المفكرين الأمريكيين الذين كانوا أكثر أهمية بالنسبة لنا في السنوات الأخيرة، مثل آلان بلوم وفرانسيس فوكوياما، تمتعوا بشعبية جماهيرية كبيرة على حين لم يجدوا من أقرانهم المفكرين سوى الصد؟ وقد تكون تلك هي القضية اللائقة بأنبياء الثقافة عندنا بدلا من النواح على ديزني لاند الأوروبية.

2 ـ نشوء الثقافة الأمريكية

لورنس هاريسون*

خرج الأمريكيون من الحرب العالمية الثانية واثقين إلى أبعد الحدود في أنفسهم وفي بلدهم، أقوى بلدان العالم قاطبة. وعلى النقيض تماما من أواخر الأربعينات، تبدو الولايات المتحدة غير واثقة، بل ومتشككة، في نفسها. ويعتقد الكثيرون منا أن هذا التآكل الخطير في الثقة، والوحدة والأهداف الوطنية قد حدث في العقود القليلة الماضية. ولعبت الأحداث الجسام، خاصة حرب فييتنام وفضيحة ووترجيت، دورا مهما في هذا. لكنني أعتقد أن جذور تآكل الثقة والوحدة والأهداف الوطنية تكمن في تآكل القيم التقليدية التي حققت لنا كل هذا التقدم والنجاح: 1) الاعتقاد بأن العمل هو العنصر الجوهري للحياة الرغدة. 2) الاعتقاد بأن التعليم شرط حاسم للتقدم. 3) الالتزام بالإبداع، والإنجاز والتفوق. 4) الاعتقاد بأن التباهي قيمة خاطئة. 5) الإحساس القوي بالمجتمع.

وأخذت هذه العلة تضرب أعمق بكثير من السياسات والأحداث والأزمات. وشمل هذا المشاعر الوطنية، وإحساسنا بالثقة ووحدة الهدف. وعليّ أن أتساءل هنا، هل نحن نسير على الدرب نفسه الذي سارت عليه من قبل اليونان القديمة، وروما القديمة، وإسبانيا القرن السادس عشر، وبريطانيا المعاصرة؟ إن واجبنا أن ننقب أكثر في ماضينا ـــ عبر سديم الرومانسية والحنين ـ لكي نعثر على أمريكا المثلى. فنحن نشعر بما أصاب القيم الأمريكية التقليدية.

وأعتقد أن الجرح الذي لحق بأخلاق العمل الأمريكية وقيم التعليم والتفوق والاقتصاد في الإنفاق يعود أساسا إلى الوفرة. فطوال الجزء الأعظم من تاريخنا، كان هناك قلة من شبكات التأمين الحكومية، وكان العمل ضروريا لتلبية الحاجات الأساسية، فضلا عن إمكان الانتقال إلى أعلى.

لكن ترافق زيادة الدخل الفردي الحقيقي (على الأقل حتى العقود الأخيرة) مع برامج الرفاه الاجتماعي التي أصبحت ممكنة بسبب الوفرة، أدى إلى الطلاق بين العمل وبين ضمان الحاجات الأساسية، وأتاح إمكان استهلاك السلع والخدمات التي كانت متوافرة فقط للطبقات العليا في المراحل التاريخية المبكرة. وكل هذه أمور جيدة إذا أخذناها بمعايير التقدم، والقضاء على الفقر ـ

* مؤلف كتاب: «من يزدهر؟ كيف تصوغ القيم الثقافية، الاقتصاد، والنجاح السياسي؟»
Who Prospers? How Cultural Values Shope
Economics And Political Success ? (Basic Books, 1992)

وهو الكتاب الذي استقينا منه هذه المقالة

وهي بالتأكيد أولوية أساسية لأي مجتمع رشيد - والعدالة. لكن عواقبها كانت وخيمة بمعايير الأداء والحوافز.

وفي رأيي أن نقطة التحول كانت هي الحرب العالمية الثانية، فقد خرجت منها الولايات المتحدة، بفضل الجغرافيا، ليست فقط سالمة بل باقتصاد مزدهر وتكنولوجيا شديدة التقدم أيضا. وألفتنا سنوات ما بعد الحرب متفوقين، ومغرورين وراضين.

وبالنسبة للأجيال السابقة، حيث كان الرهان هو تأمين الحاجات الأساسية، كان العمل هدفا في ذاته. وبالنسبة لأجيال مابعد الحرب، أصبح العمل، بفضل تكنولوجيا توفير العمالة، على نحو متزايد، وسيلة لاقتناء الأشياء: سيارات، مساكن، يخوت، ملابس، استجمام. ويبدو أن إشباعاتنا الأساسية الآن تجيء من الاقتناء والتمتع بأوقات الفراغ والاستجمام، وليس من إتقان العمل. وتراجع أفقنا الزمني من المستقبل إلى الحاضر، ونضحي بالتقشف، والتوفير والاستثمار بعيد المدى. وأصبحت بؤرة الحياة على نحو متزايد هي الدولار السريع* the Fast buck. وكان من المحتم أن ندفع الثمن كيفيا. وترك هذا تأثيرا كبيرا في مستويات التوفير والاستثمار المنخفض على المستوى القومي، وأدى إلى فضائح التوفير والقروض، وظهور شخصيات مثل إيفان بويسكي.

الآثار السلبية للتليفزيون

جاءت سنوات مابعد الحرب بمستوى رفاهية أدى إلى طلاق بين العمل وبين الكفاح من أجل البقاء، وتزامن هذا مع اختراع التليفزيون. وأصبح التليفزيون هو وسيط الاقتناء وصياغة طباع الشعب. وأدى التليفزيون، الذي كان جزئيا انعكاسا لتآكل القيم في فترة مابعد الحرب، إلى تسريع هذا التآكل أيضا. وعلى الأرجح يعتبر التليفزيون، بعد علاقة الآباء بالأطفال، هو أكثر وسائل صياغة القيم في أمريكا تأثيرا - قبل المدرسة والكنيسة - بل وفي كثير من الحالات قبل العلاقة بين الآباء والأطفال. ولا ريب في أن أطفال اليوم يتلقون رسالة «دولار سريع» قوية من التليفزيون والسينما. ويتلقون رسالة مشوهة ومعادية للأعمال الحرة أيضا، على سبيل المثال من مسلسلات «دالاس» و«فالكون كريست»، ومن أفلام أوليفر ستون مثل «وول ستريت» و«جي. إف. كي».

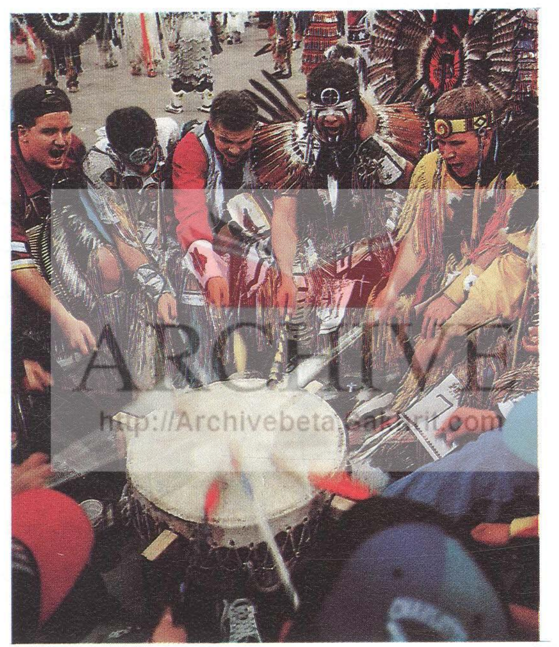
وربما يكون التليفزيون قد لعب دور الأب الحقيقي للجيل الحالي كما لعب دورا رئيسيا في النفور من الادخار على المستوى الوطني. والتليفزيون أيضا مسهم رئيسي في تدهور الإنجاز التعليمي. ومن أجل الإنصاف، ينبغي التأكيد على أن هناك الكثير مما يقدمه التليفزيون - خاصة شبكات التليفزيون العامة - يمكن تصنيفه على أنه إيجابي وبنّاء وتعليمي. لكن مشاهدي شبكات التليفزيون الراقية عددهم قليل، ومعظمهم تلقوا تعليما عاليا، وينتمون إلى الشرائح العليا من الطبقة المتوسطة.

* أي المكسب السريع (المترجم).

الثقة وانعدام الثقة

تتبدى اليوم في كل مكان مستويات عالية من انعدام الثقة في الحكومة وفي رجال السياسة، وفي دوائر رجال الأعمال والمهنيين أيضا. ففظاظة الحوار داخل الكونجرس، وبين الكونجرس والفرع التنفيذي، وبين وسائل الإعلام والساسة، وداخل الدوائر الأكاديمية، وصلت إلى مستوى من الكثافة، بل والعداء لا أتذكر له مثيلا قبل منتصف الستينات.

وأشعر أن الوسط السياسي المتسامح، حيث يمكن أن يجري حوار بناء، قد تقلص إلى حد بعيد خلال هذه العقود، مع اتجاه المزيد من الناس نحو التيارات المتعصبة. وهي الظاهرة نفسها التي تتجلى في جامعاتنا اليوم.



ومع تآكل الثقة، يجيء انخفاض درجة الاندماج في المجتمع، وهي حركة تؤدي لا محالة إلى الفردية غير المسؤولة التي اتسمت بها البلدان الليبرالية ومستعمراتها السابقة. وينعكس انعدام الثقة في انسحاب الجماعات العنصرية والعرقية إلى ذاتها في عملية مثيرة للقلق وصفت بأنها بلقنة لأمريكا، وهي عملية تذكرنا بمجتمعات - مسالمة وتقدمية حقيقة - تحكمها العصابات، وقد تؤدي إلى تقويض البلد البوتقة*

نحو انبعاث ثقافي

ما الذي يمكن القيام به لتشجيع الانبعاث الثقافي في الولايات المتحدة؟ يجب أن نعرف في المقام الأول أن البانوراما الحالية ليست ظلاما دامسا. فاندماج أعداد كبيرة من السود في التيار الثقافي الرئيسي يطلق العنان لقدرات الخلق والإبداع المقموعة لأقلية مهمة في مجتمعنا. وأدت ثورة الوظيفة الجنسية، بغض النظر عن تكاليفها، بالمثل إلى تحرير القدرات الخلاقة والإنتاجية لشرائح أكبر بكثير في مجتمعنا. وتعاني مدارسنا الابتدائية والثانوية الكثير مقارنة بالمعايير الأوروبية واليابانية، لكن تظل جامعاتنا المتميزة هي الأفضل في العالم أجمع. وتتمتع الولايات

* البلد البوتقة melting pot، البلد الذي ينصهر فيه المهاجرون (على اختلاف أعراقهم) في هوية واحدة (المترجم).

المتحدة بأعلى نسبة في العالم لطلاب المراحل ما بعد الثانوية. ويجب أن ندرك أيضا أن أحد أفضل مزايا الثقافة الأمريكية - والنظام الأمريكي - تتمثل في الانفتاح الذي يستدعي النقد، والاندماج وتعرف المشاكل وتشخيصها وحلها.

ولا يجب أن يكون الهدف من إصلاح التلف الذي لحق بالثقافة الأمريكية - هدف الانبعاث الثقافي - هو استعادة الهيمنة الأمريكية المطلقة في سنوات مابعد الحرب. فهذا الهدف غير متصور وغير مرغوب فيه. بل ينبغي أن يكون هو ضمان التطور التقدمي لرفاهة الإنسان، وللإبداع، والعدالة والتفوق في مجتمعنا، كأهداف في ذاتها وكإسهام نقدمه للتطور التقدمي للجنس البشري. لكننا إذا لم نفهم أسباب التدهور النسبي في العقود الأخيرة، ونتحرك على أساس هذا الفهم، فسيستمر هذا التدهور. صحيح أننا أدركنا الأعراض منذ بضع سنوات، إلا أننا لم نتحرك. ويكمن خوفي في أننا متمسكون إلى أبعد الحدود بالقيم الأنانية واللحظية التي أفرزها عصر ما بعد الصناعة لدرجة أننا لن نتحرك دون وقوع حدث جسيم، مثل ركود طويل.

لقد قال هنري روفوسكي، عميد كلية هارفارد، منذ أكثر من عشر سنوات:

«قد نستغرق الكثير من الوقت لكي نستوعب الانحدار. وعلى حين يتفق معظم المؤرخين على أن نقطة التحول لأفول بريطانيا قد حدثت قبل مائة عام مضت، فإن هذه الحقيقة لم تصبح فعلا محل اهتمام عام حتى الحرب العالمية الأولى... وفي رأيي، أن الأسباب الرئيسية كانت داخلية وإنسانية، وبالتالي كان من الممكن تجنبها: فقد أصبحت أساليب الإدارة البريطانية مترهلة، ولم يتواصل نمو الصناعات والتكنولوجيا الجديدة بالقوة الكافية، وعانى التعليم الصناعي والعلوم من التخلف، كما كانت العلاقة بين الحكومة والنشاطات التجارية لا تقوم على الدعم المتبادل. وعندما ننظر إلى بلادنا اليوم من منظور التاريخ، تبدو مؤشرات الخطر واضحة».

ولا تتضح هنا مؤشرات الخطر فقط، فدروس نجاح اليابان وتايوان وكوريا واضحة أيضا. لقد فقدت بريطانيا قيادتها لأنها فقدت حسها نحو العمل والادخار والإبداع والمجازفة. وأصبح الشرق آسيويون موضع حسد العالم أجمع الآن لأنهم ربطوا بدقة بين القيم السامية وبين الصفات السابقة. وثمن النزعة الانقسامية - وفشل البلد البوتقة - داخل الأمة واضح كذلك: في الاتحاد السوفييتي، ويوغسلافيا والعديد من البلدان الأفريقية.

فمن يزدهر؟ إنها المجتمعات المتمسكة بالمستقبل، والتعليم، والإنجاز، وبحياة أفضل للجميع، وبالمجتمع، وكذلك بالحرية والعدالة. وقد كانت الولايات المتحدة يوما ما على رأس هذه المجتمعات. فهل هناك متسع من الوقت لاستعادة هذه القيادة؟

3. من الأحادية إلى التعددية تهديد التفاعلية الثقافية

ريتشارد جامبينو*

«هنا تقبع البوتقة العظمى - أنصت!
ألا تسمع الهدير والخرير:
آه، المثير والمضطرب! السلتي واللاتيني، السلافي والألماني، اليوناني والسوري، الأسود والأصفر، اليهودي والمسيحي»

من مسرحية «البوتقة» التي كتبها إزرائيل زنجويل في عام 1908

«إن مناهج المدارس الأمريكية تضرب جذورها بعمق في «الثقافة الأوروبية الأمريكية» ولها تأثيرات ضارة في نفسية الشبان الأفارقة والآسيويين والأمريكيين اللاتينيين والأمريكيين الأصليين» وتعكس «أمراض كراهية عنصرية عميقة الجذور».

من مشروع مبكر لتقرير لجنة المناهج التي شكلها توماس سوبول، مفوض التعليم في ولاية نيويورك.

رغم أن «التفاعلية الثقافية»** قد أصبحت بدعة سائدة اليوم، فإن التعليم الأمريكي يسير وفقا لنموذج استيعابي يقوم على الاعتقاد بأن الناس من مختلف الأديان والثقافات والأصول العرقية يمكن أن ينصهروا في أمة واحدة تتقاسم ثقافة واحدة تقوم على قيم الديمقراطية الليبرالية. وهذه الفكرة التي عرفت باسم «البلد البوتقة»، علمت الملايين اللغة الإنجليزية، والفضائل المدنية، والإعجاب بثقافة تضرب بجذورها في قيم مستوطني أمريكا الشمالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ومعظمهم من البروتستانت الإنجليز والأسكتلنديين.

ويحترم التعليم التعددي*** الإبقاء على الثقافات المختلفة وتنميتها بين هؤلاء الأمريكيين الذين اختاروا بحرية تطويرها من خلال دراسات الجماعات العرقية التي تشكل في مجموعها سكان الولايات المتحدة، وتعلم اللغة الإنجليزية ودراسة العادات والقيم

* مؤلف كتاب «السباق مع الكارثة: إنقاذ التعليم العالي في أمريكا»
Racing With Catastroph: Rescuing America's Higher Education. (Freedom House 1990)

** التفاعلية الثقافية Multiculturalism- يقول أنصار هذه المدرسة إن الثقافة القائمة هي نتاج لتفاعل ثقافات متعددة، أي أنها «هجين» لثقافات متعددة. وبالتالي لا ينبغي التركيز على عنصر واحد من العناصر المكونة لها (ثقافة الأوروبيين البيض في حالة الولايات المتحدة) بل ينبغي التعرف على كافة عناصرها وعلى الثقافات التي أسهمت بأقساط متفاوتة في تكوينها (المترجم).

*** يدعو التعدديون Pluralists إلى احترام الثقافات المتنوعة في الولايات المتحدة وحق كل ثقافة في النمو المستقل والتفاعل الحر مع الثقافات الأخرى. ويدعو أنصار التعددية Pluralism إلى حق كل المنتمين إلى الأقليات العرقية والثقافية في الاحتفاظ بثقافتهم الخاصة وتطويرها.

المدنية للديمقراطية من خلال استخدام أرفع معايير التدريس والبحث.

والتعليم وفقا للتفاعلية الثقافية يعني عامة تشجيع الثقافات المختلفة في الولايات المتحدة. ويصفه مؤيدوه بطرق متعددة تتراوح بين التعددية المحدودة، مع قصر الاهتمام تقريبا على الأقليات العرقية والأمريكيين اللاتينيين والنساء والشواذ، وبين الانفصاليين الراديكاليين ودعاة مركزية أفريقيا Afrocentrists. وتتباين إلى حد بعيد مواقف المدافعين عن التفاعلية الثقافية وكتابها فيما يتعلق باحترام المثل الديمقراطية الأمريكية، والعقول المتحررة للأفراد، والبحث والتدريس الموضوعيين. واليوم يشترك بعض المدافعين عن نظرية «البلد البوتقة» مع بعض أنصار التفاعلية الثقافية في وصف مواقفهم - خاصة عند الدفاع ضد الانتقادات الموجهة لهم - بأنها «تعددية».

وأما نموذج البلد البوتقة، الموقف القديم، فقد فرض بقوة في المدارس والمؤسسات الأخرى، وتضمن، في المقام الأول، الدمج العنصري القسري لكل السمات القومية والعرقية والدينية للثلاثين مليون «مهاجر جديد» الذين جاءوا إلى الولايات المتحدة في الفترة من 1865 وحتى 1924. وينكر معظم الأمريكيين اليوم ضرورة تخلي المرء عن ديانته والتحول إلى البروتستنتية، وهو ما يشترطه دعاة الاستيعاب اليوم أيضا. وفي الواقع، فإن أبرز المدافعين عن الاستيعاب في البلد البوتقة، آرثر شلزنجر، لا يشير إلى هذا عند تتبعه مسيرة نموذج البلد البوتقة في التاريخ الأمريكي، حيث يقدم أقوى دفاع مكتوب عن هذا النموذج في الحوار الدائر الآن. والأمر المثير للارتباك أنه يصف دفاعه عن رؤية «البلد البوتقة» بأنه «تعددي».

ويقول المدافعون عن فكرة البلد البوتقة إنها ستؤدي إلى إنتاج هوية أمريكية جديدة ونقية. ورغم أن أحدا لا ينكر أن هذه الهوية، في واقع الأمر، قد صيغت بالقوة على سندان التاريخ الأمريكي، فإن بإمكاننا اليوم أن ندرك حجم الضغوط التي فرضها «البلد البوتقة» على المهاجرين وأبنائهم.

ويؤكد شلزنجر «أن الأنجلوساكسونيين البروتستانت البيض كانوا طوال قرنين - وبشكل حاسم - ومازالوا هم المؤثر الطاغي في الثقافة الأمريكية والمجتمع الأمريكي». ويضيف شلزنجر «إن الأنجلوساكسونيين البيض البروتستانت، بدءا من أتباع آدامز* في القرن الثامن عشر وحتى أتباع لودج** في القرن العشرين، كانوا دائما من أبرز المعادين لبريطانيا». وكأن هذا يلغي بدرجة ما نموذج «الأمريكي النقي» الذي تبناه الأنجلوساكسونيون البيض البروتستانت، وفرض قسرا وبقسوة على المهاجرين، وتضمن تخليهم عن ديانتهم. إن هذا هو الخداع بعينه، فالأنجلوساكسونيون البيض البروتستانت

* جون آدامز John Adams : أول نائب رئيس للولايات المتحدة (1789 - 1797) وثاني رؤسائها (1797 - 1801). (المترجم).

** هنري كابوت لودج Henry Cabot Ladge : سياسي أمريكي محافظ وعضو في مجلس الشيوخ (1893 - 1924)، أيد انعزال أمريكا وعارض انضمامها إلى عصبة الأمم (المترجم).

البارزون، من أتباع آدامز ولودج خافوا، أو كرهوا، أو عادوا سلطة بريطانيا ككيان سياسي، كدولة. لكنهم كانوا ثقافيا أنجلوساكسونيين بيض بروتستانت مثلهم في ذلك مثل أقرانهم دون أن يكونوا خاضعين للتاج البريطاني. وثقافيا، لم يكونوا فقط أنجلوساكسونيين بيض بروتستانت، بل كان الكثيرون منهم معادين واعين لبريطانيا. لكنهم كانوا بالتأكيد مؤيدين للضغط على المهاجرين الآخرين لكي يصبحوا مثلهم، أنجلوساكسونيين بيضا بروتستانت، وإن ظلوا يعتبرونهم على درجة أقل.

وللأسف، يكتب شلزنجر كما لو أن الثقافة والسيكولوجيا لا يمكن أن تؤديا إلى البلقنة أو إلى مصير مثل مصير بابل القديمة. ويزعم كذلك أن الحفاظ على الثقافات العرقية لغير الأنجلوساكسونيين البيض البروتستانت ورعايتها أمر يتناقض مع القيم الديمقراطية السياسية والمدنية التي تربط وشائج الأمة، وهي قيم، كما أكد على نحو صحيح، مستقاة أساسا من التاريخ الإنجليزي والتاريخ الأنجلو أمريكي. ويذهب في حماسته بعيدا ليساوي بين طابع هذه القيم وأصولها. ورغم ليبراليته المعلنة، يقترب على نحو خطير من رؤى أتباع حزب «لا أعلم شيئا»*، الذين كانوا يعتقدون أن المهاجرين الذين يضربون بجذورهم في ثقافات أخرى، مثل الإيرلنديين والإيطاليين ويهود أوروبا الشرقية والصينيين والأمريكيين اللاتينيين، لا يمكنهم فهم القيم الديمقراطية الليبرالية الأمريكية أو الولاء لها.

ويساوي شلزنجر ومتطرفو البوتقة الآخرون بين التعبيرات العرقية الأمريكية، باستثناء الأنجلو ساكسونيين البيض البروتستانت، وبين القبلية، وضيق الأفق، والقومية العمياء المدمرة. (هذا هو النوع الوحيد الذي يذكره شلزنجر، غافلا عن قوميته الأمريكية المتطرفة، الواضحة جدا في كتاباته). وهو من ثم قادر على الإشارة إلى أي حرب عرقية تنشب على وجه الأرض على أنها المصير الذي ينتظر أمريكا إذا تخلت عن شرط امتصاص كل الأمريكيين في اللغة الإنجليزية والولاء للقيم الديمقراطية. وهو يفترض، مثله في ذلك مثل المتحمسين السابقين والحاليين لفكرة البلد البوتقة، أن أحدا من مهاجري الأمس واليوم من غير الأنجلوساكسونيين البيض البروتستانت لم يأت معه بقيم ديمقراطية ـ وهو ما يعكس مجددا على نحو ضمني تعريفه الثابت للقيم الديمقراطية على أنها فقط قيم الأنجلو ساكسونيين البيض البروتستانت. لكن ألم يتأثر أي من المهاجرين الإيطاليين في عام 1990 بجوسيب غاريبالدي، أوجوسيب مازيني، أو أبراهام لنكولن؟ ألم يتأثر أحد من البولنديين بليخ فاونسا؟ ألم يتأثر أحد من الصينيين بميدان السلام السماوي؟ ألم يتأثر أحد من الفليبينيين بكوري آكينو؟ واقع الأمر أننا شهدنا خلال العقد الأخير الكثير من شعوب

---

* حزب لا أعلم شيئا Know Nothings، حزب سياسي أمريكي ازدهر في 1854 ـ 1859، وعارض الهجرة إلى الولايات المتحدة، خاصة من الشعوب الخاضعة للكنيسة الكاثوليكية، وأيد استمرار العبودية. وعرف بهذا الاسم لأن أعضاءه كانوا يجيبون عن أسئلة المحققين بعبارة واحدة هي «لا أعلم شيئا» (المترجم).

العالم وهي تطالب بإشاعة الديمقراطية في مجتمعاتها، وقد ظفر عدد من هذه الشعوب بها بالفعل.

العقيدة التعددية

ومن أجل تجنب مغالاة دعاة امتصاص المهاجرين، تؤكد التعددية أن الديمقراطية تنتعش ــ ولا تتهدد ــ بالتنوع. والعقيدة التعددية هي الأصلح في ضوء التطورات التاريخية: فالمثل الديمقراطية الأمريكية لا تقاوم بالنسبة للأمريكيين. وهي لا تحتاج إلى تلقين الناس بل إلى تعليمهم.

وقضايا التثاقف* والامتصاص الثقافي قضايا شديدة التعقيد والتباين. وتحل بصعوبة بالغة من خلال التجارب المختلفة مثل تعلم اللغة الإنجليزية أو بالزواج من طرف ينتمي إلى ثقافة أخرى أو بالتحول الكلي. فالقيم والرؤى والسيكولوجيات الثقافية تنتقل من جيل إلى جيل ولا تزال بادية أمامنا، بأساليب شديدة الخصوصية، في أناس تمتد جذورهم إلى عدة أجيال في الولايات المتحدة.

وتتمتع التعددية بميزة تمكين الثقافات العرقية المختلفة من النمو على حين تجرى في الوقت نفسه عملية تعليم الناس الحقائق المتعلقة بالتاريخ، والمجتمع، والحكومة والقيم الديمقراطية المدنية. وكانت التعددية قد شهدت انبعاثا ونموا كبيرا في السبعينات. وفي المقابل خففت التعددية من الآلام النفسية للأفراد الذين عانوا من الضغوط القاسية للبلد البوتقة، وهو الهدف الذي اعتبره شلزنجر «علاجا».

ويعتقد التعدديون أنه لا يمكن الوصول إلى المجتمع التعددي الحقيقي وإلى المصلحة المشتركة من خلال التلقين والهندسة الاجتماعية، على حد تعبير مايكل نوفاك وكونتين كواد. بل إنه النتيجة الطبيعية لمجتمع مختلط ومفتوح وحر. وفي تعليم جوهره التعددية لن نجد سوى التقدير والاحترام لذلك المجتمع.

إن التعددية تدعو إلى تاريخ أمريكي أكثر شمولا وإلى دراسة العالم غير الغربي، على حين تتمسك، في مجال التعليم والبحث داخل المدارس، بالالتزام بأعلى معايير الحقيقة الموضوعية الثابتة في الفروع الفكرية المختلفة عبر تاريخها الطويل.

وقد ناضل التعدديون في حقل التعليم ضد هجوم أنصار البلد البوتقة في السبعينات، لكن قللت من شأنهم قوى أخرى أيضا، خاصة اليساريين الجدد، الذين لم يحفلوا كثيرا بالقيم الديمقراطية التي توحد الأمريكيين أو بمعايير الانفتاح والبرهنة الموضوعية وعدم التلقين في حقل التعليم والبحث. ومع نهاية الثمانينات، أزاحت الجماعة الأخيرة أنصار التعددية عن المدارس لصالح «التفاعلية الثقافية»،. وهي عقيدة تكاد تكون صورة طبق الأصل لآراء غلاة الداعين إلى البلد البوتقة.

---

* التثاقف Acculturalization : التبادل الثقافي بين شعبين مختلفين، وبخاصة التعديلات التي تطرأ على مجتمع أو ثقافة بدائية نتيجة الاحتكاك مع ثقافة متقدمة (المترجم).

والتفاعلية الثقافية عقيدة تحظى بتشجيع حماسي من عدد كبير من كبار رؤساء الكليات والجامعات، إن لم يكن من معظمهم، ومن حفنة من أشهر الكتاب ومن بعض الوكالات الحكومية القومية في الولايات الحضرية والمدن الكبرى مع كثافة وإصرار لم يشهد التعليم الأمريكي مثيلهما من قبل. وفي حقيقة الأمر أن هذا التأييد الحماسي كثيرا ما يدفع الأمور صوب أرثوذكسية سياسية فكرية، تفرض في أحيان كثيرة بالإكراه. وعلى سبيل المثال، هددت رابطة مدارس وكليات الولايات الوسطى، في عام 1990، بسحب ترخيص كلية باروك ومدارس أخرى. لكن ماذا كان السبب؟ لقد وجدت الرابطة أن كلية باروك تدعم القيم الأكاديمية على نحو يدعو إلى الإعجاب، لكنها لا تمنح الاهتمام الملائم لقيم التفاعلية الثقافية والعدل الاجتماعي من منظور التفاعلية الثقافية.

وهناك الكثير من الأمثلة الصارخة، ليس فقط في الأطراف بل في القلب الفاعل لحركة التفاعلية الثقافية. وتبين الرسالة التالية، التي نشرتها مجلة التايم، أحد الأمثلة العديدة على الاستخفاف بالبحث العلمي وبالحقيقة:

«كنت واحدا من خمسة من الأكاديميين الجامعيين من غير الأمريكيين الأصليين كلفوا مراجعة دليل مرشد المدرس في نيويورك، الذي تضمن تأكيدات على تأثير الإيروكوا* في دستور الولايات المتحدة، وهو الموضوع الذي ذكر في سياق الحديث الذي أجرته التايم مع مفوض التعليم في ولاية نيويورك توماس سوبول (التايم، عدد 11/11/1989). وقد أجمع هؤلاء الأكاديميون على أنه لا يوجد دليل كاف على صحة فكرة تأثير الإيروكوا على واضعي الدستور، رغم سنوات البحث على يد باحثين غير متآمرين. كما أن هذه المزاعم لم تصدر عن أي مؤرخ مطلع. ومع ذلك، اختار المفوض سوبول أن يصطف مع الجهود غير المقنعة والمخادعة لمجموعة من الكتاب الأمريكيين الأصليين وأنصارهم، الذين يقلبون التاريخ على رأسه. وقد استبعد سوبول انتقاداتنا، وأبعدنا عن عملية المراجعة منذ ذلك الوقت.

وليام ستارنا
أستاذ بقسم الأنثروبولوجيا
جامعة ولاية نيويورك - أونيونتا

ومن أبرز منظري حركة التفاعلية الثقافية نجد كتابا وخطباء يدافعون عن «مركزية أفريقيا» وعن منهج في التعليم أصبح له الأولوية بالفعل في بعض المقررات الدراسية، بل وتبنته بكثافة أو كليا بعض الولايات والمناطق كأساس لمقررات دراسية. ويتمثل أحد المحاور الرئيسية لهذا الموقف في الاعتقاد بأن مقررات المدارس الأمريكية «الأوروبية المركز»، كما قال البروفيسور

* إيروكوا Iroquois: اتحاد للقبائل الهندية في أمريكا الشمالية تأسس في عام 1570 لوضع حد للحروب المستمرة بين القبائل وممارساتها الوحشية. وضم هذا التحالف قبائل الموهوك، والأونيدا، والأونونداجا، والكايوجا، والسينيكا، ثم انضمت إليه بعد ذلك قبيلة التوسكارو ثم قبائل أخرى. واحتلت هذه القبائل المنطقة الواقعة بين فرجينيا وأونتاريو (خلال القرون 16 و17 و18). وتحالفت مع البريطانيين، أولا ضد الفرنسيين ثم ضد الثوار الأمريكيين. وتعيش بقايا هذه القبائل الآن في جنوب كندا (المترجم).

مولفي كيتن آسانتي، «تقتل بشكل ما أطفالنا وعقولهم». وبدلا من ذلك، يجب أن يتعلم الأطفال مركزية أفريقيا، والسيادة الأخلاقية «للمنظومة الثقافية الأفريقية» على مثيلتها الأوروبية. (من بين افتراضات آسانتي المشوشة أن هناك ثقافة أوروبية واحدة وثقافة أفريقية واحدة).

ويبزه أستاذ علم النفس فرانسيس كريس فيما يتعلق بالسيادة الأفريقية، ليؤكد أن السود يتمتعون بسيادة فطرية على البيض لأن الأخيرين يحتاجون إلى الكفاح من أجل تعويض عجزهم النسبي عن إنتاج الميلانين (الذي يسبب تلون الجلد). ويؤكد البروفيسور ليونارد جيفريز، الأستاذ في كلية باروك، أن البيضْ أدنى أخلاقيا من السود، فهم «أبناء الثلج» الذين جاءوا من كهوف أوروبا القديمة، والسود أسمى أخلاقيا لأنهم «أبناء الشمس» الذين ينتمون في خلفياتهم إلى نور الشمس الأفريقية الساطعة القوية. ويؤكد أستاذ علم النفس آسا هيليارد والكاتب جورج جيمس أن المصريين القدماء كانوا من السود الأفارقة، وأنهم طوروا حضارة «سرقها» اليونان من مصر وسميت منذ ذلك الوقت بالحضارة الغربية. ويقول هيليارد إن أي هجوم فكري على أي أو كل هذه الأفكار، أو على أفكار «مركزية أفريقيا»، هو «هجوم على دراسة الأفارقة بشكل عام».

وللحيلولة دون أي دراسة نقدية لهذه الافتراضات، يشترط المؤرخ جون هنريك أن يكون «الباحثون الأفارقة هم المرجع الأخير بالنسبة لأفريقيا».

وبين هؤلاء المتخصصين الأفارقة، يبرز البروفيسور شيخ أنتاديوب، الأستاذ في جامعة داكار، وهو المصدر الرئيسي لفكرة أن «قدماء المصريين كانوا من الزنوج... فالعالم الأسود هو أصل الحضارة الغربية التي تزهو بنفسها أمام أعيننا اليوم». ويؤكد الكاتب مايكل باردلي أن الأفارقة «اكتشفوا» أمريكا قبل كولومبوس وتركوا بصماتهم على حضارات المايا والآزتيك والأنكا.

وهذه الافتراضات هي في أفضل الأحوال مجرد أطروحات تجريبية لكنها وجدت طريقها إلى المناهج والمقررات الدراسية، جنبا إلى جنب مع الزعم السابق بأن النظام الاجتماعي السياسي لقبائل الإيركوا قد أثر في وضع دستور الولايات المتحدة.

إن التعددية اليوم قد نحيت جانبا في سياق المعركة بين أنصار الاستيعاب في البلد البوتقة وبين متطرفي التفاعلية الثقافية. والتعليم الأمريكي هو البائس الحقيقي.

إننا نحتاج إلى تحديد دقيق للتعددية حتى تتخلص تماما من كلتا الصيغتين المتطرفتين للتفاعلية الثقافية ومن الفلسفات الجديدة للبلد البوتقة. وهو موقف أقرب إلى أن يكون على حافة الهاوية بين الاثنتين. ومن أجل إنقاذها من السقوط في أي من الجانبين، فإننا نحتاج إلى الاستمرار في تمسكنا بالإيمان بأن المثل الديمقراطية ستظل لا تقاوم بالنسبة لكل الأمريكيين إذا توافر البحث العلمي المنفتح والحر، ومعايير الحقيقة الموضوعية ونظام التعليم غير التلقيني.

4. تسويق التفاعلية الثقافية

برايان براون*

عرض وطلب. هم يطلبونها ونحن نعرضها. إن السوق هي التي تملي تدفق السلع والسوق الأكاديمي تطلب التفاعلية الثقافية.

وتسابق دور النشر الأكاديمية العملاقة - ماكميلان، وسان مارتنز، ومكجروهيل، ونورتون وهاربر كولينز - من أجل نصيب في السوق. وهذا يعني أنه إذا أراد الزبون عجلة القيادة على يمين السيارة فمن الأفضل أن تضعها هكذا. واليوم، تحاول دور النشر الكبرى أن تظهر قدرتها على إصدار أكثر المراجع الجامعية تنوعا وتفتحا وتفاعلية ثقافية.

فماذا تفعل دار نشر سان مارتنز بريس لجعل مراجعها الجامعية أكثر تفاعلية ثقافية؟ يقول جون دانيلز، رئيس تحرير قسم الكتب الجامعية في الدار: إن الدار تفعل «كل شيء»، و«عندما نبحث في كيفية تنقيح كتبنا، تحتل التفاعلية الثقافية قمة قائمة العوامل المؤدية لذلك».

ومثلها في ذلك مثل دور النشر الكبرى الأخرى، فإن دار نشر سان مارتنز تتباهى باعتزاز باستبدال الطنين الأجوف للرجل الأبيض الأوروبي بالرسائل المضيئة للتنوع الثقافي. ومن بين دعاياتها لإصدارها الأدبي الجديد «القصة القصيرة: 30 من روائع القصص القصيرة»، تقدم الدار خريطة أنيقة تقسم المسهمين إلى مجموعات: «إحدى عشرة كاتبة» و«تمثيل أكبر للكتاب العرقيين الذين لا يكتبون بالإنجليزية». ومن المفترض أن هذا سيمكن «القراء من إدراك وتقييم التأثيرات الدولية وتأثيرات التفاعلية الثقافية على شكل القصة القصيرة».

وفي دار نشر ماكميلان، نجد أن أبرز الكتب المستخدمة في مقررات المرحلة التمهيدية للجامعة هو كتاب «عالم واحد، ثقافات متعددة»، وقد كتب على غلافه «إنه بديل رائع لمقررات المرحلة التمهيدية للجامعة» ومثله مثل كتب التفاعلية الثقافية الجديدة الأخرى، يتضمن هذا الكتاب خريطة و«فهرست جغرافي» للثقافات العديدة التي يستعرضها.

ويصور غلاف كتاب «عالم واحد وثقافات متعددة» ثلاثة رجال وثلاث نساء. وعلى حين يرتدي رجلان العمامة، تتحلى امرأتان بحلقة الأنف. أما الرجل الأبيض على الغلاف فقد كان فلاحا اسكتلنديا عجوزا احتل أسفل الركن الأيسر للصورة.

* محام يعمل في دار نشر Freedom House

ويقول أحد الفنيين العاملين في الدار: «لا تتصور لوهلة أن مكان الاسكتلندي جاء عشوائيا. كان يتحتم أن يكون في أسفل الصورة وعلى يسارها. إذ لا يمكن تصويره بطريقة أخري يمكن ترجمتها على أنها شكل من أشكال السيادة ـ في الوسط أو في أعلى الصورة».

وتعرض المقدمة على القراء تلخيصا للفصل تلو الآخر بهدف المساعدة على بيع الكتاب. ونقرأ عن الفصل الثامن «الدور الذي تلعبه الأزياء في الثقافات المختلفة» مايلي: «نلقي نظرة على الدور الذي تلعبه الأزياء في رقصة الشمس عند قبيلة الكيووا الهندية في ولاية ويومنج، وشواطىء العراة على الساحل اليوغسلافي، ومهرجانات المكسيك، ومهرجان الزومبى في هاييتي، والطقوس القبلية المرعبة في بوتسوانا». وفي الفصل الثالث «يلقي القراء نظرة على الكيفية التي تتحدد بها الأدوار الجنسية ثقافيا وليس بيولوجيا». كيف؟ من خلال النظر إلى «مجتمعات متباينة مثل جزيرة بالي في أندونيسيا، وباكستان، وكنج بوتسوانا، والكونغو، وإسرائيل وكندا».

وكتاب «قراءة أمريكا» كتاب شهير آخر لطلاب المرحلة التمهيدية في الجامعة صدر عن دار نشر سان مارتنز. وتقول آمي توماس من جامعة ديوك عنه: «إنه مختارات أدبية ممتازة تتناسب مع التنوع في صفوف طلابي ـ من النواحي العرقية والجنسية والطبقية والعنصرية والنوعية والإقليمية».

وتخوض مقالات «قراءة أمريكا» في أزمة الهوية عند المرأة الهندية الأمريكية المعاصرة، والعقبات التي تواجه أسر الشواذ، والمستوى المتزايد لعدم المساواة في أمريكا.

ومثله مثل العديد من أعمال التفاعلية الثقافية الجديدة، يبدو كتاب «قراءة أمريكا» وكأنه يمتلك نكهة أيديولوجية محددة. وتصفه قائمة كتب دار نشر سان مارتنز بأنه «أفضل كتب المرحلة التمهيدية للجامعة (حيث) يقدم أكبر مجموعة متنوعة من الأصوات.. لمساعدة الطلاب على أن يصبحوا مفكرين نقديين». أما بناء الكتاب فقد «قام على موضوع جديد يفرض نفسه على الساحة ـ خرافات الثقافة الأمريكية ـ مع 78 نصا مختارا (46 منها جديدا معظمها لكاتبات وكتاب ينتمون إلى الأقليات)». وعنوان الفصل الأول هو «المال والنجاح: خرافة الفرصة الفرحية».وفي أحد النصوص، تقول ستدز تركيل: «الحلم الأمريكي، أتراه الآن، لا يحكمه التعليم، أو العمل الجاد، أو الفرصة، لكن السلطة والخوف».

ويتفق ستيف سبييوز من العاملين في دار نشر سان مارتنز مع القول إن الكتاب «يلقي نظرة تقدمية على التفاعلية الثقافية». لكنه يضيف «حتى أكثر النصوص تقليدية يمكن أن تتجذر من خلال المدرس. ويمكن للأساتذة أن يعيدوا بناء خطبة جتسبرج* إذا أرادوا ذلك».

* خطبة جتسبرج Gettysburg Adress، الكلمة التي ألقاها لنكولن (19/11/1863) في المقبرة الوطنية لضحايا الحرب الأهلية في جتسبرج. وهي مديح شهير للديمقراطية الأمريكية، منها (حكومة الشعب للشعب، من أجل شعب لن يهون على هذه الأرض)، (المترجم).

ولا تقتصر نزعة التفاعلية الثقافية على التعليم العالي. فمجلس التعليم في مدينة نيويورك، كجزء من تشجيعه للتفاعلية الثقافية والتنوع، أضاف مرشدا لمقررات السنة الأولى تضمن عناوين لقصص عن الشواذ أنتجتها دار نشر صغيرة في بوسطون. ومن بين عناوين هذه القصص «هيرز لها أمان»، و«جلوريا تذهب إلى عرس الشواذ»، و«لأبي زميل غرفة». بل إن قصة هيرز تتضمن جزءا عن التلقيح الصناعي للشاذات. وقد منع مجلس مدرسة كوينز أخيرا توزيع هذا المرشد على التلاميذ أبناء السنوات الست. وقال متحدث باسم مجلس التعليم لصحيفة نيوز داي إن «المرشد لا يهدف إبدا إلى تشجيع أسلوب حياة الشواذ والشاذات. إنما هو يتحدث عن فكرة التسامح واحترام الاختلاف والتفهم».

لكن الكثيرين من القائمين على دور نشر الكتب الجامعية لا يقبلون مثل هذه الأهداف. فيقول ستيف سيبيون إن دار نشر سان مارتنز تستجيب للاستقصاءات التي تجريها بين أساتذة الجامعة. وبالنسبة لكبير مديري التسويق في قسم كتب الكليات في دار نشر ماكميلان، فإن القضية ليست هي التفاعلية الثقافية.

ويؤكد أن «هناك فقط قصصا جيدة. فتلاميذ اليوم ليسوا على استعداد لفهم شكسبير أو أفلاطون أو سقراط. لأن طلاب الإم. تي. في* لا يقرأون الكلاسيكيات».

وحيث لم تهيمن دور النشر هذه على غالبية السوق بعد، فإن مختارات من نوع «قراءة أمريكا» و«عالم واحد وثقافات متعددة» ستكون هي النافذة الوحيدة التي سيطل منها الكثير من الطلاب على «الأدب» ولا يهتم سيبيون بهذا: «ليس على المدرسين أن يختاروا كتب التفاعلية الثقافية. وعلاوة على ذلك، فإن العقول العظيمة للفكر الغربي، مثل أفلاطون وسقراط، كانت في متناول الطلاب طوال زمن طويل جدا»، ويتفق معه في الرأي ستيوارت هرشبرج، محرر كتاب «عالم واحد وثقافات متعددة»، ويقول: «أن تعارض التغيير، وتتجاهل الديموغرافيا الناهضة، فهذا أمر شديد الدوجمائية والمنهجية وغير واقعي». وبالإضافة إلى هذا، يؤكد هرشبرج أن المختارات في كتابه «تصمد أمام معايير أي من الكلاسيكيين».

لقد مرت دور النشر الأكاديمية بتجول أساسي في السنوات القليلة الماضية. ويقول جون دانييلز من دار نشر سان مارتنز «إن الأكاديميين والناشرين يستجيبون للقاعدة المطلقة للسوق وهي الطلاب. وعلى حين تحتاج المدرسة إلى مخاطبة طلابها، فإننا نحتاج إلى مخاطبة زبائننا». ومن اليسير علينا أن نفهم أن الناشرين يهتمون بالأرباح أكثر من اهتمامهم بالإبقاء على جيمس جويس كمادة رئيسية لمقررات المرحلة التمهيدية للجامعة. وهكذا، فإن المسؤولين الحقيقيين هم المستهلكون ـــ الأكاديميون والطلاب ـــ وطلبهم وليس العارضون. فالسوق المحلية قد تملي ما تبيعه لكنها لا تملي نوعية المستهلك.

* إم. تي. في MTV، أشهر القنوات التليفزيونية الغربية المتخصصة في الأغاني.

المشكلات الاجتماعية في روسيا

تأليف : دافيد إي. باول*

ترجمة: شوقي جلال

إذا كانت الشيوعية قد أفرزت أنواعا كثيرة من المشكلات الاجتماعية فإن محاولات جورباتشيف ويلتسين للتحرك صوب الديمقراطية واقتصاد السوق أفضت إلى تفاقم تلك المشكلات. وأدت جهودهما لتحويل النظام إلى شيء اعتاد جورباتشيف أن يسميه نظاما «طبيعيا» و«متحضرا»، أدت إلى ظهور مصادر جديدة للسخط، وأشكال جديدة من السلوك المنحرف أو غير القانوني، بل وإلى تزايد أسباب عذاب الشعب الروسي.



العنوان الأصلي للمقال :

Social Problems In Russia. Current History, October 1993.

مراجعة: هيئة التحرير

* زميل في مركز البحوث الروسي بجامعة هارفارد حيث تتركز أبحاثه على المجتمع الروسي.

بعد فترة قصيرة من انهيار محاولة الانقلاب ضد الرئيس السوفييتي ميخائيل جورباتشيف، كتب صحافي في صحيفة «برافدا» كلمات مأساوية حزينة في 14 سبتمبر 1991 يقول فيها: «إن الاضطراب الاجتماعي، وافتقاد الثقة في المستقبل والهوة الفاصلة بين الحقائق المعلنة بشأن منطلقات طموحة للحياة الواقعية ـ كل هذه الأمور أفضت إلى اغتراب الشعب». وذهب إلى أن الفوضى الاقتصادية شأنها شأن عدم الاستقرار السياسي كلاهما مسؤولان سواء بسواء عما آلت إليه الحالة المعنوية من انهيار. وأضاف قائلا: «إن السوق بكل ماتنطوي عليه من شكوك مخيفة قد فرضت على كل إنسان أن يُنفذ هو بجلده، بل إن القوات المسلحة التي ظلت على مدى سنوات طويلة تبدو في صورة النموذج للتضامن الاجتماعي والانضباط تكشفت الآن في صورة تنظيمات شاع وسطها أسلوب افتراس الضعفاء. وتفشت عمليات السرقة والنهب وبيع الأسلحة والارتشاء وإدمان المخدرات والكحوليات».

إن هذه المشكلات جميعها، وغيرها، استشرت داخل المجتمع الروسي، وشرعت في تقويض دعائمه. وأضحت الجريمة وجنوح الأحداث، والصحة العامة، وانتشار سوء استخدام العقاقير المخدرة هي المجالات الثلاثة التي تثير قلقا بالغا لدى الناس والحكومة في روسيا.

العنف الجديد:

نوفوروسيك: صبي عمره 13 عاما يحاول اغتصاب أخيه البالغ من العمر 9 سنوات وأخته البالغة من العمر 10 سنوات. وعندما فشلت خطته شنقهما معا.

موسكو: في محاولة للسرقة شنق بعض المراهقين فتاة عمرها 11 سنة مستخدمين في ذلك ثوبها.

موسكو: فتاة عمرها 14 عاما اعتادت أن تحصل على أعلى الدرجات في مدرستها تضع مولودا، وقتلت وليدها بمساعدة صديق لها وقاما بتقطيع أوصاله.

***

هذه الأحداث المأساوية وقعت جميعها أخيرا في روسيا ولأسباب واضحة أثارت بين الناس مشاعر الفزع والخوف. وطبيعي أن مثل هذا السلوك تحديدا لم يكن أحد يسمع عنه في ظل الحكم الشيوعي، سواء بسبب الإرهاب أو الخوف من الإرهاب أو في السنوات الأخيرة بسبب الضغط والترهيب والتضليل الإعلامي. وسواء أن أحدا لم يكن يسمع عن مثل هذه الجرائم لأن أجهزة الرقابة اعتادت تأدية واجبها على مايرام أو لأنها لم تقع إلا نادرا، فإن الإجابة عن ذلك ستظل غير واضحة عن يقين. لقد كانت جرائم العنف تقع بالفعل خلال الحقبة السوفييتية، ولعل أشدها هولا جرائم السفاح أندريه شيكاتيلو الذي ارتكب جرائم قتل وتقطيع أوصال 53 فتى وفتاة على الأقل وأكل لحومهم خلال الفترة من 1978 إلى 1990. غير أن الشواهد تفيد بأن البريسترويكا اقترنت بها مظاهر فوضى سياسية واقتصادية واجتماعية أسهمت

جميعها في حدوث طفرة مذهلة في الجرائم التي تم الإبلاغ عنها، وأدت إلى وقوع تحول جذري في طابع هذه الجرائم.

وفي عام 1992 ارتفع عدد الجرائم المسجلة في روسيا إلى 2,76 مليون جريمة ـ مثلما ارتفع معدل الجريمة إلى 1857 بين كل 100 ألف نسمة من السكان ـ أي بزيادة 27 بالمئة في كل من الفئتين قياسا على ما كانت عليه الحال في عام 1991. وتنبأ أحد كبار المسؤولين في وزارة الداخلية الروسية بأن العام الحالي 1993 سوف يشهد 3,4 ملايين جريمة مسجلة، وهو رقم قياسي يتوقع له أن يرتفع إلى 4 ملايين في عام 1994. والملاحظ أن السرقة والنهب والاغتصاب وقطع الطرق والاعتداء على الممتلكات تمثل ثلثي جميع الجرائم في روسيا. غير أن مايثير قلق غالبية الناس هو السرعة المذهلة في زيادة جرائم العنف. ففي عام 1989 بلغ معدل الوفيات من جراء جريمة القتل في روسيا 12,5 من بين كل 100 ألف نسمة، وهو أعلى من المعدل في الولايات المتحدة البالغ 9,2. ولقد أصبح الفارق بينهما أكبر من ذلك الآن. وعندما أراد القائمون باستطلاع الآراء لقياس الرأي العام في مايو 1992 معرفة استجابة الناس لعبارة «لم يعد المرء يشعر بالأمان» فإن 74 بالمائة في القطاع الأوروبي من روسيا أجاب بنعم. والجريمة عادة في القطاع الأوروبي أقل منها في القطاع غير الأوروبي من روسيا، خاصة في أقصى الشرق منها. (يعزو البعض هذا الفارق بين القطاع الشرقي والقطاع الغربي إلى انتقال «العناصر الإجرامية» من القوقاز إلى سيبيريا والشرق الأقصى).

وشهدت المدن زيادة في معدلات الجريمة أيضا. ففي 16 نوفمبر عام 1992 قالت مجلة «راسيكايا جازيتا» إن موسكو «من أكثر مدن روسيا كثافة من حيث عدد الجرائم» مع الإشارة إلى أن شرطة موسكو سجلت يوم 14 نوفمبر نحو 145 جريمة، على حين كان الرقم في اليوم المناظر له من العام السابق 100 جريمة. والنتيجة تزايد مشاعر الخوف. ولقد أنكر فيكتور يارين وزير الداخلية أن الناس يخافون الخروج ليلا في العاصمة قائلا: «أنا نفسي أعيش في موسكو وأمشي في الطرقات». غير أن الوزير اعترف بأن المواطن العادي يحجم عن السير في الطرقات وأن لذلك مايبرره.

وكذلك فإن الفترة التي خلت منذ أن تولى ميخائيل جورباتشيف السلطة في عام 1985 قد شهدت تحولا مذهلا في الجريمة المنظمة [إذ يوجد في روسيا الآن نحو 4 آلاف فريق للجريمة المنظمة من بينهم 150 فريقا لهم صلات دولية]، والسطو ضد الأجانب [ممن يملكون سلعا أجنبية أو عملات أجنبية تصلح لشراء السلع]، وسرقات الأسلحة [خاصة من ثكنات الجيش والسلطة]، وجرائم اقتصادية بما في ذلك السطو على مكاتب رجال الأعمال والبنوك التي لا تخضع لسيطرة الدولة. [خاصة مكاتب الصرافة التي تعمل في مجال تحويلات العملة]، هذا فضلا

عن اندماج روسيا داخل الشبكة الدولية لإنتاج وتوزيع المخدرات.

تصاعد النزوع إلى الجنوح:

يؤكد المسؤول عن وزارة الداخلية أن «جرائم الأحداث أخذت طابع الوباء». فقد ارتكب الأحداث [أي من هم دون السادسة عشرة من العمر إلا في حالات الجرائم الخطرة بصورة مميزة] خلال العام الماضي نحو 200 ألف جريمة يندرج وصفها تحت الجرائم «الخطرة». والملاحظ أن ثلث مجموع المتورطين في جرائم جماعية هم من الأحداث، وأن 85 بالمائة من عصابات المجرمين التي يزيد عددها على 20 ألف عصابة معروفة للشرطة تضم بين صفوفها أحداثا. كذلك فإن نحو 100 ألف من الخارجين على القانون في عام 1992 هم دون الرابعة عشرة من العمر، كما أن عدد المجرمين الذين تتراوح أعمارهم بين 14 و15 سنة قفز خلال خمس السنوات الأخيرة إلى مايزيد على 50 بالمائة. ولوحظ أن أكثر من ربع مرتكبي عمليات الاغتصاب هم من المراهقين أيضا، كما زادت زيادة صاروخية جرائم السرقة المقترنة بتعاطي المخدرات، وجرائم الاعتداء بالضرب وغير ذلك من أفعال إجرامية يقترفها المراهقون.

وسبق أن أكد ــ في مرحلة باكرة من هذا العام ـ باحث تشريعي بارز هو آي. أنطونيان بمعهد البحوث الجنائية التابع لوزارة الداخلية، أن «جرائم القتل دون سبب ظاهر شاعت بوجه خاص بين المراهقين» وإذا ما سألهم أحد عن دوافعهم إلى الجريمة وجد الصبية يقنعون في الغالب بهز أكتافهم علامة على أنهم لا يعرفون سببا لذلك، وبدت أعمالهم العنيفة وكأنها عمل عشوائي، وكأنه ليس لديهم شيء آخر يفعلونه.

والجدير بالذكر أن ثمة نقصا شديدا في المؤسسات التي يمكنها أن تساعد على إعادة تأهيل المارقين من الأحداث، ولا يوجد بينهم من يوصف بأنه مريض عقليا. والواقع أن المراكز الموجودة حاليا هي إلى حد ما مراكز لتفريخ الأحداث الجانحين. ذلك أن الصغار الذين ارتكبوا جرائم عدوان بسيطة نسبيا [السرقة أو قطع الطريق في 60 بالمائة من الحالات] يجري احتجازهم مع عتاة المجرمين الخطرين [10 بالمائة منهم متهمون بالقتل أو الاغتصاب]. علاوة على هذا تضع السلطات في هذه المنشآت نفسها أطفالا جرى تشخيصهم باعتبارهم مرضى يعانون من «ضعف عقلي مع قدر بسيط من الخبل» ـ أي أنهم بنات وأولاد متخلفون عقليا تعذر عليهم متابعة الدراسة. وكتبت صحيفة نيفازيسمايا جازيتا في عددها الصادر يوم 31 مارس 1993 تقريرا أفاد بأن «هؤلاء الأطفال هم كقاعدة عامة، ضحايا معاصريهم الأشد قسوة عليهم والأكثر نضجا منهم من الناحية العقلية. وبهذا يفقدون في النهاية أي فرصة للعودة إلى الحياة السوية». ويقع بعضهم ضحية للاكتئاب، على حين يتحول بعضهم الآخر إلى عناصر عدوانية، ولكنهم في جميع الأحوال يصبحون عناصر شاردة ضائعة.

والملاحظ أن غالبية المدن ــ بما في ذلك موسكو ذاتها ـ لا توجد بها أية منشآت لإيواء

الأحداث الذين يرتكبون أعمالا إجرامية. وترسل السلطات بعضهم (في حراسة الشرطة طبعا) إلى أنحاء أخرى من روسيا. ولكن السلطات تكتفي بتوجيه تحذير إلى الغالبية الساحقة منهم وتتركهم لحال سبيلهم يمارسون أساليبهم. وجرت أخيرا إصلاحات في مجال التعليم تخول للمسؤولين عن المدارس سلطة طرد التلاميذ البالغين من العمر 14 عاما فأكثر ممن يتخلفون عن متابعة الدراسة. وأدى هذا حتى نهاية العام الماضي إلى طرد نحو 200 ألف تلميذ في روسيا، على حين بلغ عدد من انقطعوا باختيارهم عن الدراسة مابين ضعف وثلاثة أمثال هذا الرقم. ولوحظ أيضا أن من بين 400 ألف تلميذ كان من المقرر أن يعيدوا الدراسة بعد رسوبهم خلال العام الدراسي 1991 ـ 1992 لم يستأنف ثلثهم الدراسة. وكان من المتوقع كذلك أن يكون هذا هو ذات المصير الذي ينتهي إليه 70 ألفا آخرون في العام الحالي. وهاتان المجموعتان من صغار الشباب ـ أي أولئك الذين طردوا من مدارسهم، وأولئك الذين انقطعوا عن دراستهم ـ هما على وجه التحديد البيئة التي تخرج منها الغالبية العظمى من الأحداث الجانحين.

والأمل ضعيف جدا في الخلاص من هذا الوضع نظرا لاستمرار حالة التمزق والاضطراب التي تسود البلاد. ولقد قال يارين في نهاية العام الماضي إن تنبؤات الوزارة بشأن معدلات الجريمة في عام 1995 تثير الاحباط. وتشير الإحصاءات المنشورة في 2 يونيو إلى أن عدد من تم القبض عليهم خلال الربع الأول من عام 1993 يزيد بنسبة 12 بالمائة على المقبوض عليهم خلال ذات الفترة من العام السابق.

فشل سياسة الصحة العامة:

فيما بين عامي 1980 و1988 زاد عدد سكان جمهورية روسيا مليون نسمة سنويا تقريبا. ولكن الرقم انخفض عام 1989 ووصل إلى 600 ألف. وبحلول عام 1991 ناهز 200 ألف نسمة. وهبط عدد السكان بالفعل هذا العام بنحو 190 ألفا (إذ حتى أول يناير بلغ عدد سكان روسيا قرابة 148,5 مليون نسمة). والملاحظ أن انخفاض معدلات النمو السكاني، ومن ثم النقص المطلق في عدد السكان، يمكن أن نعزوه إلى سببين رئيسيين هما انخفاض واضح في معدلات المواليد، وارتفاع نسبي في معدلات الوفيات.

ولكن لماذا هذا الانخفاض السريع جدا في معدلات المواليد؟ ثمة تفسير تقدمه فالنتينا ماتسكو الطبيبة الأولى في مستشفى التوليد رقم 1 في سانت بطرسبرج. إذ إنها ترجع أسباب الانخفاض إلى الصعاب والمخاوف الاقتصادية التي تسيطر على فكر النساء عند التفكير في الإنجاب. وأوضحت ذلك في كلمة لها نشرتها صحيفة «برافدا» يوم 27 يونيو 1991 تقول فيها:

«المجتمع يشيع فيه الخوف بكل معنى الكلمة.. احتمالات البطالة والتضخم والطوابير الطويلة أمام محال بيع السلع، أضف إلى هذا القفزات السريعة في الأسعار،

والأجور التي تتضاءل قدرتها على الشراء في سرعة مطردة، وخطر فقدان المسكن أو ضياع الأمل في إمكان الخلاص من السكن المشترك. وطبيعي أن ينعكس هذا المناخ الاجتماعي على الحياة. إلى جانب أن معامل الصحة عند النساء آخذ في الانخفاض باستمرار ومن ثم لم تعد المرأة تريد أن تخاطر بنفسها وتصبح أما لأطفال. وهكذا زاد عدد النساء اللاتي فقدن خصوبتهن زيادة حادة.. ويمثل العصاب الاجتماعي الذي يستبد بنفوس النساء المحور والأساس في كل هذه المخاوف.

إن النساء يرفضن إنجاب أطفال، أو أنهن يجدن أن الحمل والإنجاب مسألة شديدة العسر لأسباب صحية.

فالرعاية الصحية للمرأة، ورعاية الأمهات أضحتا في روسيا مسألة مروعة أو بائسة على أحسن الفروض. وقدمت وزارة الصحة وعدد من الوكالات الحكومية الأخرى دراسة استقصائية شاملة أوضحت أن 25,8 بالمائة فقط من مجموع النساء الحوامل يمكن وصفهن بأنهن في حالة «صحية جيدة» وأن 20,8 بالمئة في حالة «صحية مقبولة». وبالمثل فإن أقل من نصف النساء لا يعانين من تعقيدات عند الولادة. غير أن هذه الأرقام تهوّن عمليا من حجم المشكلة، وذلك أن الرسميين الذين ذكروا هذه الإحصائيات يعترفون بأن الواقع غير ذلك. إذ إن 25 بالمئة فقط من مجموع النساء الحوامل يمكن تصنيفهن باعتبار أنهن «أصحاء» أو «أصحاء على نحو مقبول» ـــ وهو مايعني أن ثلاثة أرباع النساء يعانين نوعا من المشكلات الطبية خلال فترات الحمل. ويفضي هذا إلى عيوب ولادية وإلى حالات وفاة للأطفال عند الولادة وإلى ارتفاع نسبة قابلية الأطفال للأمراض فضلا عن وفيات الأمهات.

وثمة إحصائية أخرى تشير إلى أن الرعاية الصحية، والتربية الصحية للمرأة في روسيا قاصرة جدا، وليس أدل على هذا من عدد حالات الإجهاض التي تجرى كل عام. [وأن ما وصفه أحد الصحفيين بحالة «الانتحار الصامت للأمة» إنما هو علامة على مشكلات أخرى في المجتمع]. وتتراوح التقديرات مابين 3,5 و7 ملايين حالة إجهاض سنويا، ومن المرجح أن الرقم الثاني هو الأقرب إلى الصواب. ففي عام 1991 نجد أن واحدة من بين كل عشر نساء في الاتحاد السوفييتي ممن تتراوح أعمارهن مابين 15 و49 عاما خاضت تجربة الإجهاض. وكان هناك 137 حالة إجهاض مقابل كل 100 حالة ولادة ظلت على قيد الحياة خلال هذا العام. وارتفع عدد حالات الإجهاض التي أجريت إلى 200 ألف حالة في السنة خلال الفترة من 1985 وحتى1991.

والجدير بالذكر أن الإجهاض كعامل أساسي «إن لم يكن العامل المهم» لضبط النسل لا تلجأ إليه فقط الفتيات القاصرات ممن لا خبرة لديهن، إذ كشفت إحدى الدراسات عن أن 14 بالمئة من النساء اللاتي قضين في الدراسة 16 سنة أو أكثر أجرين مابين 8 و10 عمليات إجهاض.

وتجرى عمليات الإجهاض في روسيا عادة في ظل ظروف مهولة. ويمكن أن نحكي هنا ما

قالته مريضة سابقة: «تجرى عملية الإجهاض لامرأتين، بل ولست نساء في وقت واحد داخل غرفة عمليات واحدة. وتوضع الطاولات بحيث يمكن للمرأة أن ترى وتشاهد كل مايجري للمرأة الأخرى المقابلة لها: الوجه وقد اعتصره وشوهه الألم، والمشيمة الملطخة بالدم عند استئصالها من الرحم. ويكون داخل غرفة العمليات طبيبان وممرضة واحدة.. ويحدث أحيانا أن يحقن الطبيب المريضة بحقنة لا تحدث أثرا نظرا لنقص المادة المخدرة المعبأة، ولكنه لا ينتظر حتى تحدث المادة المخدرة مفعولها. وحيث إن المرأة لم تتخدر تماما فإنها تعاني آلاما وأوجاعا مبرحة، حتى أن البعض منهن يعانين من حالات إغماء».

ويصنف ربع حالات الإجهاض باعتبارها إجهاضا مبكرا ـ أي أجريت العملية خلال الأشهر الثلاثة الأولى من تاريخ الحمل ـ وهو مايعني أن ثلاثة أرباع العمليات تقريبا تجرى في مرحلة تكون فيها المرأة معرضة لأخطار كبيرة. علاوة على هذا فإن أكثر من 300 ألف حالة إجهاض تجريها كل عام نسوة دون السابعة عشرة من العمر، ثم إن 16 بالمئة من هذه العمليات تجرى خارج المستشفيات ـ وهي أوضاع تحمل مخاطر جسيمة وفادحة تهدد المريضة. ومن ثم فلا غرابة أن نجد 276 امرأة لقين حتفهن أثناء عمليات الإجهاض في عام 1991 (وهذه أرقام رسمية والواقع، كما هي العادة دائما، أسوأ من هذا بكثير).

أما عن الجانب الآخر من نقص عدد السكان، فإنه على الرغم من حالة التذبذب الواضحة على المدى القصير، فإن متوسط العمر المتوقع لكل من الرجل والمرأة في روسيا لايزال كما هو مثلما كان منذ ثلاثة عقود مضت دون تغيير. فالأطفال الذكور حديثو الولادة في عام 1990 يمكن أن يمتد بهم العمر، حسبما هو متوقع، إلى 63,8 سنة. ولقد تجاوزت أعمار النساء على مدى الـ 35 عاما الماضية أعمار الرجال بنحو عشر سنوات، ذلك أن متوسط عمر المرأة في عام 1990 بلغ 74,3 سنة.

والجدير بالذكر أن هذه الأرقام، خاصة متوسطات أعمار الذكور تعتبر منخفضة كثيرا بالقياس إلى معايير العالم المتقدم صناعيا. وكما لاحظ كل من موراي فيشباخ Murray Feshbach والفريد فريندلي Alfred Friendly في كتابهما الصادر عام 1992 تحت عنوان «الانتحار الإيكولوجي في الاتحاد السوفييتي Ecocide In The USSR» إذ يقولان في كتابهما: «لقد أخفق حكام الاتحاد السوفييتي في استثمار الرعاية الصحية والحماية البيئية بصورة فعالة. وأدى هذا إلى خفض متوسط العمر المتوقع للمواطنين حتى أصبح مساويا لمتوسط العمر في باراجواي.. إذ بات من المتوقع أن يموت الذكور ممن بلغوا الخمسين من العمر في عام 1985 في وقت مبكر عن الرجال الذين بلغوا مستوى النصف قرن في عام 1939».

أما عن وفيات الأطفال الرضع فقد أوضحت الإحصاءات الرسمية أنها بلغت 24,9 من بين كل 1000 طفل وليد في عام

1976 و17 في العام الأخير. ولكن من الأهمية بمكان ملاحظة أن السلطة الروسية المسؤولة عن الصحة العامة تستخدم تحديدا مميزا بوجه خاص لهذا المصطلح: هو عدد الوفيات على مدى العام الأول من حياة الطفل بين كل 1000 وليد حي، وتشير الآن إلى أنه إذا ما استخدمنا المعايير الدولية فإن الرقم سوف يرتفع بنسبة 15 إلى 30 بالمئة بل وربما يصل إلى 50 بالمئة. ويذهب فيشباخ وفريندلي في تقديراتهما إلى أن المعدل الصحيح لوفيات الأطفال الرضع في الاتحاد السوفييتي في عام 1989 ارتفع إلى 33 بين كل 1000 وهو مستوى مماثل لما هو عليه الحال في الصين وسري لانكا. [وتوضح إحصاءات الولايات المتحدة أن معدل وفيات الأطفال الرضع بلغ 9,2 من بين كل 1000 وهو معدل أفضل كثيرا مما عليه الحال في روسيا وكفيل بأن يضع أمريكا في المرتبة العشرين على مستوى العالم].

وارتفعت مستويات قابلية المرض بين الأطفال حديثي الولادة ارتفاعا مذهلا على مدى عشر السنوات الأخيرة: إذ تراوح الرقم خلال الفترة من عام 1980 إلى 1991 مابين 82 و174 حالة بين كل 1000 وليد حي. ومن المتوقع مع حلول عام 2015 أن ينخفض عدد الأطفال حديثي الولادة ممن يوصفون بأنهم أصحاء إلى مابين 15 و20 بالمئة فقط، على حين من المتوقع أن ترتفع نسبة حديثي الولادة الذين يعانون من أمراض ولادية أو مزمنة إلى 25 بالمئة. وثمة دراسة أجريت في مدينة ليبتسيك Lipetsk على مجموعة من الأطفال المولودين عام 1979 كشفت عن أن مستويات قابلية المرض خلال العام الأول من حياتهم بلغت 4736 بين كل 10 آلاف طفل من العمر نفسه. وارتفع الرقم بين هؤلاء الأطفال خلال العام التالي إلى 5391 [ويرجع السبب أساسا إلى أن الغالبية التحقوا بمؤسسات حضانة قبل سن الدراسة]. هذا على حين انخفض الرقم في العام الثالث إلى 4500. غير أن هذا يعني، على الرغم من ذلك، أن كل طفل، في المتوسط العام، يمرض أربع أو خمس مرات خلال العام الواحد على مدى ثلاث السنوات الأولى من العمر. [ولم تتوافر لنا معلومات عن طول فترات المرض. غير أن الشيء المعتاد تماما أن الأطفال عانوا الكثير جدا من النوبات الناجمة عن سوء الحالة الصحية وأنهم بالضرورة في حالة ضعف واضح].

ونجد هنا مجموعة من العوامل المؤثرة معا: أولا، إن أكثر من نصف الأمهات اللائي ينجبن لأول مرة في روسيا عاجزات عن إرضاع أطفالهن رضاعة طبيعية. ويرجع ذلك لسبب رئيسي هو ضعف الغذاء. ثانيا: إن أعدادا كبيرة من النساء الشابات ـــ أكثرهن لايزلن قاصرات ـــ يحملن وينجبن. ويغلب على هؤلاء النسوة أنهن أقل نضجا، بدنيا ونفسيا، من النساء اللاتي يلدن وهن في العشرينات والثلاثينات من العمر. علاوة على هذا ثمة حالات تتكرر كثيرا مع الأمهات صغيرات السن اللاتي يلدن قبل اكتمال نضجهن مثل نقص وزن الوليد وغير ذلك من العوامل التي تسبب أخطارا كبيرة وتسهم

حتما في ارتفاع نسبة الوفيات والأمراض بين الأطفال الرضع. ثالثا: نظرا لأن جميع النساء اللاتي في سن الحمل يعملن في روسيا فإنهن يلجأن دائما إلى إلحاق أطفالهن بمراكز رعاية أثناء النهار حيث يتعرض الأطفال لأمراض معدية، وكثيرا جدا مايتعرضون لنقص في الرعاية والتغذية.

والملاحظ أن الأمراض التي تم القضاء عليها تماما في المجتمعات المتقدمة صناعيا ـ مثل الكوليرا وحمى التيفويد والدفتريا والسعال الديكي والحصبة وغيرها ـ لاتزال تصيب الأطفال في روسيا. وليس واضحا بالدقة عدد من يصابون بهذه الأمراض بسبب نقص التقارير الإحصائية. ولكن لا جدال في أن العدد أكبر كثيرا مما عليه الحال في غرب أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان.

نظام بال للرعاية الصحية:

يعاني نظام الصحة العامة المعني بشؤون التوليد في روسيا أزمة، إذ على الرغم من كثرة عدد الأطباء ومن هم في مستواهم نسبيا فإن مستواهم سيىء جدا من حيث التدريب، فضلا عن افتقارهم إلى التجهيزات الحديثة وضعف رواتبهم. وإذا كانت أرقام رواتبهم بالروبلات هزيلة جدا نظرا لانهيار سعر الروبل، فإن الجدير بالملاحظة أن متوسط الراتب الشهري في عام 1991 في مجال الرعاية الصحية لم يزد على 68,2 بالمئة فقط من متوسط الاقتصاد القومي في مجمله.

ويساعدنا هذا على تفسير تفشي الفساد بين العاملين في مجال الطب ـ حيث الرشوة لازمة لكل شيء ابتداء من تغيير ملاءة السرير إلى الحصول على الخدمات من جراح «جيد».

ونظرا لحالة القلق التي سادت بسبب التباين الشديد بين الأجور وتكلفة المعيشة أعلن اتحاد العاملين في المجال الطبي في كل روسيا الإضراب في العام الماضي للمطالبة برفع الأجور وتحسين حالة التمويل للمؤسسات الطبية. ولم يشارك في هذا الإضراب جميع العاملين في مجال الرعاية الصحية، إلا أنه لوحظ أن خدمات الطوارىء لم يقدمها العاملون في بعض الأماكن، على حين اتخذ العاملون في أماكن أخرى قرارا بعدم الإضراب حتى لا تزداد أوضاع المرضى تدهورا.

والملاحظ كذلك أن مباني المستشفيات والعيادات المجمعة في حالة يرثى لها. إذ إن نحو 15 بالمئة من هذه المباني أقيمت قبل عام 1940، وقرابة النسبة ذاتها أقيمت فيما بين عامي 1981 و1990. وقيل إن 9 أو 10 بالمئة منها بحاجة إلى عمليات إصلاح عاجلة، أو هي بحاجة إلى هدمها وإحلال مبان جديدة محلها. كذلك فإن 46 بالمئة من المباني الأولى و31 بالمئة من المباني الثانية بحاجة إلى عمليات ترميم أساسية ما لم تكن كاملة شاملة. وتعاني نسبة 12 بالمئة تقريبا من المستشفيات و7 بالمئة من العيادات الشاملة في البلاد من نقص المياه الجارية، فضلا عن أن 42 بالمئة من المستشفيات و30 بالمئة من العيادات الشاملة ليست متصلة بنظام الصرف، و12 بالمئة فقط من النوعين بها نظام تدفئة مركزي.

وليس هذا فقط فإن هناك ماهو أسوأ، حيث نجد أن نحو 60 بالمئة من الأسرّة المشغولة الآن ليس لها مكان داخل عنابر المستشفيات، وكذلك 14 بالمئة من الأسرّة في العيادات الشاملة ليس لها مكان داخل الغرف. (إذ الكثير من الأسرة موضوع في الأروقة، وغالبا مايتعين على المرضى من النزلاء مغادرة الأسرّة بعد بضعة أيام فقط). وتعاني الوحدات الطبية للأطفال ومستشفيات الولادة من إهمال واضح، ويقال إن أكثر من عشر إجمالي مستشفيات الأطفال ووحدات الأطفال في المستشفيات العامة والعيادات الشاملة يتعين إزالته، كما يحتاج البعض الآخر إلى ترميمات أساسية. وهناك 9 بالمئة فقط من بين 38 قسما من أقسام التوليد المخصصة للنزلاء في موسكو - التي يفترض أنها أفضل القطاعات في البلاد - هي التي تتوافر فيها المعايير الحديثة لأقسام التوليد.

وتمثل مشكلة الأدوية أهم جوانب مشكلة الرعاية الصحية في روسيا والتي يدور بشأنها حوار واسع النطاق، ويصف مراسل صحيفة برافدا هذه المشكلة بأنها كارثة - حسب تعبيره في عدد 31 يناير 1991. فالملاحظ أن حاجات البلاد من إمدادات الأدوية هبطت فيما بين عامي 1985 و1991 من 82 بالمئة إلى 70 بالمئة.

كذلك فإن الإنتاج المحلي من الأدوية نقص منذ عام 1985 إذ أصبح يفي بنسبة 34 بالمئة بدلا من 52 بالمئة من حاجة البلاد.

وتستورد روسيا العقاقير والأدوية أساسا من شرق أوروبا والديمقراطيات الجديدة التي تطالب الآن بدفع ثمن الأدوية بالعملة الصعبة.

وحري ألا يقع كل اللوم في هذا على جورباتشيف وحده - أو على الرئيس الروسي الحالي بوريس يلتسين - فالمعروف أن أحدث مشروع لصناعة الأدوية في روسيا الآن عمره لا يقل عن 15 عاما؛ هذا على حين نجد مجموعة من الأسباب المشتركة من بينها سوء الصيانة وانخفاض معدلات الاستثمار وارتفاع الوعي الشعبي بشأن المسائل الإيكولوجية أدت جميعها إلى إغلاق مابين 10 و30 بالمئة من المنشآت الباقية كل عام. وطبيعي أن البلدان الأخرى مثل الولايات المتحدة الأمريكية وبلدان السوق الأوروبية واليابان، بل والهند وإسرائيل وتركيا، قد أمدت روسيا بمساعدات إغاثة للطوارىء. غير أن البلدان المانحة للمساعدات فوجئت بسرقة الأدوية فور وصولها إلى روسيا. ولهذا احترست من تقديم المزيد من الإعانات دون توافر رقابة كافية. وأشار إلى هذا معلق التلفزيون الألماني في عام 1990 قائلا إن الشركات الألمانية مستعدة لإرسال معدات طبية قيمة وإمدادات طبية غالية الثمن شريطة ألا تترك لتفسد في الهواء الطلق أو لكي تختفي دهاليز البيروقراطية.

وقد وقَّع في هذا الربيع الرئيس الروسي بوريس يلتسين مرسوما بعنوان «التدابير العاجلة لتوفير الرعاية الصحية لشعب الاتحاد الروسي»، وأصدر ضمن هذا المرسوم تعليماته إلى الحكومة بأن تقدم للبرلمان قبيل

الأول من أكتوبر برامج لعامي 1994 ـ 1995 بشأن خفض معدل الوفيات المبكر ورعاية الأمومة وتحسين الخدمات الطارئة. ويتعين على الحكومة قبل حلول أغسطس أن تقر نظاما للدولة يكفل إمدادات الأطعمة ذات القيمة الغذائية والكافية للنساء الحوامل وللأمهات المرضعات وللأطفال دون السابعة من العمر، على أن يتسع نطاق هذه الإعانات ليشمل: الفئات الاجتماعية المستضعفة الأخرى في عامي 1994 ـ 1995. بيد أن إمكان أن تصبح هذه الإصلاحات حقيقة واقعة أمر مشكوك فيه إذا عرفنا حالة الفوضى المالية القاسية التي تعاني منها روسيا هذه الأيام. والحقيقة أن مرسوم الرئيس يلتسين قد لا يعدو كونه صرخة أخرى من القلب في وجه نظام للصحة العامة يواجه خطر التفكك.

سوء استعمال المخدرات:

قبل مرحلة «الجلاسنوست» أو المكاشفة اعتادت السلطات بشكل نمطي أن تنكر وجود مشكلة خاصة بالمخدرات في الاتحاد السوفييتي. ولكن هذا الإنكار تلاشى تماما الآن وإن ظلت باقية الصعوبات المتعلقة بمعالجة تنفيذ الجوانب الطبية والاجتماعية والقانونية للمشكلة.

والملاحظ أن التقديرات الخاصة بعدد من يستخدمون المخدرات أو يسيئون استخدامها أو يدمنونها هي تقديرات متباينة تباينا شديدا للغاية. غير أن من الواضح أن أرقام كل فئة من هذه الفئات الثلاث تتزايد عاما بعد عام. ففي عام 1985 ذكر برنامج لإذاعة موسكو في يوم 4 أبريل أن عدد المدمنين في الاتحاد السوفييتي يتراوح مابين 2500 و3 آلاف. وقال إن الغالبية أدمنوا نتيجة سوء استخدام العلاج الطبي، ولكن في مطلع عام 1990 قيل إن هناك 130 ألف مدمن، وأعلن البوليس أنه سجل 32 ألف فرد استخدموا المواد المخدرة لأغراض غير طبية خلال السنة السابقة وحدها.

وأعلن وزير الداخلية في منتصف عام 1990 أن العدد الحقيقي للمدمنين كان في الواقع خمسة أمثال العدد المعلن رسميا والذي قيل إنه 121 ألفا (بدلا من 130 ألفا). وتحدث عن موضوع الإدمان البروفيسور أنزور جابياني، وهو خبير من جورجيا في شؤون سوء استعمال المخدرات والذي أجرى بحوثا كبيرة واسعة النطاق ومنوعة على مختلف الفئات خلال الستينيات والسبعينيات. وقال الأستاذ أنزور جابياني إن التقدير الأكثر دقة ربما يكون مابين 10 و12 مدمنا مقابل كل شخص مسجل. بمعنى أن إجمالي عدد المدمنين يراوح بين 1,2 و1,4 مليون مدمن.

وقال أحد كبار المسؤولين عن تنفيذ القانون إن هناك مايقرب من 1,5 مليون نسمة حاولوا استخدام المخدرات أو يتعاطونها. (وطبيعي أن هؤلاء ليسوا بالضرورة مدمنين. ويتحدث المصدر نفسه عن 130 ألف شخص متورطين في الاستخدام غير الطبي للعقاقير المخدرة من بينهم أكثر من 60 ألف مدمن مخدرات. ولكنه يقول أيضا إن «الرقم الحقيقي» قد

يكون عشرة أمثال الرقم الذي ذكره).

وفجأة طلعت علينا صحيفة كومسومولوسكايا برافدا في عددها الصادر بتاريخ 24 أبريل، وأكدت أن هناك مابين 5,5 و5,7 ملايين شخص «يتعاطون المخدرات» يعيشون على أرض الاتحاد السوفييتي السابق وكذا مليون ونصف المليون مدمن في الاتحاد الروسي وحده. وقد تبدو هذه الأرقام للوهلة الأولى مبالغا فيها. غير أن الأبعاد الحقيقية للمشكلة غير معروفة. ويدرك المراقبون أن الوضع آخذ في التدهور من سيىء إلى أسوأ وإن كان غير معروف مدى هذا التدهور وسرعته.

ولكن ما نوع الناس الذين يسيئون استخدام العقاقير المخدرة؟ يرى جابياني الذي بحث هذا الموضوع في جورجيا عامي 1984 و1985 أن عدد الرجال أكبر بكثير من عدد النساء (92 بالمئة مقابل 8 بالمئة)، وأكثرهم في العشرينات أو مطلع الثلاثينات من العمر. والغالبية العظمى من المدمنين والآخرين الذين يستخدمون المخدرات، وإن كانوا غير مدمنين، هم دون الخامسة والثلاثين من العمر. وأن نحو ثلثهم تقريبا دون 25 سنة من العمر. ومتوسط المستوى التعليمي مرتفع إلى حد ما، بل أعلى كثيرا من النمط العام السائد في جورجيا - أو روسيا. إذ لوحظ أن أقل من 3 بالمئة لم يزد تعليمهم على مستوى التعليم الأولي، على حين كان 84 بالمئة خريجي مدارس عليا، و9 بالمئة من هؤلاء الخريجين واصلوا تعليمهم في مراحل أعلى، و8 بالمئة غيرهم حصلوا على دبلومات من إحدى المؤسسات التعليمية العليا. كذلك فإن نحو النصف لهم سجلات جنائية، فضلا عن أن مايقرب من ثلاثة أرباعهم متهمون في جرائم متصلة بالمخدرات.

وربما كان 80 بالمئة من مستخدمي المخدرات بدأوا أول محاولة لتعاطي المخدرات قبل أن يبلغوا 25 سنة من عمرهم. وأشار البعض إلى ما يفيد بأن 60 بالمئة من المتعاطين بدأوا بالتعاطي قبل بلوغهم 19 عاما. وعند سؤالهم لماذا بدأوا بتعاطي العقاقير المخدرة أجاب أكثر من الثلثين أن السبب «رغبة في تجربة الشعور بالنشوة» أو الكيف في حالة متعة كبيرة. وعزا الثلث قراره إلى الرغبة «في محاكاة الآخرين» على حين أرجع 10 بالمئة سبب التعاطي إلى حالة عدم الرضا عن الحياة أو الرغبة في نسيانها ولو لفترة وجيزة.

إن تعاطي المخدرات في روسيا والبلدان الأخرى الوريثة يشبه إلى حد كبير مايجري في الولايات المتحدة على الرغم من أنه دون ذلك بكثير. فأكثر المخدرات شيوعا هي الماريجوانا والحشيش إذ يستخدمهما نحو 84 بالمئة من الناس الذين كانوا موضوع دراسة جابياني.

ويستخدم 47 بالمئة منهم المورفين، ويأتي بعده مباشرة الأفيون إذ يتعاطاه 44 بالمئة. ويجري تعاطي المخدرات في بلدان الاتحاد السوفييتي السابق وفي الولايات المتحدة وسط محيط اجتماعي له جو خاص: عندما يلتئم شمل المجموعات - أو ربما يلتئم شمل المجموعات خصيصا من أجل تعاطي

المخدرات،. وتقول صحيفة زاريا فوستوكا في عددها الصادر في 20 فبراير 1987: «ففي وسط تجمعات الشباب الباحث عن المتعة ينظر الناس إلى تعاطي المخدرات، خاصة تدخين الحشيش، باعتباره أمرا له بهاؤه وتقاليده المميزة».

ولكن قد تتغير أنواع المخدرات التي يفضلها الناس وطقوس تعاطيها مع بداية ظهور المعامل السرية والمخدرات التخليقية أي المخلّقة اصطناعيا لتصبح عوامل مهمة في هذا المجال.

وكيف يحصل المتعاطون على حاجتهم من المخدرات؟ يقول فريق من الباحثين إن أكثر الطرق شيوعا هي شراؤها من السوق السوداء عن طريق محترفين منظمين كنوع من عصابات المافيا وتربطهم علاقة بشبكة من «المروجين السريين» أو «باعة طياري» يتجولون سرا وعلى عجل ــ بعضهم أصدقاء لزبائنهم الذين يشترون منهم. ويقصد البعض الآخر مباشرة المناطق الشاسعة في الاتحاد السوفييتي السابق [خاصة في آسيا الوسطى] حيث مزارع برية واسعة للقنب والخشخاش، أو مزارع خاصة حيث يتعاطون مايشاءون ويبيعون الباقي. ولاتزال الصيدليات والمستشفيات وغير ذلك من المؤسسات الطبية الأخرى تعتبر مصدرا غنيا للعقاقير المخدرة التي يستخدمها البعض بطريقة غير مشروعة.

ويقال إنها توفر مابين 30 و40 بالمئة من جملة المخدرات المستخدمة بطريقة غير مشروعة في موسكو وسان بطرسبرج ودول البلطيق.

[إذ إما أن يسرقها الناس أو يستخدموا تذاكر طبية مزورة أو يشتروا عقاقير مخدرة سرقها الأطباء والممرضون والممرضات وغيرهم من العاملين في مجال الصحة العامة].

وهناك مصدر أخير تزداد أهميته باطراد ألا وهو المهربون، الهواة منهم والمحترفون. وبعض هؤلاء من الطلاب الأجانب أو السياح، والبعض الآخر مهربون محترفون ينطلقون من أفغانستان أو جنوب شرق آسيا. وهناك أدلة واضحة ومهمة تشير إلى أن عصابات المافيا الإيطالية وبالتعاون مع الجريمة المنظمة داخل الاتحاد السوفييتي السابق ـ بما في ذلك روسيا ولكن دون الاقتصار عليها وحدها ـ أقامت منشآت لإنتاج المخدرات في روسيا وفي عدد من دول الكومنولث الجديدة. وساعد الإيطاليون كذلك في عمليات غسيل الأموال الخاصة بالاتجار في المخدرات لحساب جماعات الجريمة الروسية.

وأعرب يلتسين عن قلقه الشديد إزاء مشكلة المخدرات في روسيا، وركز بوجه خاص على الروابط بين الجريمة المنظمة وتجارة المخدرات على النطاق الدولي. ولقد انعقد في مطلع هذا العام في موسكو مؤتمر عموم روسيا المعني بمشكلات مكافحة الجريمة المنظمة والفساد. وتحدث يلتسين في هذا المؤتمر عن الجريمة المنظمة ووصفها بأنها خطرة للغاية لأنها تمثل دعما قويا لتجارة المخدرات. وأكد أن «الجريمة المنظمة أصبحت خطرا مباشرا يهدد المصالح

الاستراتيجية لروسيا والأمن القومي.. وأن الوسط الإجرامي يتزايد تجبرا وعدوانية».

وتحدث كذلك أمام المؤتمر الكسندر روتسكوي نائب الرئيس آنذاك. وأعرب في حديثه عن الحاجة إلى «وقف استيراد وبيع المواد المخدرة في روسيا» [لم يذكر شيئا عن تصدير المخدرات أو واقع أن روسيا أصبحت معبرا للمخدرات المتجهة إلى بلدان أخرى]. وركز - مثل يلتسين - على الروابط التي تربط الجريمة المنظمة بـ «عناصر الفساد داخل الأجهزة الإدارية الروسية». وأعلن أن الفساد يفتت جهاز الدولة والمجتمع مثلما يتآكل المعدن بتأثير الصدأ وإن تفشي الجريمة والفساد هو قنبلة تهدد إصلاحاتنا السياسية والاقتصادية».

وبالمثل أشارت صحيفة كومسومولوسكايا برافدا إلى هذا الموضوع في عددها الصادر في 24 أبريل حين وصفت روسيا بطريقة فكهة بأنها «سوقنا للمخدرات»، وتساءلت عما إذا كان كومنولث الدول المستقلة سوف يتحول إلى كومنولث الدول المنتجة للمخدرات. ولقد كانت الصحيفة يقينا متشائمة بالنسبة لهذا الموضوع حين قالت «لا أمل عمليا في الحيلولة دون ظهور عصابات مافيا قوية وذات سطوة للمخدرات على أراضي الاتحاد السوفييتي السابق».

واشتملت استجابة الحكومة إزاء مشكلة المخدرات على عناصر من جهود أمنية للشرطة وإدارات الجمارك والعلاج الطبي والتعليم. وكان مجلس السوفييت الأعلى قد أصدر منذ عام 1972 مرسوما يقضي «بالعلاج الإجباري وإعادة التربية عن طريق العمل» في مؤسسات خاصة. وبدأ بعض المعلمين في فترة متأخرة جدا يناقشون القضايا المقترنة بالمخدرات داخل قاعات الدرس، ويقدمون لتلاميذهم معلومات مناسبة لهم في مناهضة المخدرات. وأنشئت علاوة على هذا خطوط اتصالات فورية أو ساخنة في موسكو وسان بطرسبرج وغيرهما من المدن الكبرى، كما أنشئت عيادات متنقلة يقصدها من شاء من الأفراد اختياريا للاستشارات الطبية أو للعلاج دون تحديد الهوية. ومن سوء الطالع أن الخبراء الروس يجمعون على أن كل هذه الإجراءات لم تجد شيئا، وأن المشكلة تتسع ولا تضيق.

السخط والانحراف:

الموقف في روسيا الآن يشبه الوضع منذ عشر سنوات مضت وإن كان أقل حدة من حيث مستوى الصحة العامة. فإذا كانت الشيوعية قد أفضت إلى ظهور أنواع كثيرة من المشكلات الاجتماعية، فإن محاولات كل من جورباتشيف ويلتسين للتحرك صوب الديمقراطية واقتصاد السوق لم تفلح إلا في زيادة هذه المشكلات تفاقما. وإن جهودهما لتحويل النظام إلى ما وصفه جورباتشيف بنظام «طبيعي» و«متحضر» إنما تسببت عمليا في ظهور مصادر جديدة للسخط وأشكال جديدة من السلوك الجانح أو غير القانوني، والمزيد من الآلام للشعب الروسي.

موجز تاريخ التطهير العرقي

تأليف: أندرو بل ـ فيالكف

ترجمة: عبدالسلام رضوان

رغم فظاعة ومأساوية الحملة الصربية لـ «تطهير» أراضي مجموعة عرقية أخرى، فإنها لا تمثل ـ من وجهة النظر التاريخية ـ ظاهرة جديدة أو فريدة من نوعها. فعمليات طرد وترحيل السكان حدثت في التاريخ بصورة أكثر اطرادا مما هو شائع لدى الرأي العام. كما أن الهدف الرئيسي للحملة الصربية ـ والمتمثل في طرد السكان المسلمين من «أرض الوطن» من أجل إنشاء دولة أكثر اتصافا بالتجانس العرقي ـ هو هدف قديم قدم العصور السابقة على العصر الوسيط. وعلاوة على ذلك فإن هذه الحملات، ورغم الإدانة الدولية الأشد والأوسع نطاقا، لم تتصاعد معدلات وقوعها إلا في أواخر القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين.

وعلى الرغم من هذا الاطراد في الحدوث عبر التاريخ، فمازال التطهير العرقي ظاهرة عصية على التعريف. إذ يصعب، من ناحية تمييزه ـ التطهير العرقي ـ عن التهجير الإجباري وتبديل السكان، وهو يختلط من ناحية أخرى بالترحيل والإبادة الجماعية. على أن التطهير العرقي يمكن فهمه على المستوى الأكثر عمومية، على أنه طرد لجماعة سكانية «غير مرغوب فيها» من أراض بعينها نتيجة لتمييز ديني أو عرقي، أو لاعتبارات سياسية واستراتيجية وأيديولوجية، أو لهذه الأسباب مجتمعة.

وفي ضوء هذا التعريف يمكن القول إن التشتيت والإبادة المتدرجين لسكان أمريكا الشمالية الأصليين كان في واقع الأمر شكلا

العنوان الأصلي للمقال:

A Brief History Of Ethnic Cleansing. Foreign Affairs, Summer 1993.

مراجعة: هيئة التحرير

من أشكال التطهير العرقي. ففي إطار جهودهم لتثبيت وتأمين الحدود، قام المستوطنون الأمريكيون بـ «تطهير عرقي» للهنود من أراضيهم، حتى ولو كانت العملية قد تمت ببطء وجرى تنفيذها، حتى القرن التاسع عشر، في ظل مبادرات فردية بصورة رئيسية. ومن ناحية أخرى فإن عملية طرد ألوف الأفارقة من قارتهم الأم لا يمكن أن تعد - أيا كان مدى قسوتها ورغم أنها جردت مناطق عديدة من سكانها الأصليين - «تطهيرا عرقيا»، إذ كان الهدف منها استيراد جماعات سكانية مرغوب فيها من العبيد وليس طرد مجموعة معينة.

ولقد اتخذ التطهير العرقي أشكالا عديدة. وترجع إعادة التوطين الإجبارية للجماعات السكانية «المتقلبة سياسيا» - أي تلك الجماعات السكانية التي يتم غزو أراضيها وضمها إلى الإمبراطورية لكنها لا تزال قابلة للتمرد في أي وقت - إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد. على أن هذا النوع من ممارسة التطهير العرقي تم إحياؤه مرة أخرى خلال أربعينات القرن الحالي في الاتحاد السوفييتي. كذلك تبنى التطهير العراقي، بوصفه جزءا من عملية عامة تستهدف إضفاء المزيد من التجانس داخل الدول التي بدأت تتشكل في العصر الوسيط تبنى أفكار العصر الوسيط عن النقاء الديني، مستهدفا الأقليات من «غير المؤمنين» سواء كانوا من الكاثوليك أو البروتستانت، من المسلمين أو اليهود. أما في ظل العلمانية العميقة للعالم الحديث، فقد عبر التطهير العرقي عن نفسه في الأيديولوجيا السياسية. وبالتحديد بوصفه جزءا من الشيوعية أو الفاشية.

كذلك تحتوي القومية، بوصفها نوعا من العقيدة الحديثة، على نواح شبه روحية تضفي على مظاهرها الأكثر تطرفا رغبة في «تنقية» الأمة من الجماعات «الغريبة». ويتمثل الفارق المهم بين التطهير العرقي الحديث وأنماطه التي شهدها العصر الوسيط في أن الجماعة السكانية المعنية تملك غالبا، في حالة التطهير العرقي الديني، خيار اعتناق الدين المسيطر، على حين لا وجود لهذا الخيار في حالة التطهير العرقي الخالص؛ فليس أمام هذه الجماعة سوى خيار من اثنين: إما أن ترحل أو تموت.

من الأشوريين إلى الصرب

يمكن للسياق التاريخي أن يوضح لنا المسيرة الطويلة لتطور التطهير العرقي ودوافعه ومظاهره المختلفة، كما يمكن أن يفسر لنا عودته مرة أخرى إلى أوروبا وقد أصبح العالم على أعتاب القرن الحادي والعشرين. فالعديد من الدول الليبرالية الديمقراطية في الوقت الحاضر شنت، في مرحلة أو أخرى من تاريخها، حملات استهدفت تشريد أقليات دينية أو عرقية، وهي أحداث لم تفلت من الاكتواء بنارها أمة واحدة في أوروبا.

وأقدم الأمثلة على هذه الحملات، حملة التطهير التي شنها تيغلاست بليزر الثالث

(745 ــ 727 ق.م)، أول حاكم آشوري يجعل إعادة التوطين الإجبارية سياسة رسمية للدولة. وفي عهده كان يتم ترحيل نصف سكان الأرض التي تم غزوها بالقوة ليحل محلهم مستوطنون من إقليم آخر. وواصل ورثة تيغلاست اتباع هذه السياسة. ثم اتبعها البابليون والإغريق والرومان، عبر القرون، وإن لم تكن تلك الحملات تتم دائما على النطاق نفسه. كما كان يحكمها في أغلب الحالات الأسباب الاقتصادية السائدة والمرتبطة بنظام الرق.

وما إن مزقت هذه الإمبراطوريات القديمة الروابط العضوية بين العرقية والاعتقاد والمواطنة السياسية، حتى أصبح الدين الأساس الأول للهوية الجماعية. وهكذا أصبح التطهير يمارس في العصر الوسيط، على الأقليات الدينية بصفة أساسية (بوصفها الوجه المقابل للأقليات العرقية) مع سعي مسيحية العصر الوسيط إلى فرض الأرثوذكسية على «غير المؤمنين». وعلى الرغم من أحداث القمع الديني التي شهدتها فترات سابقة، كما في حالة المسيحيين الأوائل في روما أو اضطهاد غير المؤمنين بالزرادشتية في فارس خلال القرن الرابع الميلادي، فإن اضطهاد الأقليات الدينية لم يتخذ طابعا مؤسسيا كاملا ولفترات زمنية طويلة سوى في العصر الوسيط.

وقد مثلت المذابح وعمليات الطرد الأساليب الأكثر شيوعا للتطهير الديني، الذي مال إلى استهداف اليهود، وهي الأقلية الأكبر حجما في أغلب البلدان. وهكذا تم طرد اليهود من إنجلترا (1290) ومن فرنسا (1306)، وهنغاريا (1349 ـ 1360)، ومن بروفانس (1394 و1490)، والنمسا (1421)، وليتوانيا (1445)، والبرتغال (1497) ومقاطعات ألمانية عديدة في أزمنة مختلفة. وقد تفردت إسبانيا بين بلدان أوروبا فيما يتعلق بالعدد الكبير من المسلمين بين سكانها. وبعد أن «جُرّبت» المذابح في عام 1391، قامت إسبانيا بطرد اليهود عام 1492، ثم المسلمين عام 1502، مجبرة ماتبقى من سكانها المسلمين على اعتناق المسيحية في عام 1526. وأخيرا طرد كل «المرتدين» إلى الإسلام في الفترة بين عامي 1609 و1614.

وفي عام 1530 أرسى «اعتراف أوجسبرج» بوضوح تام مبدأ التجانس الديني كأساس للنظام السياسي. وتمثلت الترجمة الواقعية لذلك المبدأ في أن دول العصر الوسيط الأوروبي بدأت تشكل مواطنة أرثوذكسية. وهكذا دشنت فرنسا، من خلال إلغاء «مرسوم نانت»، عملية من «التطهير الذاتي» حيث فرّ ألوف من البروتستانت الفرنسيين إثر حرمانهم من حرية العبادة. وعلى هذا النحو يمكن النظر إلى «الاعتراف» على أنه حجر الأساس الأيديولوجي للتطهير الحديث، تلك العملية التي لا تصبح ممكنة إلا في الدول الاستبدادية المركزية القادرة على فرض «النقاء».

وقد نفذ أول تطهير قائم أساسا على التمييز العرقي، وإن ظل يصاغ بعبارات

دينية، على يد إنجلترا. فخلال أربعينات وخمسينات القرن السابع عشر اغتنمت إنجلترا فرصة قضاء الحرب والطاعون على نصف السكان الإيرلنديين وقامت بطرد معظم الكاثوليك الإيرلنديين من إيرلندا حتى أصبحت مساحة مقدارها 80٪ من أراضيهم مملوكة للبروتستانت الإنجليز والأسكتلنديين بحلول عام 1688. وكان الدافع الذي أدى بإنجلترا للقيام بتلك العملية دافعا استراتيجيا أساسا، وقد تمثل في منع الكاثوليك الإيرلنديين من توفير قاعدة للعمليات لفرنسا أو إسبانيا. وبالتالي أكمل ترحيل السكان الإيرلنديين نوعا من الدورة التاريخية، حيث عاد التطهير إلى أنماط تأسست في فترة تاريخية سابقة على أيدي الأشوريين والرومانيين.

وفي أمريكا الشمالية - وفي غضون تلك الفترة - كان الباقون من حملات التشريد الكاسحة التي تم شنها في ثلاثينات القرن التاسع عشر قد وطّنوا في الإقليم الهندي. ثم جاء صدور «قانون هومستد» عام 1862 ليبيح مساحات شاسعة من أراضي الهنود الباقية للمستوطنين البيض. وفي العقدين اللذين أعقبا عام 1866 بدأت الحكومة الفيدرالية بتخصيص أراضٍ معينة لقبائل الهنود. وقد قاوم الذين لم يهزموا حتى ذلك الوقت - قبائل السيوكس والكومانشي والأراباهو وغيرها - وتم سحقهم في فترة لاحقة.

ولقد كان القرن التاسع عشر هو القرن الذي شهد وحده تحول التدمير الكامل لجماعة عرقية إلى سياسة رسمية لدولة، وذلك عندما بدأ الأتراك يوجهون جهود التطهير نحو اليونانيين والأرمينيين. فقد شجع السلطان التركي عبدالحميد الثاني، بعد أن أصبح يرى في تلك الأقليات أعداء مقيمين داخل بلاده، غارات السلب والنهب الكردية للقرى الأرمينية حتى تصاعدت العداوات إلى حد نشوب الحرب بين الأكراد والأرمينيين. وبحلول عام 1844 انضمت القوات النظامية التركية إلى الأكراد، ولقي 200 ألف أرميني مصرعهم. وفي مذابح عام 1915، فقد الأرمينيون مايقدر بمليون ونصف مليون شخص - أي أكثر من نصف تعدادهم - فضلا عن نحو 90٪ من أراضيهم. وبالرغم من ضغوط الحرب العالية الأولى وتوتراتها فقد مثلت عملية الإبادة الجماعية تلك بوضوح كامل استمرارا، على نطاق أوسع، للمحاولات التركية المتصلة لاستئصال كل التعداد السكاني الأرميني.

وعند منتصف القرن العشرين، أصبح التطهير يمارس في واقع الأمر انطلاقا من بواعث عرقية خالصة، مثلت نتاجا لنزعة قومية فاشية بارانوية ترى في الجماعات «الغريبة» خطرا يهدد «نقاءها» العرقي.. وقد بلغ التطهير العرقي مع حملات النازية ضد اليهود ذروته المتمثلة في «الإبادة».

ورغم أن اليهود ظلوا لقرون عديدة ضحايا لأشكال مختلفة من الاضطهاد الديني، فإن قومية القرن العشرين المتطرفة

أضفت على نزعة معاداة السامية التي شهدتها كل من أوروبا الوسطى والشرقية طابعا عرقيا إلى حد بعيد.

لقد مثلت الحملات النازية تطهيرا عرقيا من حيث إنه استهدف منها استئصال أي وجود لليهود من أراضي الرايخ. ويُعد التعبير الألماني «إزالة أي أثر لليهود»، الذي استخدم لتحديد المناطق التي تم ترحيل اليهود منها، شاهدا على ذلك. لكن «الهولوكوست» كان شيئا يتجاوز ذلك. فقد جمع عناصر من كل من الترحيل، والطرد، ونقل السكان، والمذابح، والإبادة الجماعية. وعلى هذا النحو مثل «الهولوكوست» عملية «كاملة»، وحلا نهائيا بالفعل.

فقد تم قتل نحو ستة ملايين يهودي أوروبي فيما بين عامي 1933 و1945. كما قتل نحو 250 ألف غجري وعدد مماثل من الشواذ جنسيا على أيدي النازي.

كذلك نفذ هتلر نوعا من التطهير العكسي في مسار سعيه إلى توطيد دعائم الرايخ. فقد طُهِّر الألمان العرقيون (الفولكز دويتش) فعليا من أوروبا الشرقية حيث تم استدعاؤهم وأعيد توطينهم داخل الأراضي التي احتلها هتلر، وخاصة بولندا الغربية. وبحلول ربيع عام 1942 كان ما يزيد على 700 ألف من الألمان (وأيضا من غير الألمان الذي ادعوا أنهم من أصل ألماني) قد تم نقلهم من دول البلطيق، وبوكوفينا وتيرول الجنوبية وأماكن أخرى، وأعيد توطينهم في الأراضي التي سعى هتلر إلى «ألمنتها».

وبعد أن بدأت جهود هتلر المسوسة بجنون العظمة بالانهيار، أجبرت القوات الروسية المتقدمة بدورها معظم الألمان على التقهقر إلى الخلف أثناء تقدمها. وأسفر ذلك عن أوسع حملة تطهير عرقي شهدها التاريخ والتي تمثلت في ترحيل عشرة ملايين ألماني من أوروبا الشرقية. وقد اتخذ القرار النهائي بترحيل السكان الألمان من أوروبا الشرقية من جانب الولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، وبريطانيا في أغسطس عام 1945 بمدينة بوتسدام. ويتعذر هنا تقديم أرقام مؤكدة، ومع ذلك فقد قدر عدد الألمان الذي أخرجوا من بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا ويوغوسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية بنحو 12 مليون ألماني، مات منهم نحو 2,1 مليون لأسباب تتوزع بين الحرب والجوع والبرد والمرض.

ولم يكن الألمان هم الجماعة الوحيدة التي تعرضت للتطهير، فقد طردت الحكومة التشيكية، بمباركة من ستالين، نحو 250 ألف مجري في أواخر عام 1945. ولأسباب مختلفة، فضلت الحكومة التشيكية في وقت لاحق أن تسوي «المشكلة المجرية» من خلال عملية مبادلة للسكان. وأتاحت اتفاقية عام 1946 بين المجر وتشيكوسلوفاكيا مبادلة 31 ألف مجري بـ 33 ألف تشيكي. وبعد تحول الحكم في كلا البلدين إلى النظام الشيوعي توقفت عملية التبادل.

كذلك نفذ الاتحاد السوفييتي، داخل أراضيه، عملية تطهير شملت نحو 600 ألف شخص يعيشون في مناطق ثبت أنها «لا يُعتمد عليها» في الحرب، مثل منطقة كاراشاييف في شمال القوقاز، وإقليم كالميك المتمتع بالحكم الذاتي، وجمهورية الشيشان. وخلال الحرب، طلب تتار القرم رسميا من رومانيا ــ سلطة الاحتلال ــ أن تأذن لهم بإبادة كل الروس المتبقين في شبه الجزيرة. وعندما رُفض ذلك الطلب، نظم مجلس التتار مذبحة جماعية على مسؤوليته الخاصة، ليقتل ما بين 70 ألفا و120 ألف روسي. ونتيجة لذلك، قامت القوات الروسية بعملية ترحيل جماعي للتتار بعد الحرب.

على أن الأيديولوجية الشيوعية للقرن العشرين قدمت نمطا آخر من التطهير، هو التطهير المرتبط بالطبقة الاقتصادية. وينطوي تدمير الطبقات المالكة في روسيا الستالينية أو صين ماوتسي تونج على كل العلامات المميزة للتطهير «العرقي»، بما في ذلك مفرداته اللغوية. وقد طبق ماركس نبذ المسيحية لليهود، الذي كان قائما على أساس ديني، لكنه تحول خلال عصره إلى التمييز العنصري في مجال التحليل الطبقي واستئصال جماعات «طفيلية» معينة. وعلى هذا النحو، عاد نمط «التطهير الذاتي»، الذي ظهر في العصر الوسيط، للظهور مرة أخرى، لكنه تجلى هذه المرة في الآلية الخاصة التي ابتدعتها الدولة الشمولية لضمان «النقاء».

المأساة البلقانية: الفصل الثاني

لا يمكن فهم الأحداث التي تشهدها يوغوسلافيا فهما كاملا دون سوابقها التاريخية. ففي منطقة البلقان بالذات، تظل الدورات المتصاعدة من الأحداث المأساوية والأعمال الوحشية حية في ذاكرة التاريخ، وتوفر لا السياق فحسب بل الأساس أيضا لحملات التطهير الوحشية الجارية في الوقت الحاضر. فالأحداث الرهيبة التي تشهدها يوغوسلافيا السابقة اليوم ليست سوى الفصل الثاني من مأساة بدأت أحداثها في أبريل 1941.

فمنذ خمسين عاما فحسب، نفذ القوميون الكروات عدة مذابح راح ضحيتها مدنيون من الصرب داخل دولة ــ دمية تحركها أصابع النازي وتشكل أراضيها اليوم معظم مساحة جمهورية كرواتيا وجمهورية البوسنة والهرسك. فقد اعتبر «اليوستاشي» - وهو الاسم الذي كان يعرف به هؤلاء القوميون ــ السكان الصرب المقيمين في كرواتيا، والبالغ عددهم مليوني شخص، خطرا يهدد تكاملهم القومي. وصرّح وزير التعليم الكرواتي، على سبيل المثال، في كلمة ألقاها في مأدبة في يونيو 1941، بأن «ثلث الصرب سوف نقتلهم، والثلث الثاني سوف نرحلهم، أما الثلث الباقي فسوف نجبرهم على اعتناق الديانة الكاثوليكية الرومانية وبالتالي نصهرهم في الكروات». وقد أعلنت هذه السياسة بصفة رسمية من جانب حاكم البوسنة الغربية، فيكتور جوتيش، في وقت

لاحق من الشهر نفسه. ففي خطاب ألقاه في مدينة «بانيا لوكا» قال جوتيش إن المدينة، وكل أرجاء كرواتيا، «ينبغي تطهيرها من القذارة الصربية».

وقد مثل ما أعقب ذلك لا مجرد حملة تطهير بل مذبحة واسعة النطاق. وتفاقمت الأعمال الوحشية وتصاعدت بوتيرة بدت لا نهائية. وفي حادثة واحدة، وقعت في أغسطس 1941 ببلدة «سانسكي موست» الصغيرة بالبوسنة، جمع ألفان من الصرب المحليين وتم إحراقهم داخل كنائسهم. وفي قرى صربية أخرى، أطلق الرصاص على الذين حاولوا الهرب، وقتل آخرون داخل الخنادق التي هربوا إليها ثم تم دفنهم أو ألقيت جثثهم في الأنهار. وقد ألقيت جثث كثيرة في نهر الدانوب في صيف عام 1941 بحيث اضطرت السلطات الألمانية إلى منع السباحة في النهر.

وبلغت وحشية المذابح في حالات عديدة درجة غير قابلة للتصديق. فكان من المقرر أن يعرض الفوهرر الكرواتي آنتي بافليتش أمام الحاكم الإيطالي جيرزيو مالابارتي سلة وزنها 40 رطلا ممتلئة بعيون بشرية مقتلعة من ضحاياه الصربيين. وفيما بين مايو وأكتوبر 1941 قدر عدد من قتلوا على أيدي «اليوستاشي» بما يتراوح بين 300 ألف و340 ألف صربي.

ولقد شكلت إبادة الصرب جزءا من حملة أوسع شنتها ألمانيا وحلفاؤها. فقد ذبح المجريون الذين احتلوا أجزاء من يوغوسلافيا السكان الصربيين في قريتين كبيرتين خلال احتفال الأرثوذكس الصرب بأعياد الميلاد في يناير 1942، وقتلوا خمسة عشر ألفا آخرين من الصرب واليهود في «نوفي ساد» عاصمة إقليم فوجفودينا. وقذف بألفين من هؤلاء أحياء في حفر عميقة داخل نهر الدانوب المتجمد. كذلك أباد البلغار عدة قرى في جنوب صربيا. وبلغ مجموع من أبيدوا 750 ألف صربي، و60 ألف يهودي، و25 ألف غجري. وتم ترحيل عدد آخر منهم. وفي مثال واضح على التطهير طردت رومانيا 120 ألف صربي، على حين طردت المجر 70 ألفا منهم، من الأراضي التي احتلوها من يوغوسلافيا.

وأمهل السكان المبعدون 24 ساعة، وقدمت لكل منهم حقيبة واحدة لحمل الأمتعة وستة دولارات.

وعندما استسلم الجيش الكرواتي في مايو 1945، حول البريطانيون أسراهم إلى أنصار المارشال جوزيف بروز تيتو. واقتيد الأسرى الكروات على الفور جنوبا إلى يوغوسلافيا. وأطلق الرصاص على نحو 5 آلاف كرواتي بمجرد وصول مسيرة الأسرى إلى حدود سلوفينيا، ثم قتل نحو 40 ألفا آخرون خلال الأيام القليلة التالية.

ونفذ الصرب «مسيرات موت» سيرا على الأقدام عبر أنحاء البلاد لأسراهم من الكروات مانعين عنهم الطعام والماء. ومُنع سكان القرى على طول الطريق من تقديم الطعام أو الشرب للكروات، وكان مصير من يعجزون

عن إكمال المسيرة طلقة رصاص. ولا يعرف بالتحديد عدد من لقوا مصرعهم من الكروات خلال تلك الأحداث، لكن البعض قدرها بنحو 100 ألف كرواتي. وتلك كانت الوسيلة التي اختارها الصرب للانتقام.

وربما بدت تلك الفظائع والأهوال، بعد مرور نصف قرن غير قابلة للتصديق أو غير حقيقية للبعض منا. لكن عمليات التطهير والإبادة الوحشية تلك ظلت حية في ذاكرة العديد من البلقانيين حتى اليوم. لقد مات واحد من كل عشرة من الصرب في تلك الحرب، وفقدت كل عائلة واحدا من أفرادها، والعديد ممن نجوا من فظاعة تلك الحرب مازالوا أحياء. ومن ثم فقد كانت عملية نقل السكان تناقش بإسهاب في وسائل الإعلام اليوغوسلافية حتى قبل تفكك يوغوسلافيا. وفي عام 1991 نشرت المجلة الصربية واسعة الانتشار «نن» مقالا عن التبادل (الطوعي) للسكان بين صربيا وكرواتيا. وقالت المجلة إن البوسنة وكراينا (وهي جيب صربي في كرواتيا) يمكن أن يبقيا داخل يوغوسلافيا، وإن الصرب الذين يعيشون في مناطق ذات أغلبية كرواتية يمكن أن يعاد توطينهم في فوجفودينا أو في مناطق أخرى يتعين تعزيز العنصر الصربي فيها، أما الكروات الذين يعيشون في البوسنة وكراينا فيمكن أن يستقروا في كرواتيا في البيوت التي هجرها الصرب. ولقد ظهرت مقالة «نن» متزامنة مع أول مصادمات عنيفة في كرواتيا، والتي بدأت في «باكراك» في أول أيام شهر مارس عام 1991. وفي تلك المرحلة المبكرة فر من كرواتيا بالفعل ــ وقبل أن تعلن كرواتيا الاستقلال، وقبل اندلاع الحرب الشاملة بين كرواتيا وصربيا ـ نحو 20 ألف صربي اتجه أغلبهم إلى فوجفودينا.

وارتفعت معدلات الانتقال الجماعي للسكان مع اشتداد حدة القتال بين مختلف الأطراف داخل يوغوسلافيا. وبحلول عام 1992 كان هناك 158 ألف لاجىء في صربيا وحدها، أغلبهم من المنتمين عرقيا إلى الصرب. وفي غضون شهر واحد من إعلان البوسنة الاستقلال في الثالث من مارس 1992، فر نحو 420 ألف شخص من البوسنة أو طردوا من منازلهم. وبنهاية شهر يوليو، وطبقا لما ذكرته المفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، ارتفع عدد المرحَّلين إلى نحو 2,5 مليون شخص. وفي أغسطس كان ثلث السكان الصرب الذين يعيشون في كرواتيا قد رحلوا عنها، على حين قدر عدد اللاجئين الكروات بنحو 10٪ من سكان الجمهورية من الكروات. كما فر 50 ألف مجري إلى المجر.

وعلى حين كانت هناك بالفعل أعداد هائلة من الناس قد تم ترحيلها فإن هؤلاء لم يقعوا جميعا تحت طائلة التطهير العرقي. فمنذ البداية الأولى، كان الخوف ذاته وراء وجود عدد كبير من اللاجئين. فكان هناك هؤلاء الذين فروا «طواعية»، مثل الـ 20 ألف صربي الأوائل الذين «انتقلوا» إلى فوجفودينا. كما كان هناك هؤلاء الذين ما إن استولت القوات المعادية على مدنهم حتى غادروها دون انتظار

خوفا من أي أعمال عدوانية محتملة من جانب تلك القوات. وعلى هذا النحو خلت بلدة «جايك»، التي سقطت في أكتوبر 1992، من سكانها البالغ عددهم 25 ألف شخص والذين غادروها إلى بلدة «ترافنيك». وهؤلاء هم من الوجهة الفنية لاجئون «طوعيون»، لكن الخط الذي يفصلهم عن الذين مورس عليهم التطهير العرقي أصبح آخذا في التضاؤل بصورة متزايدة.

أما ألوف الناس الذين أجبروا على ترك مدنهم على أيدي الميليشيات المتحاربة، وخاصة هؤلاء الذين أجبروا على ترك مدنهم حتى بعد تأمين المنطقة المعنية عسكريا، فإنهم يندرجون حصرا تحت فئة التطهير العرقي. فهؤلاء الناس رحّلوا لأسباب عرقية واستراتيجية وهم ضحايا لحملات التطهير بصورة سافرة. ففي إقليم «السانجاك»، على سبيل المثال، تم ترويع 70 ألف مسلم، من أصل 200 ألف مسلم كانوا يعيشون بالإقليم قبل الحرب، حتى يتركوا منازلهم. وفي حالة أخرى، حاصرت الميليشيات الصربية قرية «توراليشي»، وقطعوا عنها كل الاتصالات ومروا على البيوت بيتا بيتا، قاذفين للخارج أي شخص يجدونه داخلها ثم أشعلوا النار في القرية. وكان ذلك بمثابة نوع «مهذب» من التطهير العرقي، إذ لم يعرف أن أحدا قتل أو اغتصب في تلك الهجمة. على حين في أغلب الحالات الأخرى قام منفذو عملية التطهير بنهب أي شيء يجدونه: أجهزة تلفزيون، وغسالات، ودراجات. وعلى ذلك فقد كانت هناك دوافع اقتصادية وراء حملات التطهير أيضا.

ولا تتسم هذه الحملات لإنشاء مناطق متجانسة عرقيا، في تاريخ التطهير العرقي، بالتفرد سوى من نواح قليلة. أولها أن أغلب حملات التطهير العرقي قد تم تنفيذها لا على أيدي القوات الحكومية بل من قبل قوات أهلية غير نظامية. وربما كان ذلك أمرا محتويا فيما يمكن اعتباره حربا «أهلية». لكن الواقع يشهد أيضا على الطبيعة الشخصية للعداوات في مناطق عديدة من البلقان، مع استعادة بعض العائلات إقطاعياتها التي كانت قد جمدت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. حيث نفذ المقاتلون المدنيون ما فهموه على أنه «واجبهم كوطنيين» مرتكبين أعمالا وحشية بمبادرتهم الخاصة، حتى لو كانوا مدركين لوجود تأييد ضمني رسمي وشبه رسمي على أعلى مستوى.

ويتمثل «ابتكار» آخر لحملات التطهير تلك في الاستخدام الإبداعي لمعسكرات أسرى الحرب. فعلى حين يحتجز الرجال داخل المعسكرات، يوجه إنذار إلى النساء: لن يطلق سراح الرجال إلا إذا وافقت العائلات على ترك الإقليم. وقد أعربت نحو 5 آلاف أسرة مسلمة من «بيهاق» عن مثل هذه الرغبة، طبقا لما ذكرته السلطات الصربية البوسنية، ووقعوا على تعهدات خطية تفيد هذا المعنى.

وفي أغسطس 1992، قدر المسلمون والكروات عدد الأسرى الذين احتجزهم

الصرب في نحو 45 معسكرا بـ 70 ألف أسير. على حين زعم الصرب أن 42 ألف صربي احتجزوا في 21 معسكرا، حيث مات منهم 6 آلاف أسير. وبالنظر إلى أن الصرب يسيطرون على أغلب أراضي البوسنة، فإنهم في وضع يمكنهم من تنفيذ عمليات تطهيرهم بتلك الطريقة.

وهناك دليل دامغ أيضا على ارتكاب عمليات اغتصاب ضد النساء المسلمات في الأغلب الأعم من الحالات والكروات في حالات محدودة. ويقدر عدد النساء اللائي تم اغتصابهن بعدد يتراوح بين 30 ألفا و50 ألف امرأة. وعلى الرغم من أن الاغتصاب اعتبر منذ وقت طويل ظاهرة ملازمة للحرب، فإن عمليات الاغتصاب المنظمة كانت شيئا نادر الحدوث. ففي الحرب العالمية الثانية، على سبيل المثال، اختطفت السلطات اليابانية ألوف النساء من الكوريات والفلبينيات لكي يخدمن في مواخير يديرها الجيش. وفي يوغوسلافيا، أدخلت آلاف النساء أيضا، عدد كبير منهن من القُصّر، في معسكرات اغتصاب. وقد شهدت اللاجئات من النساء على ذلك وعلى ألوان أخرى من سوء المعاملة، وتم تسجيل عدد كبير من تلك التقارير. وكان نمط الاغتصاب متسقا وواسع النطاق بحيث لا يمكن التشكيك فيه باعتباره نوعا من الدعاية المضادة أو مجرد انحراف أخلاقي من جانب بعض الجنود الأفراد. وقد زعم بعض المقاتلين من الصرب أنهم أُمروا باغتصاب النساء المسلمات، تماما مثلما أمروا بقتل الأسرى الرجال لكي «يقسّوا» و«يجرئوا» أنفسهم.

ومن المحتمل أنه لم يكن يقصد من عمليات الاغتصاب، على الأقل في المرحلة الأولى، أن يستخدم كأداة للتطهير العرقي. فكما هي الحال في حروب كثيرة، ربما تم غض النظر عن عمليات الاغتصاب وسُمح بها من أجل «رفع الروح المعنوية» للجندي أو «مكافأته» أو لإلحاق إذلال دائم بالعدو وإضعاف معنوياته. وربما كان التطهير بذاته قد جاء كنتيجة غير مقصودة. لكن بعد أن رئي أن وصمة الاغتصاب فعالة في إخراج النساء المغتصبات وعائلاتهن من الأراضي التي يسعى الصرب إلى السيطرة عليها، أصبح الاغتصاب في واقع الأمر سلاحا جديدا وشنيعا أضيف إلى الجعبة القديمة للتطهير العرقي.

مصدر التطهير ونتائجه

إن القوى التي تدفع إلى ارتكاب مثل هذه الفظائع هي أكبر، بطبيعة الحال، وأقل علمية من الدوافع الاستراتيجية «البسيطة». فالمواقف والانفعالات التي تحدد العلاقات بين مختلف الشعوب تتسم بتعقيد غير عادي. ويوفر التعصب والتحيز الخيط الذي يربط أحداث التاريخ الطويل من التطهير الديني والعرقي.

وفي البلقان، أيضا، أذكى التعصب الأعمى نيران القتال على مستوى كل الأطراف. فعلى حين يقر الصرب بحسد واضح بأن الكروات يتمتعون بمستوى معيشي أعلى - أو أنهم في

الواقع أكثر «أوروبية» ـ فإنهم ينبذونهم باعتبارهم شعبا عاجزا وخانعا يعمل بإرادته في خدمة سادته الألمان والنمساويين. وعلى نحو مشابه ينظر الصرب إلى البوسنيين المسلمين على أنهم أحفاد «المرتدين» السلافيين الذين تحولوا إلى الإسلام في ظل الحكم التركي. وفي المقابل يسود لدى الصرب أنفسهم التصور القائل إنهم عنصر رجولي ومستقل وبطولي، وشعب مقاتل وعنيد كان من أوائل من طرحوا عن كاهلهم أربعمائة عام من الهيمنة التركية. وهذه المآثر التاريخية، فضلا عن دعاوى الصرب بأهليتهم لإنشاء دولة، تؤهلهم لقيادة السلافيين الآخرين في الجنوب (الناكرين للجميل غالبا)، والذين ينظرون إلى الصرب بدورهم بوصفهم قساة مستبدين يسعون دائما إلى فرض إرادتهم وإلى زرع البغضاء في علاقاتهم بالشعوب الأخرى.

وينكشف الزيف والمبالغة في تلك الدعاوى مع تشديد هذه الأطراف على جذورها المشتركة عندما يكون ذلك ملائما لأغراضهم. فقبل الحرب، على سبيل المثال، وعندما كان الصرب لايزال يراودهم الأمل في الاحتفاظ بالبوسنة داخل يوغوسلافيا، كانت وسائل الإعلام الصربية تؤكد في كل مناسبة أوجه التشابه مع المسلمين، على حين كان الكروات يؤكدون كثيرا أن البوسنة مثلت جزءا من كرواتيا التاريخية وأن مسلمي البوسنة هم في الأصل أحفاد لكرواتيين.

وستتزايد صعوبة تجسير التحامل والتحيز مع ذلك المعين الذي لا ينضب من الفظائع الحديثة التي جلبتها هذه الحرب الأخيرة في البلقان.

ومن دواعي القلق الخطيرة بوجه خاص ـ إذا كانت عمليات الإيذاء وسوء المعاملة واسعة النطاق على النحو الذي أوردته التقارير ـ ذلك التساؤل المتعلق بكيف يقبل ذلك الجيل من الأطفال «الهجين»، الذين جاءوا إلى العالم نتاجا لعمليات الاغتصاب و«أفسدهم» دم جماعة عرقية أخرى، وكيف ستتم رعايتهم وسط جماعات سكانية ستكون قد أنهت حربا وحشية كان في مقدمة أسبابها الدفاع عن نقاء ـ أو عن بقاء ـ القوميات المشتبكة فيها.

وأخيرا، فإن العمليات التي غيرت مجرى حياة الألوف من البشر في البلقان ـ وسواء كانت مدفوعة بمحاولات متعمدة للتطهير العرقي، أو جاءت نتيجة للفرار «الطوعي» للاجئين ـ سوف تبلغ النهاية نفسها. وستكون الحرب، والعداوة، والشهوة قد حولت في النهاية، وبعد أن يحل السلام، شبه الجزيرة إلى أرض أكثر شبها بالأجزاء الأخرى من أوروبا التي اجتازت من قبل قلاقلها المأساوية الخاصة. وربما أصبحت البلقان أيضا مساحة مرقعة من الأقاليم المتمايزة عرقيا. وأفضل مايمكن تمنيه، بعد أن يصبح لا وجود لأقليات ذات شأن داخل أي دولة ومع تحصن كل طرف من الأطراف المتحاربة بأمان خلف حدوده «القومية»، هو أن تكف محركات الصراع عن الدوران وأن تكون دورات العنف المهلكة التي شوهت تاريخ البلقان قد بلغت نهايتها أخيرا.

بعض الأوهام عن التكتيك الحربي في العصور الوسطى

تأليف : شين ماك جلين

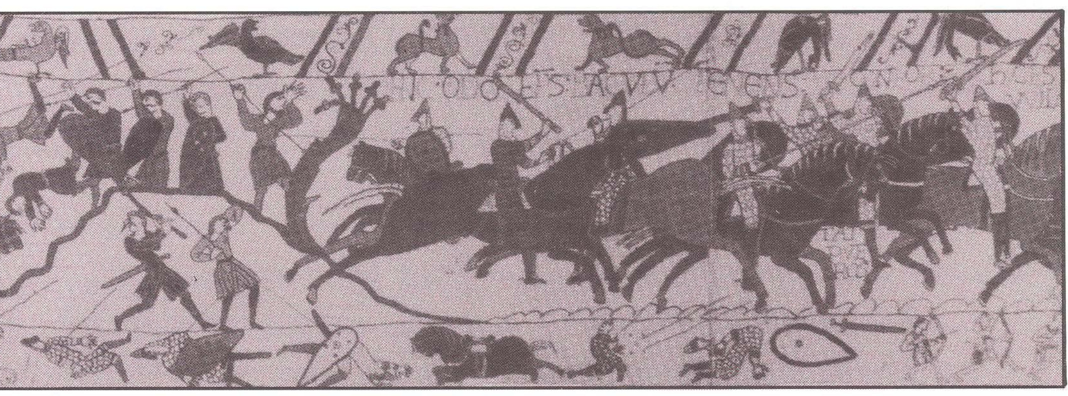
ترجمة: د. إسحق عبيد

من أبرز مايعيب الدراسات التي تناولت العمليات الحربية في العصور الوسطى أنها ركزت الاهتمام على العوامل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، مغفلة ما كانت تنطوي عليه تلك العمليات من أساليب وطرائق قتالية وعسكرية. فلقد أفاض الكتّاب في تحليل طبيعة المجتمع الإقطاعي في أوروبا، ولكنهم



النشاب الطويل والنشاب القصير: كما وردا في مخطوطة مفصلة ترجع إلى القرن الرابع عشر (عن لترل بسالتر).

تجاهلوا أثر هذه السمات الإقطاعية في أسلوب الحرب من ناحية، وأساءوا تفسير تلك السمات من ناحية أخرى. ورغم ظهور عدة أعمال حديثة عن التكتيك الحربي في العصور الوسطى، فإن كتابها قد وقعوا في نفس الخطأ والوهم القائل إن فن القتال قد تدنى إلى أسوأ مستوياته، في تلك العصور.



العنوان الأصلي للمقال:

The Myths Of Medieval Warfare. History Today, January, 1994.

مراجعة: هيئة التحرير

فالكاتب جون كيجان في مؤلفه الأخير بعنوان «تاريخ العمليات الحربية» (هتشنسون 1993) لا يزال يعكس وجهة النظر التقليدية لدى الكتاب الذين تصدوا لتأريخ العمليات العسكرية في إشارته إلى العصور الوسطى على أنها تمثل فترة الركود الحربي التي تفصل بين اختفاء الجيوش النظامية عند الرومان وظهور القوات المسلحة في القرن السادس عشر. كذلك يصف روبن نيلاندز في كتابه «حروب الوردتين»(كاسل 1993) المعارك التي خاضها الفرسان في العصور الوسطى بأنها كانت تفتقر إلى المهارة القتالية، وبأنها لم تتعد محاولة الفارس أن يطيح بخصمه من على صهوة جواده بالمطاعنة أرضا. ومع التسليم بأن هؤلاء المؤرخين وغيرهم قد لمسوا بعضا من النقاط المهمة والصحيحة عن العمليات العسكرية في العصور الوسطى، إلا أن الصورة الكاملة عن التكتيك الحربي في تلك العصور لا تزال مكتنفة بالكثير من الغموض.

ويرجع هذا الغموض بالدرجة الأولى إلى رواج بعض النظريات التي أدلى بها كتاب القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في هذا الميدان، ويأتي في مقدمة هؤلاء هنري دلبك، وهانز ولبروك، ثم السير تشارلس أومان. ولقد قدر لآراء أومان خاصة أن تحتل موقع الصدارة والتأثير من خلال كتابه المشهور بعنوان «فن القتال في العصور الوسطى» (بلاكول - الطبعة الأولى 1880، كورنل برس - الطبعة التاسعة 1990 - طبعات مثون 1924 - طبعة جرين هل 1991).

ولا ينكر أحد أن أومان قد قدم معلومات مهمة عن العمليات الحربية في العصور الوسطى، إلا أن الاستنتاجات التي خرج بها عن الحروب الإقطاعية تبقى ناقصة ومبتورة. ولعل من الأمور التي تدعو إلى السخرية أن تشارلس أومان، والمؤرخ المعروف فرديناند لوت رغم اعترافهما بأهمية التحصينات في حروب العصور الوسطى، فإن أحدا منهما لم يتوقف عند هذا العنصر



رجال الدين في معمعة القتال: الأسقف أودو دي بايوه (في الوسط) وهو أخ غير شقيق لوليم الفاتح، ملوحا بهراوته الغليظة «محتاطا في ضرباته كي لا يسيل دم العدو، تماشيا مع ميثاق العصر بمراعاة عدم إراقة الدماء» - موشاة بايوه عن معركة هاستنجز 1066.

الخطير ليوفيه حقه من الدراسة، وإنما انصرف الكاتبان إلى الفروسية ومناوشاتها الدرامية التي تلقى جاذبية خاصة لدى القراء.

وفي مجملها فإن هذه الكتابات وأمثالها تعتبر مسؤولة عن ظهور العديد من الأوهام والأباطيل عن العمليات الحربية في العصور الوسطى. ومن ثم فإن المعارك التي كانت تشتعل بين الجيوش قد اختزلت في وصف المطاعنات بين الفرسان وكأن المسألة كلها لم تزد على المنازلات الفردية وسط معمعة فرسانية، يحاول كل فارس فيها تخليد اسمه وكسب صيت قتالي يذيع في كل مكان. كما رسم هؤلاء الكتّاب فارس العصور الوسطى في صورة مقاتل أخرق غير منضبط بل ومتعجرف، يستنكف أن يقاتل إلا من على صهوة جواده فلا يترجل أبدا، إلى جانب تمسكه بتقاليد بالية في تكتيك الحرب تفتقر إلى عنصر المبادرة. ولم يلتفت هؤلاء الكتاب إلى عناصر حيوية أخرى تتصل بقضايا التعبئة وتدبير المؤن، بل إنهم اعتبروا إقدام الفرسان على تخريب موارد العدو وإمكاناته مجرد حماسة تفتقر إلى الاستراتيجية الواضحة التي تخدم الأهداف النهائية للحرب. كذلك أغفل هؤلاء الكتاب دور المشاة في القتال، وكذا دور الرماة أو النبالة، ظنا منهم أن دورهم ظل هامشيا وغير فعال حتى حلول القرن الرابع عشر وحدوث ثورة تكتيكية في فن الحروب. وذهب هؤلاء الكتاب أيضا إلى القول إن قيام جيوش مرابطة وبناء استراتيجية ضرب الحصار هي من ابتكارات العصر الحديث ومعطياته في العمليات الحربية.

ومن سوء الحظ أن دراسة العمليات الحربية في العصور الوسطى قد تأثرت بآراء بعض كتاب التاريخ العام والعسكري، ولقد وقع هؤلاء في خطأين هما: إغفال المصادر الأصلية عند البعض، ثم استخدام هذه المصادر بطريقة غير نقدية عند البعض الآخر. وقد أدى هذا بدوره إلى خروج هؤلاء الكتاب بأحكام خاطئة محملة بإسقاطات من تأثيرات العصر الحديث والمقارنات الباطلة. والمعروف أن أواخر العصور الوسطى قد شهدت تطورا في سجلات الحكومات بما في ذلك المعلومات العسكرية، الأمر الذي أدى إلى إقبال الباحثين على تلك الفترة المتأخرة على حين أن الفترة السابقة الواقعة بين القرنين الحادي عشر والثالث عشر لم تحظ بهذا القدر من الاهتمام والبحث.

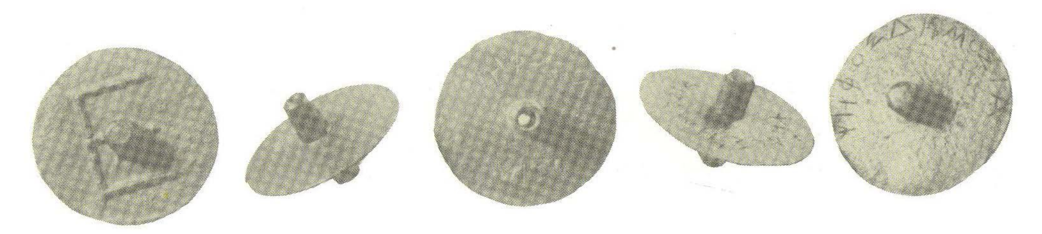
ولنأخذ مثالا من كتاب جون بيلر بعنوان «العمليات الحربية في أوروبا الإقطاعية» (جامعة كورنل برس 1971)؛ فعلى الرغم من الإضافات المهمة التي يحويها هذا العمل، فإن الكاتب يقرر أن الطبقة المتعلمة في تلك العصور كانت وقفا على رجال الدين والرهبان، وهؤلاء كانت معلوماتهم في الأمور الحربية تافهة لا ترقى إلى فهم مسائل كثيرة من الاستراتيجية إلى التكتيك الحربي إلى غيرها من قضايا الحرب والقتال. ولكن هذا الحكم الذي انتهى إليه الكاتب يتغافل عن حقائق كثيرة تنقض أحكامه: فلقد سجل كل

ـ وكلهم من رجال الدين ـ روايات مفصلة عن العمليات العسكرية المعاصرة. وهذا مجرد مثال واحد من هذا القطاع الديني. وينبغي أيضا ملاحظة أن الرهبان ورجال الإكليروس الآخرين في ذلك العصر كانوا لا يقلون عن ذويهم من أشقاء وآباء في الاهتمام بقضايا الحرب وفهم مجرياتها، فهم جميعا ينتمون إلى طبقة واحدة هي طبقة النبالة التي اختار بعض أفرادها الانخراط في السلك الديني، على حين بقي أغلبهم علمانيا. ويجدر أن نذكر في هذا المقام أن شوجر، مقدم دير سان دينيس، قد سجل لنا وصفا دقيقا لحروب الملك لويس السادس في كتابه بعنوان «لويس السمين»، كما أن الأسقف هيو من أوكزير كان يجمع من حوله عددا من الفرسان ويناقشهم في القضايا العسكرية التي وردت في كتاب فجتيوس عن «فن الحرب»، وهو مرجع كلاسيكي أفاد منه القادة في العصور الوسطى في أمور القتال والحروب. والأمثلة على مشاركة رجال الدين في القتال بشكل إيجابي وفيرة، ففي موشاة (Tapestry) بايوه يشاهد الأسقف أودو من بايوه وهو يقاتل في معركة هاستنجز، كذلك خصت «أنشودة رولاند» La Chanson de Roland (عن حرب شارلمان ضد قبائل الباسك في إسبانيا) كبير أساقفة تربين بدور قتالي بارز حتى أنه، وفقا للأنشودة، «قد أوسع هذا الأسقف السمين ضربا من ذات الشمال وذات اليمين».

والأمر الذي ينبغي التنبيه إليه في هذا



الإغارة لنهب المحاصيل (أيضا عن موشاة بايوه): وكانت هذه العمليات أساسية لضمان المؤن في حروب العصور الوسطى، مثلها في ذلك مثل عمليات تدمير موارد العدو.



المشاة والرماة رغم وجودهم في الميدان. وهذا التجاهل العمد هو الذي أدى بالكثير من الكتاب المحدثين إلى الاستنتاج الخاطىء بأن المشاة والرماة لم يلعبوا دورا مهما في الحروب حتى نهاية القرن الثالث عشر.

هذا وقد تصدى كاتبان مهمان لتصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التي شابت دراسات العمليات الحربية في العصور الوسطى، وهذان الكاتبان هما ر. س. سميل («العمليات الحربية في الحروب الصليبية 1097 ـ 1193» ـ كمبردج 1956)؛ ثم ج. ف. فربروجن («فن القتال في غرب أوروبا في العصور الوسطى» ـ بروكسل 1954، هولندا 1977). لقد هدم هذان الباحثان الفكرة السائدة لدى الكتاب السابقين عن المعارك الفاصلة في العصور الوسطى، فأوضحا حقيقة مهمة مفادها أن قادة الجيوش في العصور الوسطى كانوا يتفادون قدر المستطاع الدخول في معارك حاسمة درءا للعواقب الوخيمة التي قد تنتج عن هذه المعارك، فقد كانت معركة بواتييه سنة 1356 بين الفرنسيين والإنجليز سببا في وقوع الملك الفرنسي جون الثاني أسيرا في أيدي الإنجليز، كما أن معركة بوزورث سنة 1485 أدت إلى مقتل الملك ريتشارد الثالث في الميدان ثم ضياع القضية التي كان يقاتل من أجلها.

ويلاحظ فربروجن، في التدليل على نظريته، أنه فيما بين عامي 1071 و1328 في بلاد فلاندرز التي كانت مسرحا دائما للحروب يلاحظ أنه لم يقع أكثر من إحدى عشرة معركة تستحق الذكر.

تكتيك المباغتة: هجمة فرسانية من مصورات القرن الثاني عشر: (عن واحد من أناجيل كنيسة ونشستر).

أما سميل في دراسته عن الحروب الصليبية، فقد أوضح كيف أن الصليبيين قد عمدوا إلى عدم الدخول مباشرة في معارك حاسمة، وإنما لجأوا إلى أنشطة عسكرية بديلة وفعالة شملت جمع المعلومات، وتخريب أرض الخصم، والتعبئة التموينية

مناظر من حرب المائة عام توضح فن القتال الذي اتبعه الجيش الإنجليزي في هجومه على إحدى القلاع الحصينة. (عن مخطوطة ترجع إلى القرن الرابع عشر).



حرب المائة عام أيضا: تصوير يرجع إلى القرن الخامس عشر يبين تفاصيل معركة كريسي (1346)، وتظهر الكتائب الفرنسية من حملة الأقواس في مواجهة الكتائب الإنجليزية من حملة النشاب الطويل. (لاحظ أنه رغم الدور الحاسم الذي لعبه النشاب الطويل في انتصار إدوارد الثالث على الفرنسيين، فإن البحوث الحديثة قد بينت أن الكتاب قد بالغوا كثيرا في الظن بأن النشاب الطويل كان ابتداعا حديثا).

من زاد وعتاد. ولم تكن المعارك إلا واحدة من سبل متعددةأخرى لتحقيق الهدف وهو الاستيلاء على المواقع الحصينة والحفاظ عليها منيعة تحت أيديهم. وهو يخلص من ذلك إلى أن العمليات الحربية في العصور الوسطى كانت تحتكم إلى أهداف محددة، وهذه استراتيجية تختلف تماما عن استراتيجيات القرن العشرين التي تقوم على الاشتباك الحاسم بالعدو وتدمير قواته العسكرية لتحقيق استسلامه غير المشروط.

من ناحيته أكد فربروجن الدور الخطير الذي اضطلعت به القلاع في العصور الوسطى، وكذا حركة الجيوش في الميدان، وهو في هذا الصدد أكثر وضوحا من سميل. كذلك يحاول فربروجن ببراهينه تغيير الصورة المتواترة عن فارس العصور الوسطى أنه كان يتحرك دون خطة محددة أو تكتيك معين، مبرزا الجوانب المهارية لدى الخيالة الثقيلة في العصور الوسطى. ومن رأيه أيضا أنه لا يمكن الحكم على العمليات الحربية في العصور الوسطى على ضوء مقدرة الجند المشاة وحدهم، وإنما طبقا لمهارة الفرسان أيضا. وإلى جانب هذا كله يبقى أن تؤخذ في الحسبان قضايا أخرى متعددة تشمل المشاة، والتموين، والاستراتيجية، والتكتيك القتالي، واستنفار الجند، وضرب الحصار، وفي هذه الجوانب الكثيرة لم يكن للفارس إلا نصيب واحد وإن كان نصيبا حيويا في جميع الأحوال.

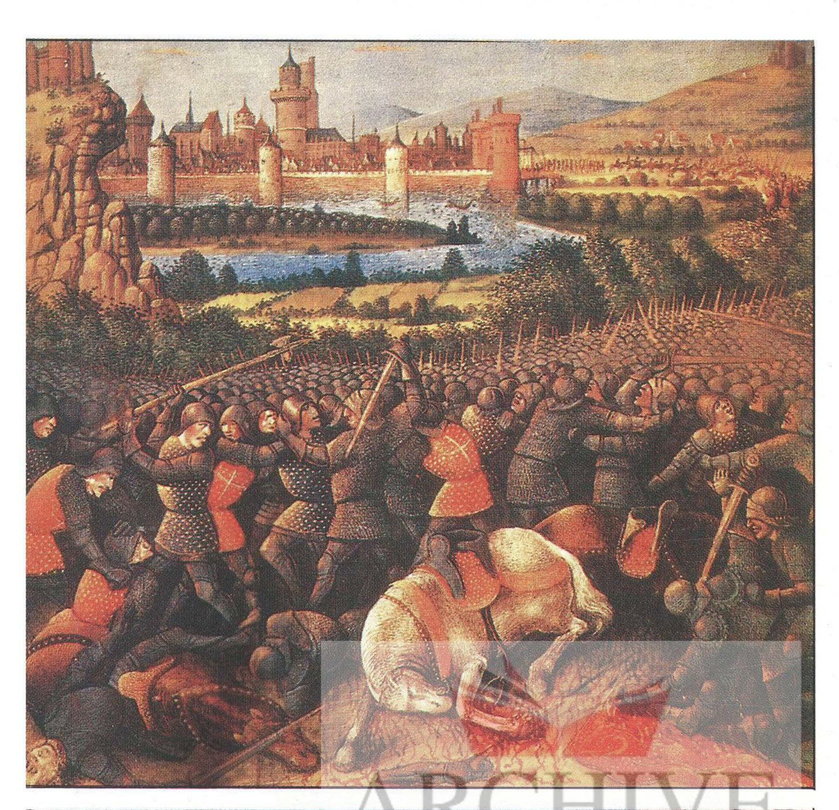
ولا يقبل فربروجن وجهة النظر القائلة إن المعارك في العصور الوسطى اقتصرت في مجملها على الفرسان الذين كانوا ينازلون بعضهم البعض في مطاعنة فردية، محتجا بأن هذه الأسطورة قد نشأت بسبب سوء فهم المصادر المعاصرة، فلقد حفظ لنا المؤرخون المعاصرون اسم هذا النبيل أو ذاك الذي كان يقاتل على رأس فرقته، ولكنهم تغافلوا في وصفهم للقتال عن ذكر ما تعنيه كلمات واردة في النصوص نفسها عن «أدوار الذين كانوا معه.. أو الذين يخدمون في صفه.. أو الذين كانوا ضمن تشكيله» (Cum Suis, aves sa Gent, Sau acie)، والإشارة هنا إلى وحدات تكتيكية صغيرة (Conrois) تألفت من مجموعها الوحدات القتالية الكبرى (batailles). ويجب ملاحظة أن ضم فرسان مدربين على المناورة والمبارزة والمطاعنة في ساحات متسعة من مناطق الريف والقرى لم يحدث إلا في أواخر القرن الثالث عشر. وتحدثنا المصادر المعاصرة بإسهاب عن مستوى الكفاءة والتدريب اللازمين للقتال، كما نطالع في «تاريخ وليم المارشال»، وفي كتابات روجر من جودن في القرن الثاني عشر حيث يقول: «دون مران كاف لن تتأتى المهارة القتالية وقت الشدة».

لقد كان المران عنصرا ضروريا لتعويد فارس العصور الوسطى على الانضباط، ولذا فإن الصورة الماثلة في الأذهان عن الفارس الطائش الذي يقتحم المعركة دون حساب هي صورة مغلوطة تماما. لقد أشار محارب عربي معاصر للحروب الصليبية هو أسامة ابن منقذ إلى العدو الصليبي بقوله: «إن

الفرنجة دونا عن سائر الشعوب شديدو الحرص في قتالهم». وما من شك في أن الانضباط كان عاملا حيويا في ضمان نجاح الخيالة في معاركهم، كما أن الهجوم لاقتحام الصفوف، وهو التكتيك الأكثر فعالية للفرسان، كان يعتمد في الدرجة الأولى على الصفوف المتلاحمة للفرسان المقتحمين والحفاظ على هذا الرباط وقت الهجوم كي يكونوا قوة ضاغطة نافذة، ويصبح في مقدورها على حد تعبير الكاتبة البيزنطية آنا كومنينا أن تخترق أسوار حصن بابليون نفسه. وتفصح المصادر كيف أن سيمون دي مونت فورت الفرنسي بقواته قليلة العدد قد حقق انتصارا ساحقا على القوات الجرارة التي كان يقودها بطرس ملك أراغون في معركة موريه سنة 1213، وذلك بفضل اقتحام متلاحم لقوات سيمون في قلب صفوف العدو، وصولا إلى الملك القائد نفسه حيث تم قتله وإبادة جيشه. وتقدم هذه المعركة بالذات مثالا طيبا لأثر القيادة في توجيه الاحتياطي من الفرسان لمهاجمة جناح جيش العدو. ويوضح المؤرخ فربروجن أيضا كيف أن الفرسان المشاركين في القتال كثيرا ماكانوا يستدعون من نقطة اقتحام في المعركة لإعادة تنظيم صفوفهم لشن اقتحام آخر. ومن التكتيكات المهمة أيضا في العصور الوسطى أساليب المخادعة والتضليل بالتظاهر بالهرب لزحزحة العدو عن خطوطه الدفاعية حتى تصبح صفوفه مطعنا يسيرا لهجمة جديدة، وهذا ما فعله الدوق وليم النورماندي (الفاتح) مع هارولد الإنجليزي في معركة هاستنجز سنة 1066.

قلعة فاليز: وهي القلعة التي ولد بها وليم الفاتح: لقد كان تحصين وتموين مثل هذه القلاع من أهم عناصر استراتيجية مقاومة الحصار وإفشاله في العصور الوسطى.

لقد كان فارس العصور الوسطى مقاتلا محترفا، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه؛ هل كان هذا الفارس يتصف فعلا بالمروءة والشهامة التي استقرت في أذهان الناس عن الخلق الفرساني؟ للإجابة عن هذا السؤال ينبغي الاعتراف بأن الفارس كان يقسم عند تقليده فارسا على ميثاق الشرف. ولكن هذا القسم لم يمنع حرص الفارس على الكسب المادي من وراء سيفه سواء في ساحة القتال أو في أسر خصم له في إحدى المبارزات العديدة، فهذا يضمن له فدية دسمة (Preda) من عتاد



المعمعة: يبين هذا الرسم من القرن الخامس عشر معمعة الالتحام والمجزرة التي يمكن أن تنتج عن اقتحام فاشل للفرسان «أملا في تحقيق نصر خاطف سريع».



المفاوضات التي جرت من أجل استسلام «بوردوه» خلال حرب المائة عام. وتبين الصورة نفرا من رجالات المدينة وهم يحملون «الفدية» لتقديمها للقوات المحاصرة للمدينة. لقد لعب المال دورا حاسما في سير العمليات الحربية، ولم يكن المواطنون العاديون يقيمون وزنا كبيرا في أمر حمايتهم ومدنهم على ميثاق الشرف الذي أقسم عليه فرسان العصور الوسطى، خاصة وأن هذا الميثاق كان يطبق فقط على طبقات النبلاء ولا يشمل الإنسان البسيط العادي من الطبقات الأدنى.

وسلاح وخيول ومال. وقد كان الفارس يدرك أنه إن هو قتل خصمه فإنه لن يجني من قتله كسبا ماديا، ولذا فقد حرص الفرسان بصفة عامة على الإبقاء على خصومهم كأسرى حرب وليس كجثث هامدة. ويحدثنا المؤرخ المعاصر أوردريك فيتالس أنه في معركة بريمل (Bremule) سنة 1119 قتل ثلاثة فرسان فقط، على حين وقع مائة وأربعون فارسا في الأسر، وهو يعزو تلك النتيجة إلى الكفاءة الدفاعية للفرسان وأيضا إلى «الوازع الديني الذي يمنعهم من سفك دماء إخوانهم». وهذا الحكم يبدو صائبا، لأن الشغل الشاغل للفارس هو الحصول على فدية سخية من أسراه بدلا من قتلهم.

وينبغي ملاحظة أن اهتمام الكتاب بالفروسية والمبارزة في المقام الأول قد أدى إلى إغفال أدوار جماعات أخرى لعبت دورا أساسيا في العمليات الحربية في العصور الوسطى. ولقد أبرز موريس كين (Keen) في كتابه عن «الفروسية» (يل 1984) نقاطا أساسية تلقي الضوء على تطور فن القتال في العصور الوسطى في تكتيك الحصار وتأمين القلاع والحصون. كذلك عدّد فيليب كونتامين في مؤلفه القيم، بعنوان «التكتيك الحربي في العصور الوسطى» (بلاكول 1984 ــ ترجمة مايكل جونز)، العناصر المختلفة والإمكانات في إدارة العمليات العسكرية في العصور الوسطى. وهو بعد هذا يؤكد الصلة الوثيقة بين الحرب والمجتمع في كليته، منتهيا إلى القول إن الحرب «إفراز لثقافة المجتمع ككل بما في ذلك الجوانب الاقتصادية والتقنية». وهو يدلل على رأيه على ضوء ماحدث في المجتمع الأوروبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من تغييرات في دولاب الحكم والإدارة، ومن توجه إلى الاقتصاد النقدي.

كان من أبرز نتائج هذا التحول إلى الاقتصاد النقدي على قضية الحرب قيام جيوش دائمة، وهي واحدة من العلامات المهمة لبدايات العصور الحديثة. وفي ضوء هذا التوجه الجديد ينظر إلى الملك إدوارد الأول الإنجليزي (1272 ــ 1307) على أنه من أصحاب السبق في إدخال نظام الخدمة العسكرية الإجبارية، التي كانت إيذانا بنهاية التقليد الإقطاعي القديم وببداية مرحلة جديدة في تاريخ القوات العسكرية الثابتة من أصحاب الرواتب الثابتة أيضا. وقد ظهر كتاب حديث أشرف عليه ماثيو ستركلاند بعنوان «العمليات الحربية في العهد الأنجلو - نورماندي»، يحوي عديدا من بحوث المتخصصين تغطي جوانب كثيرة شملت التعبئة، ودور المشاة والرماة والفرسان الراجلين، والقادة، والاستراتيجية القتالية، وعمليات التخريب لموارد العدو. وهذه جميعا أمور طرأت على التكتيك الحربي في أواخر العصور الوسطى، وبوجه خاص في تنظيمات الملك إدوارد الأول. على أن الجديد في كتاب ستركلاند هذا هو محاولة تقصي جذور هذه العمليات في الفترة السابقة للقرن الثالث عشر. ومع أن كتابا مثل سميل، وفربروجن، وكونتامين قد بذلوا جهودا لمعالجة هذه القضايا، إلا أن استنتاجاتهم

اتسمت بالكثير من التردد وعدم الاكتمال. ولهذا فإن كتاب ستركلاند يغطي هذا النقص ويقدم صورة واضحة لطبيعة العمليات الحربية على مدار العصور الوسطى باكرها ومتأخرها على حد سواء.

أما ج. و. برستوش (Prestwich) فإنه يذهب إلى أن النظام الإقطاعي قد حظي بنصيب أكثر مما يستحقه كأساس للتنظيم العسكري. وينبه الكاتب إلى أن المال، قبل كل شيء، كان المعيار المهم والعصب للحروب في العصور الوسطى، وقد ظل السبيل الأمثل في تعبئة المقاتلين. ويدلل برستوش على صحة نظريته من واقع ما كتبه ريتشارد فتنزنيل قرابة سنة 1179 من أن المال كان «يدفع بسخاء لتقوية الحصون ولتغطية رواتب الجند». كما أن معاهدة دوفر سنة 1101 تقدم دليلا آخر على تعبئة المحاربين مقابل أجر مادي، فبمقتضى هذه المعاهدة استأجر هنري الأول ملك إنجلترا ألفا من الفرسان الفلمنكيين من الكونت روبرت صاحب فلاندرز مقابل خمسمائة جنيه إسترليني في العام. ويلاحظ برستوش أنه «في الوقت الذي لم تكن فيه ظروف إنجلترا تسمح باستنفار الملك هنري الأول لأكثر من خمسمائة فارس وفق التبعية الإقطاعية، فإنه كان يرتب لضمان خدمة ألف فارس آخر من مصدر خارجي واحد»، ويضيف إلى ذلك قوله إن جيش الملوك النورمان الخاص في إنجلترا (Romilia regis) كان يمثل العنصر المحارب من محترفي القتال، الذين يمثلون النواة التي يمكن للتاج أن يضيف إليها كتائب أخرى من الخارج. ولقد كانت لهذه القوة الأساسية الثابتة من المحاربين سمعة عريضة في المعارك، كما كانت تسيطر على شبكة هائلة من القلاع، وهي شبيهة بكتائب الملك إدوارد الأول في بنيتها وحجمها. وتوضح سلسلة التواصل والتطور في هذه المؤسسة العسكرية الحد الذي وصلت إليه الجيوش الحديثة من قاعدتها الأولى في العصور الوسطى.

أما الكاتب جون جلنجهام فإنه يعالج جوانب أخرى مهمة في العمليات الحربية في العصور الوسطى، ومن بينها عنصر القيادة، كما تبرز في شخصيات كل من ريتشارد قلب الأسد ووليم الفاتح ووليم مارشال، إلى جانب عمليات تخريب موارد العدو البشرية (Terram de Populare, Vastare)، والاستيلاء على الخيرات، وهذه جميعا ليست مجرد عمليات نهب وسلب أو سبل للحصول على المؤن، وإنما هي عمليات مقصودة لتدمير محاصيل العدو وثرواته الحيوانية لحرمانه من المصادر الأساسية التي تسمح له بمواصلة الحرب، وهي في الوقت نفسه تكتيك يجبر العدو على التعجيل بخوض معركة فاصلة، وإن كانت السياسة العامة للحرب بشكل إجمالي لا تحبذ الصدام المباشر والمعركة الفاصلة الواحدة. فلقد لجأ الدوق وليم النورماندي في دفاعه عن دوقيته سنة 1054 إلى عدة سبل لتجنب الوقوع في معركة فاصلة، فاستخدم الكشافة لاستطلاع أخبار وحجم العدو الغازي، واتبع أساليب أخرى للتضليل والمخادعة والحيلولة

دون تدمير موارد الدوقية. ذلك أن تخريب موارد العدو من محاصيل زراعية ومؤن كان سلاحا فتاكا وضعته القيادات في العصور الوسطى موضع الحسبان، أخذا بنصيحة الكاتب فجتيوس (Vegetius) حيث يقول: «إن النقطة الجوهرية في الحرب هي ضمان الكم الكافي من المؤن للجيش المقاتل، مع تدمير إمكانات العدو وتجويعه، لأن المجاعة أشد فتكا من السيف». وقد عرفت هذه العمليات التدميرية في حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا باسم «شيفوشيه» (Che Vauché).

هذا ويذكر للمؤرخ أومان الفضل في إبراز عامل خطير آخر في الحروب في العصور الوسطى، وهو عامل الزمن، ومن أوائل القادة الذين استغلوا هذا العنصر كان الملك الإنجليزي إدوارد الرابع الذي اشتهر بخفة الحركة والمباغتة في حرب الوردتين. ويبرز المؤرخ جلنجهام، بدوره، المقدرة الفائقة لوليم مارشال في سرعة تحريك قواته وأخذ خصومه على غرة. ولقد وضح الشيء نفسه في تكتيك الملك ستيفن سنة 1141 عندما باغت الإمبراطورة ماتيلدا في ونشستر وأجبرها على الفرار. ويذكر عن وليم مارشال أيضا أنه أمضى ليلة بكاملها يزحف برجاله لينصب واحدا من كمائنه ذائعة الصيت.

ولابد من أن نعرض لنقطة مهمة أخرى أيضا تنقض ما تواتر عند الدارسين من آراء عن الجنود المشاة وبأن دورهم في القتال في العصور الوسطى ظل هامشيا حتى حلول القرن الرابع عشر. وتفيد السجلات عكس ذلك تماما، فلقد أصدر فيليب الثاني ملك فرنسا مرسوما ملكيا يأمر بلدة تورناي (Tournai) بإعداد ثلاثمائة من المشاة الثقيلة (Pedites bene armatores)، وهي قوة يعتد بها من مصدر تزويد واحد لتعزيز القوة القتالية للجيش الفرنسي في القرن الثاني عشر. وقد كشفت بحوث ماثيوبنيت (Ben-net)، وجيم برادبيوري، وجون جلنجهام عن الدور الحيوي الذي اضطلع به الجند المشاة في جيش هنري الثاني الإنجليزي في معارك حاسمة ضد الفرنسيين خاصة في معركة جزور (Gisors) سنة 1188 ضد الفرسان الفرنسيين. كذلك تكشف سلسلة المعارك التي اشتعلت في كل من إنجلترا ونورمانديا بين عامي 1066، 1144، عن تضافر عناصر الخيالة والفرسان الراجلين والرماة والمشاة في العمليات العسكرية، وعن فعالية هذا العمل المشترك بين هذه العناصر المقاتلة جميعا.

هذا ولا يمكن أن نفهم استراتيجية الحرب في العصور الوسطى فهما كاملا دون أن ندرك قيمة عمليات حصار القلاع، نظرا للدور الخطير الذي لعبته القلاع في تلك العصور، وهي نقطة حيوية أغفلها الدارسون. لقد اعتمد ماثيو ستركلاند في مقاله عن الغزو ووسائل صده على النتائج التي كان قد وصل إليها سميل من قبل في تحليل المعارك التي اشتعلت بين إنجلترا واسكتلندة مابين عامي 1138، 1174، ثم بيّن لنا كيف أن تلك الاستراتيجية كانت تعمد أحيانا إلى تخريب بعض الحصون وتركها

خاوية، مع التركيز على عدد معين من المعاقل الرئيسية المدججة بالزاد والعتاد. وكان هذا تقليدا شائعا في العصور الوسطى، طبقه شارل السادس في فرنسا أثناء حرب المائة عام، بعد قيام فرسانه بمسح شامل للقلاع. على أن هذا الإجراء لم يمنع الجيوش الغازية من تخريب الأراضي المحيطة بتلك القلاع المهجورة. والقاعدة العامة كانت تجنب الدخول في صدام مباشر مع العدو الغازي، ومن هنا تبرز أهمية القلاع الآمنة الحصينة التي يتحصن من وراء أسوارها أصحابها لمدة طويلة حتى يصاب الغازي باليأس ويضطر إلى الانسحاب من أرض القتال. وهذه هي السياسة التي اتبعها الكونت بلدوين من هينولت سنة 1184 عندما احتمى وراء أسوار حصونه وبقي يراقب العدو المهاجم وهو يخرب الأرض، ولكنه ظل يردد قولته المشهورة: «إنهم حتى وإن خربوا الأرض فإنهم لن يستطيعوا حمل هذه الأرض على أكتافهم وهم ينسحبون». إن القاعدة في تلك الأزمان هي السيطرة على القلاع لضمان السيطرة على الأرض. ومن هنا تتضح أهمية القلاع في العمليات الحربية على مدار العصور الوسطى. ولعل الجزء الثاني المتمم لكتاب «العمليات الحربية الأنجلو ـ نورماندية» الذي ينتظر صدوره قريبا يسد الفراغ المتعلق بالقلاع والحصون.

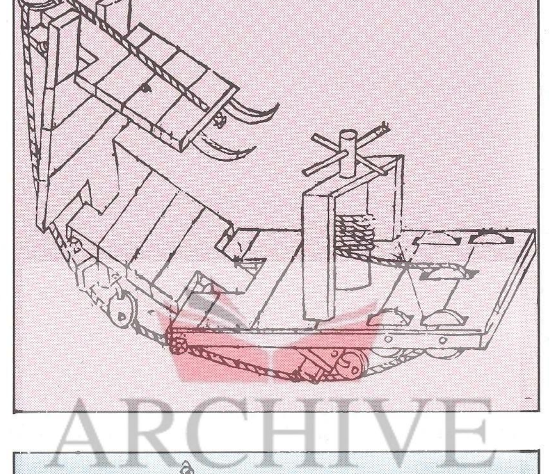
ولما كانت استراتيجية الحرب في العصور الوسطى ترتكز في المقام الأول على تحقيق السيطرة على القلاع، فإن هذا قد تطلب تكتيكا خاصا بعمليات ضرب الحصار حول تلك القلاع (Obsidiones)، ولقد وردت معلومات وافرة عن هذه العمليات في مدونات العصور الوسطى. وقد جاء كتاب جم برادبيوري عن «عمليات الحصار في العصور الوسطى» (بويدل 1992) ليفي بحاجة ملحة، فهو يغطي هذا العنصر المهم الذي أغفله الكتاب السابقون، والذي ينطوي على أبعاد متعددة منها: تجويع العدو، وبث الألغام، والاقتحام، والقصف العنيف، والمخادعة، وأساليب الرشوة، وحيل المخادعة والتضليل، ثم المفاوضات، وهي جميعا أمور توضح الأساليب المتنوعة المتصلة باستراتيجية الحصار (Poliorectics)، التي هي أشد العناصر حيوية وأهمية. لقد خلط الكتاب بين عمليات الحصار في العصور الوسطى وبين العمليات نفسها في العصر الحديث، وهذا خلط يؤدي إلى استنتاجات خاطئة، كما بين ذلك الكاتب جيوفري باركر في مؤلفه بعنوان «التطورات الثورية في القتال» (كمبردج 1988).

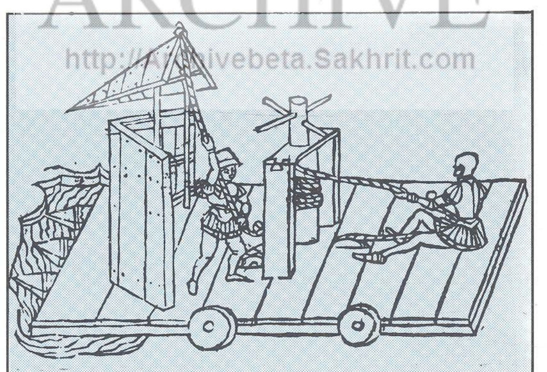
ولعل أهم نقطة تتصل بعمليات الحصار هي مدة هذا الحصار، ذلك لأن الجيش المهاجم الذي يطول بقاؤه للتضييق على عدو ما لابد وأن يعرض نفسه لعديد من المخاطر والكوارث، من ذلك انتشار الأوبئة بين الكتائب المهاجمة، أو الوقوع في كمين بين معقل حصين وتعزيزات عسكرية وافدة من بعيد. وجدير بالملاحظة في هذا المجال أن أغلب معارك العصور الوسطى قد نشبت في أعقاب عمليات حصار ووصول نجدات عسكرية تخف لنجدة المحاصرين،

وهناك، أمثلة كثيرة على ذلك نصادفها في معارك تنشباري (Tinchebari) سنة 1106، ولنكولن سنة 1141، وفورميني For-mignay سنة 1450. والواقع أن مناعة المعاقل الكبرى كانت تستلزم حصارا طويل الأمد قد يمتد إلى ستة أشهر كما حدث في حصار معقلي شاتو - جايارد (1203/ 1204)، وروين (1418/ 1419) أو قد يمتد إلى أحد عشر شهرا كما حدث في حصار كاليه (1346/ 1347). وينبغي أن نلاحظ أيضا أن العمليات الحربية في العصور الوسطى لم تكن موقوفة على مواسم معينة كفصل الصيف مثلا، كما يتطرق إلى أذهان البعض.

هناك نقطة أخرى موضع جدل بين كتاب التاريخ الحربي في العصور الوسطى، وهي تتصل بأداة القتال المعروفة «بالنشاب» (Long-bow): فهل كانت هذه الأداة تمثل تطويرا لسلاح أقدم تاريخا، أم أنها سلاح من مبتكرات القرن الرابع عشر؟ لقد تعرض جم برادبيوري لهذه النقطة في كتابه بعنوان «الرماة في العصور الوسطى» (بويدل 1985)، معترضا على وجهة النظر القائلة إن النشاب سلاح حديث استخدمه الإنجليز في أعقاب معارك الملك إدوارد الأول ضد أهالي ويلز من الرماة الأشداء في نهاية القرن الثالث عشر.

ويبرهن الكاتب على أن كلمة «النشاب» لم ترد عند المعاصرين حتى في وقت حرب المائة عام، وإن كان الرماة قد لعبوا دورا خطيرا في القتال طيلة العصور الوسطى وليس من القرن الرابع عشر فقط. ومع أن «قانون الأسلحة» الذي أصدره الملك هنري الثاني سنة 1181 لا يذكر «النشاب» على وجه التحديد، إلا أن المراسيم المماثلة التي صدرت





آلات الحصار: كما وردت في رسم يرجع إلى سنة 1483، ويلاحظ أن المدفعية وأساليب أخرى متطورة للقصف قد أخذت تؤتي ثمارها في تقرير مصير الحروب قبيل نهاية العصور الوسطى.

في القارة الأوروبية في الآونة نفسها تذكر هذا السلاح في وضوح تام تحت مسمى Arcum) et Sagittas) وهي كلمات مرادفة لكلمة «النشاب». ويتتبع برادبيوري الدور المهم الذي لعبته فرق الرماة في مواقع خطيرة مثل هاستنجز (1066)، وبورجثيرولدي (Bourgtheroulde) (1124)، وستاندادر (1138). كما ورد ذكر «النشاب» على وجه التخصيص في «قانون الأسلحة» الذي أصدره الملك هنري الثالث سنة 1252، الأمر الذي يرجع استخدام هذا السلاح إلى عشية الحروب ضد ويلز وليس في أعقابها.

ويتعقب الباحث نفسه استخدام «النشاب» فيرجعه إلى أيام الملك جون عند استنفاره لقواته سنة 1213، مستشهدا برواية روجر من وندوفر بأن الملك جون قام بتسريح جيوشه ولكنه أبقى على أهم الكتائب ومن بينها فرقة الرماة بـ «النشاب».

وتتضح أهمية فرق الرماة بشكل ملحوظ في معارك حرب المائة عام، والأخص في معارك كريسي (1346)، وأجنكورت (1415)، وقد أثبتت هذه الفرق جدارتها بعد أن تعلم الملك إدوارد الأول ذلك من معاركه ضد اسكتلندة. كذلك يوضح برادبيوري أن تكتيل نشر فرق الرماة جنبا إلى جنب مع الفرسان الراجلين كان أمرا معمولا به حتى في القرن الثاني عشر، فلقد كان لفرقة الرماة في معركة بورجثيرولدي (1124) الفضل في تعويق هجمة فرسانية قبل أن تلتحم بالفرسان الراجلة. وفي معركة ستاندارد، ترجل عدد من الفرسان الإنجليز على حين بقي عدد آخر على صهوة خيولهم كقوة احتياط، أما الرماة بالنشاب والحراب فقد وضعوا في صفوف المجابهة الأمامية، وبقي الفرسان الراجلون والرماة صفا واحدا. وفي كلتا المعركتين لعبت فرقة الرماة دورا حاسما في إحراز النصر. وعلى هذا فإنه ليس من المقبول تاريخيا الادعاء بأن استخدام الفرسان الراجلين والرماة في حرب المائة عام كان تكتيكا جديدا.

والأمر الجديد حقا هو زيادة حجم الرماة، كما حدث في الحرب ضد اسكتلندة، وهو أمر بات معروفا لدى جيوش القرن الرابع عشر.

وفي الختام لابد من القول إن كل حقبة تاريخية لها أخطاؤها القتالية، ومن بين تلك الأخطاء الافتقار إلى القيادة الذكية، أو سوء تنظيم الفرق، على أنه لا ينبغي علينا أن نأخذ هذه الأمثلة الاستثنائية كظاهرة عامة في أحكامنا على العمليات الحربية في أي عصر ومن بينها العصور الوسطى. لقد أديرت الحروب في العصور الوسطى بقدرة قتالية عالية مثلها في ذلك مثل أي فترة أخرى في التاريخ قديمه وحديثه، ولا تمثل العصور الوسطى بحال فترة فراغ أو توقف في تطور التاريخ العسكري. لقد كتب أفلاطون سنة 375 ق.م في «جمهوريته» يقول: «إن أهم عنصر في الحرب هو أن تدار الحرب بكفاءة»، ولا جدال في أن أهل العصور الوسطى كانوا يعون ذلك جيدا.



البحث عن قبر الإسكندر

تأليف :روبرت سي. بيانكي

ترجمة : د. جاب الله علي جاب الله



العنوان الأصلي للمقال:

Hunting Alexander's Tamb.

Archaeology, Vol. 46, No. 4,

July - August 1993.

مراجعة :هيئة التحرير

على حين كان الإسكندر الأكبر يلفظ أنفاسه الأخيرة على شاطىء نهر الفرات في شهر يونيو من عام 323 ق.م، أفصح عن رغبته الأخيرة بكل وضوح، فطلب أن يلقى بجثمانه في النهر حتى يغيب تماما. وكان هدفه من ذلك أنه بهذه الوسيلة سيكون بوسع من بقي بعده من الرفاق نسج أسطورة تحكي أنه عرج إلى السماء ليعيش إلى الأبد في معية الإله آمون الذي كان يزعم أنه أنجبه.

غير أن قواد جيشه لم يحترموا رغبته، بل راحوا يفصلون الخطط لدفنه. وطبقا لإحدى الروايات القديمة فقد انقضى عامان على وفاته قبل أن يتم تصميم وصنع عربة جنازية تليق بحمل جثمانه المحنط إلى قبره، وعلى حين كان الموكب الجنازي يسلك سبيله إلى مثواه الأخير (إما في مقدونيا أو في غيرها، إذ لا يزال الأمر موضع نقاش) اعترضه في سوريا بطليموس(أحد القواد المقدونيين الكبار في جيش الإسكندر، والذي أعلن نفسه - فيما بعد - (في عام 305 ق.م) ملكا على مصر باسم بطليموس الأول - سوتير - بادئا بذلك العصر البطلمي) وخول الجثمان إلى مصر حيث جرى دفنه في قبر بمدينة منف.

بعد ذلك، أي في نهاية القرن الرابع أو بداية القرن الثالث ق.م، (إما في عهد بطليموس الأول أو عهد ابنه وخليفته بطليموس الثاني فيلادلفوس) نقل جثمان الإسكندر من قبره بمنف وأخذ إلى الإسكندرية حيث أعيد دفنه بها، وفي وقت لاحق قام بطليموس الرابع - فيلو باتور (222/21 - 205 ق.م)، بدفن أجساد أسلافه وكذلك جثمان الإسكندر، وكانوا قد دفنوا فيما يبدو في قبور منفصلة، في ضريح جماعي بمدينة الإسكندرية، وهكذا يكون جثمان الإسكندر قد دفن وأعيد دفنه في ثلاثة قبور بمدينتين من المدن المصرية، وعندما يتساءل امرؤ: أين يقع قبر الإسكندر، فإني أتوقع أن يكون السؤال منصبا على القبر الثالث والأخير، رغم أنه قد يقصد كذلك قبره بمدينة منف أو قبره الأول بمدينة الإسكندرية، وهما اللذان لم يعثر لهما على أثر.

تشير الكتابات القديمة بوضوح إلى أن قبر الإسكندر الثالث والأخير كان يقع عند تقاطع الشارعين الرئيسيين بمدينة الإسكندرية: الشمالي - الجنوبي والشرقي - الغربي، وقد قام أوكتافيوس، وهو الإمبراطور الروماني أغسطس فيما بعد، بزيارة الإسكندرية عقب انتحار الملكة كليوباترة السابقة عام 30 ق.م، وقيل إنه شاهد جثمان الإسكندر ووضع باقة من الزهور على قبره وإكليلا من الذهب على رأسه المحنط، أما آخر زيارة معروفة إلى

القبر فهي تلك التي قام بها الإمبراطور الروماني كراكلا عام 215م، ومن المحتمل أن القبر تعرض للتدمير، بل وحتى للنهب خلال فترة القلاقل السياسية التي اجتاحت مدينة الإسكندرية في عهد الإمبراطور أوريليان، بعد عام 270 بوقت قصير، وإذا كان للمرء أن يثق في روايات العديد من آباء الكنيسة الأوائل، فما إن حل القرن الرابع الميلادي حتى كان مكان القبر قد طوي في غياهب المجهول. بعد ذلك يروي مؤرخون عرب ثقاة، بمن فيهم ابن الحكم (871م) والمسعودي (944م)، وليو الأفريقي (القرن 16م)، أنهم رأوا قبر الإسكندر، وإن لم يعينوا مكانه على وجه التحديد.

وقد صرحت هيئة الآثار المصرية، وبصفة رسمية، لأكثر من 140 محاولة للبحث عن قبر الإسكندر، منها أخيرا ما لا يقل عن أربع محاولات لتحديد مكانه، كانت أولى هذه المحاولات عام 1960، وقد أجراها المركز البولندي للآثار، الذي مازال أعضاء منه ينقبون في المنطقة المعروفة باسم «كوم الدكة»، في قلب مدينة الإسكندرية، ولأنهم يعتقدون بأن تقاطع شارعي المدينة القديمين يضاهي تقاطع شارعي «الحرية» و«النبي دانيال» الحاليين، فقد حصلوا على تصريح بإجراء التنقيب في موقع يحده هذان الشارعان، وبه تل اصطناعي تقوم عليه بقايا حصن شيد عندما كان نابليون في مصر، ورغم أن حفائرهم تعمقت لأكثر من 40 قدما تحت سطح الأرض، فإنهم لم يعثروا على أية بقايا تدل على وجود قبر، وإن كان جهدهم قد أسفر عن كشوف مدهشة بما فيها أوديوم* من المرمر، ومسرح صغير من عصر الإمبراطورية الرومانية، ومجموعة حمامات العصر نفسه، وكلاهما لا مثيل له في أي مكان آخر بمصر.

يلاصق الحد الغربي لموقع تنقيب المركز البولندي مسجد النبي دانيال الذي تزعم الكتابات العربية القديمة أنه يقوم فوق قبر الإسكندر، وفي عام 1991 قام د. محمد عبدالعزيز، الأستاذ بقسم اللغة العربية - جامعة الأزهر، بإجراء حفائر في المسجد، إذ كان يرى أن المصادر العربية، التي يتجاهلها الباحثون عن القبر، تقدم براهين قوية على أن القبر كان في مكان المسجد، غير أن حفائره تعرضت لنقد شديد من قبل د. فوزي الفخراني، الأستاذ المتفرغ بجامعة الإسكندرية، الذي يقول إنه قام بالفعل بفحص كل شبر من أرض المسجد بما في ذلك السردابان الموجودان أسفله، وخلص إلى أن قبر الإسكندر لم يكن في مكان المسجد، وعلى حين راح الأستاذان الجامعيان يتبادلان الاتهامات، حصل رجال الدين المسؤولون عن إدارة المسجد على أمر بإيقاف أعمال التنقيب خوفا من أن يتسبب المزيد من الحفر في إلحاق الضرر بأساسات المبنى مما قد يؤدي إلى انهياره.

* دار لعزف الموسيقى

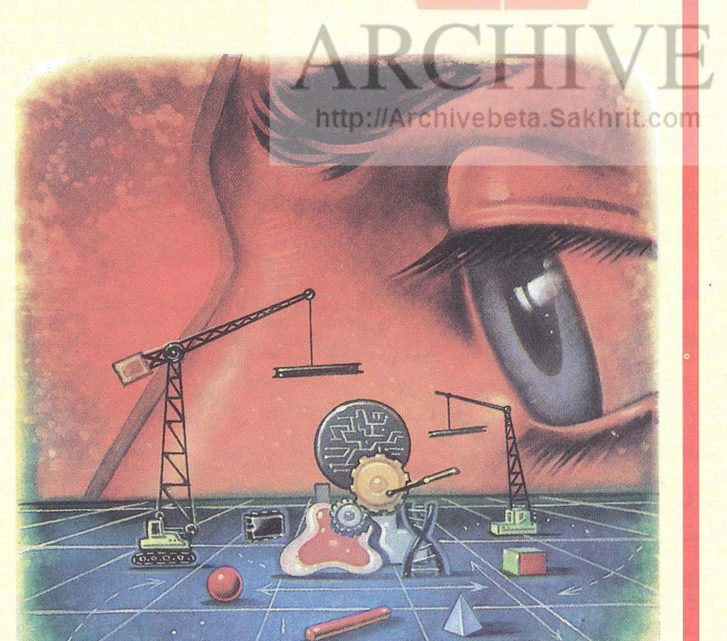
وعلى حين استندت الجهود المحمودة لكل من المركز البولندي ود. محمد عبدالعزيز إلى قرائن علمية، فإن الأمر غير ذلك بالنسبة لمحاولتين أخريين قام بهما أخيرا مواطنان يونانيان، أولهما هي لياني سوفالتزي L. Souvalitzi، التي تعمل بمعهد الدراسات الهلينية، فقد قامت بإجراء تنقيبات عام 1989 في الموقع المعروف باسم «المعبد الدوري» في منطقة المراقي وبلاد الروم بواحة سيوة، ولدينا وصف للمبنى، عندما كان لا يزال قائما. ورد في مؤلفات كل من فريدريك كايو F. Cailliaud (1822 ـ 1824) وهنريش منوتولي H. Minutoli (1826) وغرهارد رولفس G. Rohlfs (1889)، كان التخطيط الداخلي للمعبد غير عادي، فقد تألف من خمس غرف، الواحدة تلو الأخرى، وتصر سوفالتزي على أن لديها دليلا على أن الإسكندر دفن في واحة سيوة، لأنه، حسب ظنها، كان يريد أن يكون قريبا من معبد أبيه آمون، الذي أعلن في نبوءة له أن الإسكندر ابنه، وهكذا فإنها تزعم أن المعبد يقف شاهدا على مكان قبر الإسكندر نظرا لأنه يقع في واحة سيوة ولأنه شيد على النسق الدوري.

قابل علماء المصريات نظرية سوفالتزي بكثير من الشك، كما أنها جلبت على نفسها نفور أعضاء الجالية اليونانية في الإسكندرية، فهم يؤمنون أشد الإيمان بأن فاتحهم العظيم يثوى في مدينتهم، ومع هذا فإن نظريتها لقيت بعض التأييد من ليوناردو ليوبولدو L. Leopoldo وزوجته بتينا Bettina، وهما من أصل سويسري، والأخيرة من المهتمين بعلم الأجناس، بيد أن آل ليوبولدو لديهم من الأسباب ما يجعلهم يحبذون وجود قبر الإسكندر في سيوة، إذ إنهم يمتلكون مجموعة من الحلي والمصنوعات السيوية ويقيمان معارض لها في كافة أرجاء المعمورة.

وأخيرا فإن هناك محاولة ستليوكوموتسوس S. Komotsos النادل اليوناني الذي كان يعمل في حانة يقصدها صفوة مجتمع الإسكندرية، كان كوموتسوس مهووسا بالكشف عن قبر الإسكندر، فراح يدخر كل قرش يكسبه، وفي أوقات فراغه كان يقوم بحفر حفر حيثما استطاع في المدينة، ورغم أنه متقاعد الآن في أثينا، فيقال إنه لا يزال يقوم بتجميع المزيد من المذكرات والخرائط والوثائق التي تتعلق بالموضوع، حتى صار لديه منها أكثر مما لدى أي عالم آخر. ومن يدري ما الأسرار التي تحتويها كل هذه الوثائق؟ وقد عرض كوموتسوس ذات مرة أن يدخل شريكا بمعلوماته مع أي شخص يهتم بالبحث عن القبر، في مقابل معاش تقاعدي بالدولار وسيارة مرسيدس جديدة، وقد علق على هذا العرض طالب جامعي نابه بقوله: هذا حقا ثمن بخس إذا كان مقابله هو العثور على سر موقع قبر الإسكندر في «أرشيف» كوموتسوس.

العجائب الجزيئية

احتشد أكثر من مائتي عالم ومهندس ورجل أعمال في قاعة الطعام الصغيرة في Holiday Inn ببالو آلتو بولاية كاليفورنيا الأمريكية. وكان واضحا أن جميع المقاعد مشغولة، وحتى المداخل الثلاثة كانت تعج بالواقفين الذين كانوا يجهدون أنفسهم للنظر داخل القاعة. لقد جاءوا من كافة أنحاء الولايات المتحدة في صباح يوم من أيام شهر نوفمبر للاستماع إلى المعلم الوقور وحديثه العذب «إريك دريكسلر»، وهو يشرح كيف أن العلم الناشىء للتقانة المجهرية سوف يغير حياة كل فرد منا.



سوف تأتي الثورة الصناعية التالية، عندما تبدأ الآلات دقيقة الحجم بصنع كل شيء جزيئا بعد آخر.

تأليف : روبرت لانجريث

ترجمة : رؤوف وصفي

العنوان الأصلي للمقال:
Molecular Marvels.
Popular Science, May 1993.

مراجعة : هيئة التحرير

ولم يخيّب دريكسلر ظنهم إذ قال لهم: «سوف نأخذ معنا كل شيء مألوف لنا على المستوى المرئي بالعين المجردة، ثم نفعل ذلك على مستوى أصغر بدرجة هائلة، مستخدمين وحدات البناء الأساسية للمادة» ثم أردف :«إن التقانة المجهرية تبشر باستبدال الصناعة التي نعرفها حاليا، ومن هذا المنطلق فإنها تعد أساسا راسخا للثروة العالمية وفرصة رائعة لمجابهة الأزمات البيئية»، إنها سوف تسمح لنا بجعل كل شيء تقريبا «أرخص وأقوى وأخف وأكثر كفاءة وأشد متانة ووفرة».

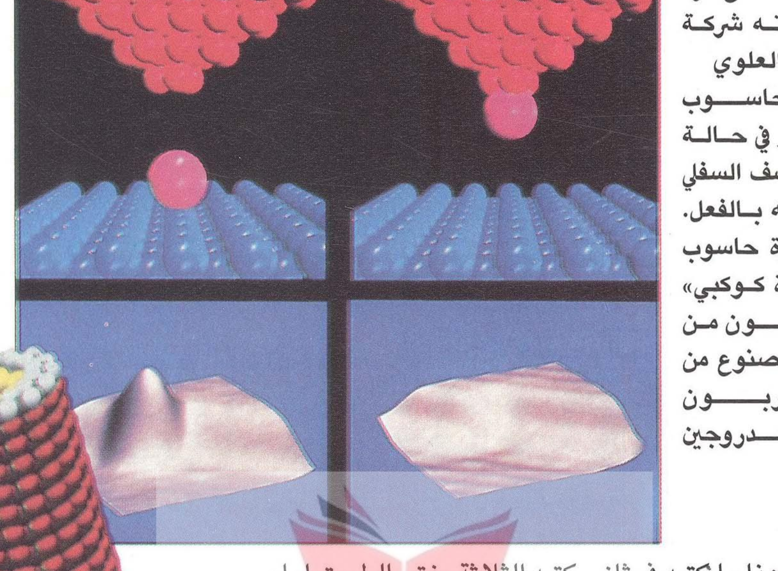
ولقد ظل دريكسلر، وهو باحث مستقل ومحاضر زائر بجامعة ستانفورد، يؤكد طوال سنوات عديدة، لأي شخص يرغب في الاستماع أن التقانة المجهرية ـ أي بناء الآلات جزيئا جزيئا ـ ستؤدي توا إلى أعظم إنجاز منذ قيام الثورة الصناعية. واستخدم دريكسلر عبارة «التقانة النانومترية» لأن مكونات هذه الآلات سوف تقاس بالنانومترات، أي أجزاء من بليون من المتر.

وهذا الاجتماع في Holiday Inn هو في الحقيقة ثالث اجتماع يعقده دريكسلر، وكان الاجتماعان السابقان قد خصصهما لعرض نتائج الأبحاث الفنية المتخصصة، وهذه الاجتماعات الثلاثة نظمها معهد فورسيت العلمي Foresight Institute. الذي أنشأه دريكسلر لتشجيع التقانة المجهرية ودفع عجلتها.

وتختلف أفكار دريكسلر جوهريا عن معظم الأفكار الأخرى لصنع آلات فائقة الصغر، فبدلا من أخذ شيء كبير مثل رقاقة سليكونية والبحث عن طرق بارعة لنحتها إلى دوائر متكاملة أصغر وأصغر، يريد دريكسلر أن يبدأ بجزيئات وذرات ثم يبني منها تركيبات أكبر على طريقة "Tinkertoy". وهذه المقدرة سوف تمكننا من القيام بعمل يتعدى بكثير عملية صنع الحواسيب على المستوى الذري. ويزعم دريكسلر أنه في وقت ما من القرن القادم، سوف نكون قادرين على بناء مصانع في حجم الجزيئات تسمى «المجمِّعات» تكون قادرة على تصنيع آلاف الآلات المجهرية المتخصصة. والعشرات من هذه الآلات التي تعمل في توافق مع بعضها البعض، سوف تقوم بدورها بصنع أي شيء بدءا من الجسور التي لا تتأثر بالزلازل وناطحات السحاب إلى الروبوتات المجهرية التي تستخدم في استخراج الخامات والتنظيف التام للفضلات السامة. ويسمي دريكسلر هذه المقدرة «التصنيع الجزيئي».

وبسبب الدقة العالية الكامنة في عملية البناء جزيئا بعد آخر، فإن المواد العادية ذاتها سوف تتحسن جوهريا بوساطة التقانة المجهرية.

وحسب ما يزعم دريكسلر، فإن الجدران ـ على سبيل المثال ـ سوف «تصنع بحيث تصلح نفسها بنفسها بدلا من تلفها دون



صورتان لمفتاح ذرة مفردة صممته شركة IBM، الصف العلوي تمثيل بالحاسوب للمفتاح وهو في حالة تشغيل، والصف السفلي هو ما يشبهه بالفعل. وأدناه: صورة حاسوب «لعمود إدارة كوكبي» افتراضي مكون من 3557 ذرة، مصنوع من ذرات الكربون والهيدروجين والأكسوجين.

مقاومة». وهذا ما كتبه في ثاني كتبه الثلاثة «فتح الطريق امام المستقبل». ويمكن أن تصنع أجهزة إحساس وحواسيب داخل المنسوجات الدقيقة كجزء لا يتجزأ منها، ومن ثم يمكن للمادة أن تتنفس أفضل في الطقس الحار أو تحجب الأشعة فوق البنفسجية عند اللزوم. وحتى الجنود وضباط الشرطة يمكنهم ارتداء دروع تحمي أجسامهم، لا يزيد سمكها على ملليمتر واحد تثبت أسفل جلودهم. وأكثر من ذلك، يقول دريكسلر إن التصنيع الجزيئي سوف يصبح نعمة للبيئة، لأن عملية البناء جزيئا بعد آخر لن تنتج أي مخلفات.

ويشطح كثير من الباحثين، بل بعض العاملين في مجالات ترتبط بالتقانة المجهرية، حسب توقعات دريكسلر، بكثرة الحدس والظن حتى يبتعدوا عن روح العلم وهدفه.

والأنموذج الذي نعرضه هنا لكيميائي شركة

(AT & T) لويس بروس الذي يقول «إن الموضوع الآن لا يعدو كونه خيالا علميا. لكن بعد خمسين عاما من الآن، من يدري ما ستصبح الحال عليه؟».

ويرفض دريكسلر بهدوء الانتقادات القائلة: «إنها نظرية ومجردة وليس لها وزن»، بقوله: إنني أستند في كل خطوة في عملي إلى علوم معروفة.

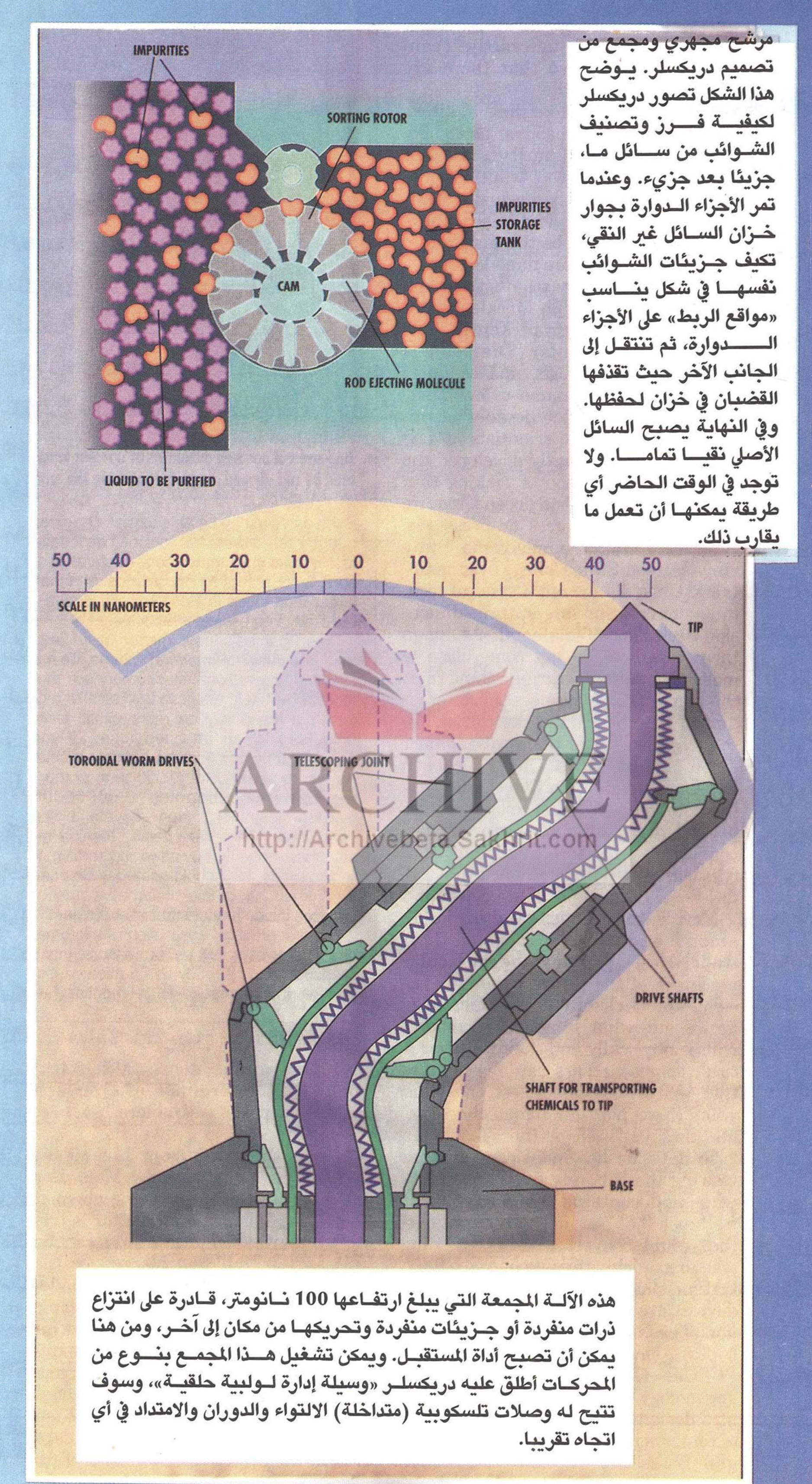
ومع هذا،سار العلماء في السنوات القليلة الماضية، أولى خطواتهم في اتجاه جعل التقانة المجهرية حقيقة واقعة. ولعل أهم إنجازاتهم هي القدرة التي اتضحت أخيرا لترتيب الذرات المنفردة بوساطة مجهر المسح النفقي. وعلى سبيل المثال، استخدم باحثو شركة IBM هذه المجاهر في تصميم مفتاح يتكون من ذرة واحدة، تقوم فيه ذرة وحيدة بالقفز إلى الأمام وإلى الخلف بين وضعين معينين.

ويتعلم المئات من الباحثين الآخرين ببطء كيف يصنعون ـ كيميائيا ـ أدوات ذات أحجام مجهرية. فقد ابتكر فريزر ستودارت من جامعة برمنجهام بإنجلترا مؤخرا، على سبيل المثال، مجموعة جزيئية معقدة في شكل عربات قطار، حيث تطن حلقة من الذرات وهي تنطلق حول شريط دائري بمعدل 300 دورة في الثانية. بينما ابتكر كيميائي آخر يدعى جورج وايتسايدس من جامعة هارفارد، طريقة لإنتاج قطيرات خلوية من الماء ذات أحجام متسقة تماما.

وعلى الرغم من أن هذه الاختراعات لم تقدم لنا شيئا نافعا حتى الآن، فإن الباحثين يرون أنها أثبتت بشكل قاطع لا لبس فيه، أن البشر يمكنهم صنع آلات من الجزيئات.

ومن دواعي السخرية أن أكبر عقبة في طريق التقانة المجهرية، ربما تكون تعلم كيفية تصميم الجزيئات الكبيرة اللازمة لأجهزة الإحساس والمشغلات والمحركات ذات الأحجام الجزيئية. وعلى حين نجح الكيميائيون في صنع جزيئات تحتوي على بضع عشرات من الذرات، فإنهم لا يعرفون عموما كيف يصنعون جزيئات تحتوي على آلاف من الذرات، كالبروتينات. ويشرح دريكسلر ذلك في كتابه «فتح الطريق أمام المستقبل» قائلا :«ربما يتساءل المهندس الميكانيكي وهو ينظر إلى التقانة المجهرية، كيف يمكن صنع آلات صغيرة هكذا؟»، إلا أن الكيميائي سوف يتساءل: «كيف يمكن صنع جزيئات كبيرة هكذا؟.. فالتقانة المجهرية تتناول كيفية توسيع الكيميائيين مدى سيطرتهم الدقيقة على التركيبات الجزيئية بمقاسات أكبر فأكبر».

ولتحقيق هذا، يهتم كثير من الباحثين بالبروتينات.. لكن لماذا البروتينات بالذات؟ تخيل الكم الهائل من الوظائف التي تؤديها البروتينات في جسم الإنسان، على حد قول مارتن إدلشتاين الباحث في شركة برلكس للعلوم الحيوية بمدينة فوستر بولاية كاليفورنيا الأمريكية: إنها تحارب الأمراض،



مرشح مجهري ومجمع من تصميم دريكسلر. يوضح هذا الشكل تصور دريكسلر لكيفية فرز وتصنيف الشوائب من سائل ما، جزيئا بعد جزيء. وعندما تمر الأجزاء الدوارة بجوار خزان السائل غير النقي، تكيف جزيئات الشوائب نفسها في شكل يناسب «مواقع الربط» على الأجزاء الدوارة، ثم تنتقل إلى الجانب الآخر حيث تقذفها القضبان في خزان لحفظها. وفي النهاية يصبح السائل الأصلي نقيا تماما. ولا توجد في الوقت الحاضر أي طريقة يمكنها أن تعمل ما يقارب ذلك.

هذه الآلة المجمعة التي يبلغ ارتفاعها 100 نانومتر، قادرة على انتزاع ذرات منفردة أو جزيئات منفردة وتحريكها من مكان إلى آخر، ومن هنا يمكن أن تصبح أداة المستقبل. ويمكن تشغيل هذا المجمع بنوع من المحركات أطلق عليه دريكسلر «وسيلة إدارة لولبية حلقية»، وسوف تتيح له وصلات تلسكوبية (متداخلة) الالتواء والدوران والامتداد في أي اتجاه تقريبا.

وتنقل الأكسوجين من الرئتين إلى باقي أجزاء الجسم، وتؤدي إلى انقباض العضلات، وتهضم الطعام. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الخلايا تحتوي فعلا على مصانع تقنية مجهرية ضئيلة الحجم لصنع البروتينات - تسمى ريبوسومات - إلى جانب المكافىء الحيوي لمراكز شحن وتسلم البروتينات، وانتقال الكتلة، ورصد حركة المخزون. ويقول إدلشتاين إنه إذا أمكننا تكييف هذه الآلات المجهرية المدهشة تبعا لاحتياجاتنا، فإنها تصبح مثالية للعديد من الاستخدامات، وخصوصا الأدوات المجهرية اللازمة لإصلاح الأعضاء التالفة أو لتنظيف البيئة.

وتمكّن علماء البيولوجيا مؤخرا في معهد الأبحاث بعيادة سكريبس في لاجولا بولاية كاليفورنيا الأمريكية، من تغيير بروتين جسم مضاد بحيث يلتقط ويحتفظ بذرة زنك واحدة، وهو ما لا يمكن لأي جسم مضاد عمله طبيعيا. وسوف يساعد هذا على مكافحة الأمراض. ويعلق مايكل بيك أحد باحثي عيادة سكريبس على ذلك بقوله : «لو كنت منتبها لأمكنك إيجاد وظائف جديدة تماما للأجسام المضادة». ويقوم هؤلاء العلماء أنفسهم بمحاولة ابتكار أساليب لعمل هذا مع جزيئات أخرى. وفي تجربة مشابهة استخدم عالم الكيمياء الحيوية ستيفان مان بجامعة باث في إنجلترا، بروتينا يسمى «فيريتين» لحجز قطع صغيرة من أكسيد الحديد في قفص، لتكوين مغناطيسات بأبعاد مجهرية. وفي النهاية، يتصور أنصار التقانة المجهرية أن مثل هذه الجزيئات قد تصبح جزءا من روبوتات تعمل داخل أجسامنا وتزيل الكيماويات غير المطلوبة، المسماة «المواد المؤكسدة ذات الشق الطليق» التي يعتقد الكثيرون أنها تسبب الشيخوخة.

ويتجه الكيميائيون الآخرون اتجاها جوهريا بدرجة أكثر، إذ يحاولون تخليق بروتينات جديدة تماما من مجرد خدش. ولكن ذلك مما يسهل قوله ويصعب فعله. فالبروتينات لا تحتوي فقط على سلاسل من مئات من الأحماض الأمينية (والتي هي نفسها جزيئات ذات مقاسات جيدة)، بل إن هذه السلاسل مطوية داخل أشكال فائقة التعقيد حتى أن الباحثين آخذون في فهمها من زمن قريب. وللخروج من هذه المتاهات، تقوم جين ريتشاردسون وزميلاتها بجامعة ديوك في دوريهام بولاية نورث كارولينا الأمريكية، بتطوير برنامج للحاسوب «لنحت البروتينات»، ومثل مصممي السيارات الذين يشكلون نماذج بالحجم الطبيعي للنماذج الجديدة المقترحة، ليروا كيف تبدو قبل تصنيعها، يخطط العلماء لاستخدام هذا البرنامج لتصور تركيب البروتين الجديد المقترح قبل إنتاجه في المختبر. وفي الحقيقة، فإنهم تمكنوا فعلا بمساعدة الشكل المبدئي لهذا البرنامج من صنع بروتينين مختلفين. لكن نظرا لأن هذه البروتينات «منزلية الصنع» لا تتميز بشكل بللورى صلب

محدد بـدقـة، فإن العلماء لم يتمكنـوا من القـول إنهم أنتجـوا مـا أرادوه بـالضبط. وتقول جين ريتشـاردسون: «لكننـا حققنا قـدرا كبيرا من التقـدم. ولن يحدث ذلك في سنتين، لكن ربما نتمكن في المستقبل القريب من تصميم جزيئات بـروتينيـة كاملـة من مجرد خدش».

وفي نهايـة الأمر، ربما يـريـد الباحثـون إضـافـة محركـات لآلاتهم البروتينيـة. ولتحقيق هذا الهدف، ربما يكون لدى دافيد بلير عالم البيولوجيا بجامعة أوتاوا، والذي لا يـزال يـدرس الـزوائد البكتيريـة، بعض النصائح. فهذه الـزوائد ـ بعد تزويـدها بما يعـادل الطـاقـة المتـولـدة من محرك ذي 8 اسطوانات ـ تدور بشكل لولبي آلاف المرات في الـدقيقـة الواحـدة، وتـدفع البكتيريـا إلى الأمام بسرعات تصل إلى 25 مرة قدر طول الجسم البكتيري/ثانية (للمقارنة فإن أسرع إنسان يمكنه أن يسبح بسرعة تصل إلى 1,2 مرة قدر طول جسمه/ثانية). ويحاول بلير حـاليـا تحديـد التقسيم الـنوعي للعمل بين خمسـة مـورثّـات، يعتقـد البـاحثـون أنها مسؤولـة عن آلية توليد عـزم الدوران. وعلى الرغم من أن بلير يحذر من أننـا قد لا نحتاج إلى تقليد الحركة البكتيرية بالغة التخصص، فإنه يقول: «لا يمكننـي سوى الاعتقاد بأن هناك دروسا يجب استيعـابها». وعلى الرغم من القدرات المذهلة للبروتينات، فإن لها عيبا واحدا كبيرا: إنها مثل اللحم، دائما مـا تكون طريـة لينة، وليست بالصـلابة التي تصلح لـلآلات والأدوات الميكـانيكيـة كـالتروس أو المرتكزات. ولـذلك يعتقد بعـض الباحثين أن الماس سـوف يكـون المادة الأولى المختـارة لكثير من الآلات المجهـريـة في المستقبل. ويقول رالف ميركل، خبير التقانـة المجهرية بمركـز أبحاث شركة زيـروكس ببالـو آلتو: «الماس هـو المادة التي يحلم بها كل عـالم». فالماس غاية في الصلابة وقوي وموصل جيد للحرارة . وهذه بعض الخواص النافعة التي يتميـز بها. وبعـد عقـود من البحث غير المجدي، تمكن العلماء في كثير مـن الشركات مؤخـرا من التوصـل إلى أول طريقـة عملية لصنع طبقات رقيقـة من الماس لا تحتاج إلى درجات حرارة أو ضغوط عالية جدا.

وقـد أعلن فريق البحث بجـامعة ولايـة بنسلفانيا بكلية الولاية، أنهم اكتشفوا طريقة عامة لتصنيع كميـات وافرة من قطع الماس الكبيرة ثلاثية الأبعاد. وعلى الرغم من أن هذه التطـورات مـازالت بعيـدة عن مجال صنع الجزيئات، فإنها تزيد الأمل في قرب التوصل إلى مصـدر لا ينضب مـن الماس. ويقـول المهندس الكيميائي جـون أنجس من جامعة كيس ويسترن رزيـرف بـولاية كليفـلانـد الأمريكية: «على المدى الطويل سوف يصبح الماس الصناعـي أكثر أهمية مـن الموصلات الفائقـة عند درجـات الحرارة العاليـة وأكثر أهميـة من [جـزيء الكـربـون] بكمينستر فولـرين، إنه سيكون في كل مكـان». بيد أن ميركل لا ينتظـر من مهنـدسي الماس أن يطـوروا صناعتهم إلى درجـة المثالية، إنـه

يصمم الآلات الجزيئية المستقبلية الآن بمركز أبحاثه بمساعدة الحاسوب. وتتلخص الفكرة في تحديد أنواع التركيبات العملية من الناحيتين الفيزيائية والكيميائية بحيث يتخلص الباحثون من الأفكار التي لا تجدي، ويتبنون الأفكار التي تفيد. ويقول ميركل: «إذا خططنا للتقانة المجهرية فسوف نحقق أهدافنا في زمن أسرع» وفي الوقت الحاضر، قام بتشكيل ركيزة دائرية لا يتعدى عرضها خمسة نانومترات وتحتوى على 2808 ذرات، وأيضا «ترس كوكبي» يحتوي على 3557 ذرة، يمكنه أن يحول قطبا يدور ببطء، إلى قطب سريع الدوران. وهذه الأدوات الافتراضية بالغة الصغر لدرجة أن عدة بلايين منها يمكن أن توضع على رأس دبوس.

وجنبا إلى جنب مع الباحثين من خريجي معهد كاليفورنيا للتقانة في باسادينا، قام ميركل أيضا بتصميم أداة كيميائية قادرة على إزالة ذرات الهيدروجين غير المطلوبة من أسطح الآلات المجهرية المستقبلية، بحيث يمكن استبدالها بذرات أكثر فائدة. ومثل هذه الأداة سوف تصبح الرائدة للمجمعات متعددة الأغراض لدريكسلر.

وعلى الطريق من ميركل بمعهد دريكسلر لصنع الجزيئات، يحاول كيميائي شاب يسمى ماركوس كورميناكر تحديد المواد التي يمكن استخدامها «كوحدات بناء» للجيل الأول من الأدوات المجهرية العملية، وهو يقول «إنني أبحث عن جزيئات عضوية صغيرة يمكن أن تتماسك كالطوب في إطار صلب»، إلا أن تلك - بخلاف الماس أو البروتينات - يسهل تجميعها باستخدام كيمياء الوقت الحاضر. ولعل هذه الوحدات التي يبلغ عرضها 12 ذرة يمكن استخدامها بحيث تشكل الأساس لجميع أنواع الأدوات المجهرية المستقبلية. ويتنهد كروميناكر قائلا: «إن مهمتي ليست سهلة»: فالجزيئات لا بد أن تكون صلبة ومستقرة كيميائيا، كما أنها لا بد أن ترتبط بسرعة مع «الوحدات» الأخرى عند وضعها بجوارها تماما. وعلاوة على ذلك، لابد أن يكون لها أماكن على جانبيها لإضافة «مجموعات وظيفية» تعمل على تحويل الهيكل الجامد إلى آلة تعمل وتتحرك. وعلى الرغم من أنه لم يحدد حتى الآن أي وحدة بناء أنموذجية، فقد وجد ما يبشر بالخير في «الملاط»، وهو تفاعل كيميائي يطلق عليه «ديلز ـــ آلدر» (Diels-Alder) عند علماء الكيمياء العضوية.

وبمجرد أن يجد كروميناكر ضالته، فإنه يأمل في استخدام طرف معدني مجهري ذي قوة ذرية - وهو أحد أقارب مجهر المسح النفقي - لتحريك وحدات البناء إلى مكانها الصحيح.

وسوف تكون إحدى الخطوات النهائية تجاه التقانة المجهرية، كما يقول دريكسلر، هي ابتكار «المستنسخات» (Replicators) التي تصنع آلاف النسخ المتماثلة من أي آلة

مجهرية، بمجرد إنشاء أي نموذج أولي لها. وسوف تفعل المستنسخات في مجال التصنيع الجزئي، ما صنعه خط إنتاج هنري فورد للسيارات، أي جعل التقانة المجهرية شائعة ورخيصة بحيث يستفيد منها كل شخص.

ولعل مستنسخات البناء لا تكون دقيقة جدا، كما قد تبدو لأول وهلة. فقد قام الكيميائي يوليوس ريبك في مختبره بمعهد ماساشوست للتقانة بكمبردج، بتخليق عدة جزيئات تصنع نسخا من نفسها، ويتذكر ريبك قائلا: «ألقى أحدهم محاضرة عن فكرة جزيئات تستنسخ ذاتها، وفكرت في نفسي (آه.. إنني أستطيع عمل ذلك.. وفعلا حققت هذا)». وبدأ بتجهيز محلول يحتوي على نوعين من الجزيئات التي تتداخل مع بعضها البعض مثل «لعبة الصور المقطوعة» لتكوين صورة ما، بهدف تشكيل مادة كيميائية ثالثة. وبمجرد تكوين جزيء واحد من هذه المادة الثالثة، فإنها سوف توجه المزيد من أزواج جزيئات المادتين الأوليين.

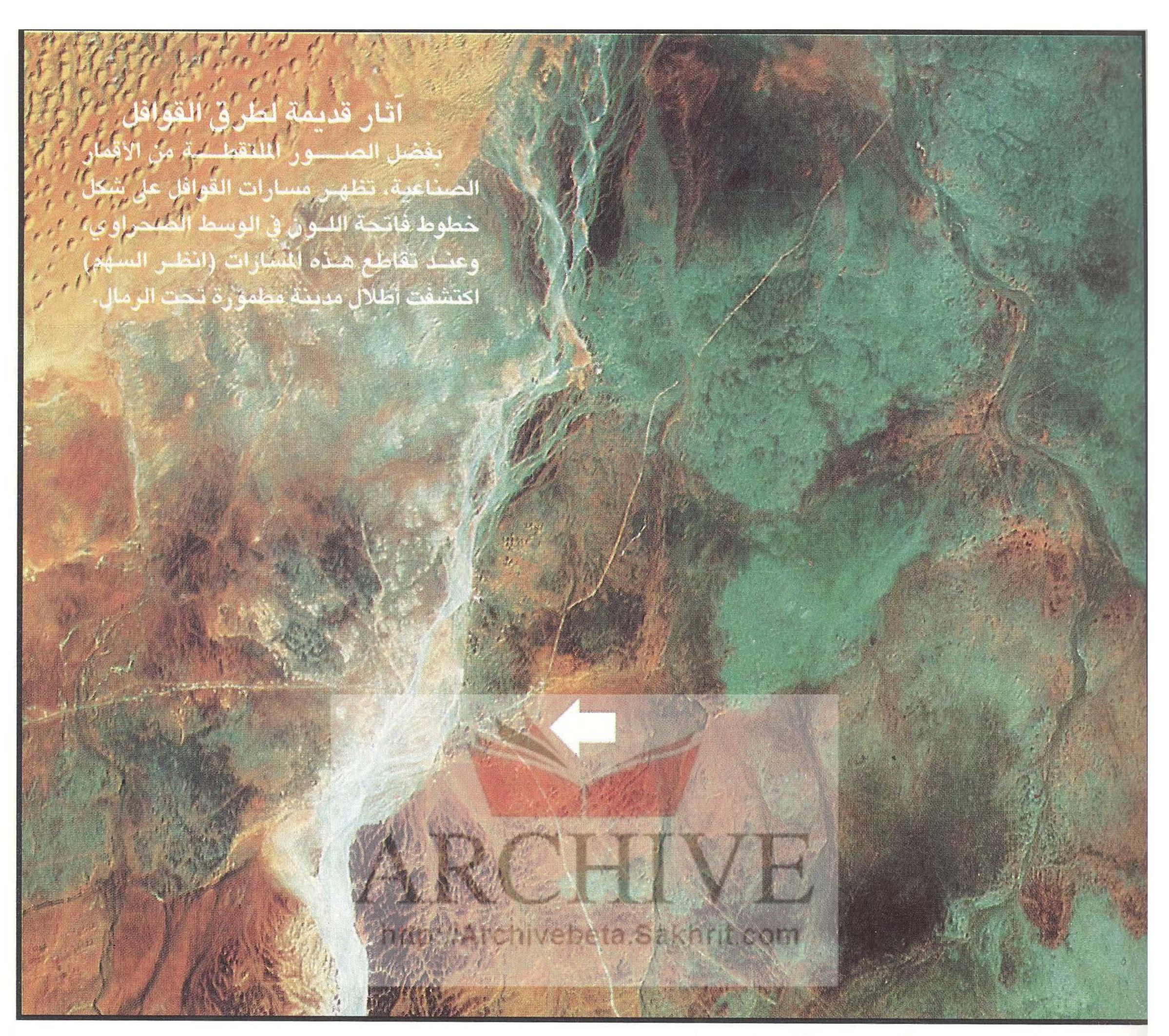
وسرعان ما امتلأت أنبوبة الاختبار بملايين من النسخ من الجزيء الثالث. ويتوقع ريبك أن «أنواعا كثيرة من الجزيئات» يمكن تخليقها بحيث تستنسخ نفسها بما في ذلك كل من المواد الكيميائية العضوية وغير العضوية، وأضاف قائلا: إن المعيار الأساسي، أن تكون لها أشكال متتامة.

متى يحدث هذا مستقبلا؟

على الرغم من إجراء العديد من التجارب المشجعة والمبشرة بالخير، فإن الباحثين مازالوا بعيدين عن ترجمة نتائجهم إلى استخدامات عملية في مجال التقانة المجهرية. ترى متى نحقق ذلك بالضبط؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يقول دريكسلر إنه لا يستطيع الإجابة عنه، لأنه يعتمد على عوامل سياسية واقتصادية، مثل مدى إنفاق الحكومات على الأبحاث، مثلما يعتمد على العلم نفسه. إلا أن الباحثين يقدرون أن ذلك سوف يحدث بعد ما يتراوح بين 20 ـ 30 عاما كحد أدنى. أما إذا وقف الناس في وجه التقدم التقني المجهري، خوفا من أن يلغي بعض الوظائف الحالية، فإن النجاح في هذا الصدد سوف يستغرق وقتا أطول كثيرا.

ويوصي دريكسلر وزملاؤه، أولئك الذين يعتقدون أن الفوائد المنتظرة للتقانة المجهرية بعيدة الاحتمال، بالسير في الغابات بأقرب أرض مخصصة للصيد، أو بالنظر إلى الحيوانات في حديقة الحيوان أو حتى بالتحديق في المرآة.

ويقول ريتشارد سمالي من جامعة رايس بهيوستن، وهو الكيميائي الذي اشتهر باكتشافه جزيء الكربون الذي على شكل كرة القدم والمعروف باسم (بكمينستر فولرين): «هذه هي أمثلة حية ونشطة للتقانة المجهرية. وربما يمكننا في غضون بضعة عقود من السنين، أن نتعلم بعض قواعد اللعبة وأن نطبقها».



آثار قديمة لطرق القوافل

بفضل الصور الملتقطة من الأقمار الصناعية، تظهر مسارات القوافل على شكل خطوط فاتحة اللون في الوسط الصحراوي، وعند تقاطع هذه المسارات (انظر السهم) اكتشفت أطلال مدينة مطمورة تحت الرمال.

علم الآثار وتكنولوجيا الفضاء

ترجمة : نبيل حسون

خلال قرون عديدة ماضية، ظلت صحراء عُمان معبرا للقوافل. وإذا كانت مسارات طرق القوافل هذه غير ظاهرة للعيان على الأرض، فقد بدت واضحة في الصور التي التقطتها الأقمار الصناعية من الفضاء. وعند التقاء هذه المسارات هناك احتمال كبير جدا في اكتشاف أطلال قديمة.

العنوان الأصلي للمقال:
Une Archeologie De Haute Volee. Science Illustrée, No. 4 , Avril, 1993.

مراجعة : د. جاب الله علي جاب الله

تقوم حاليا بعثة استكشافية تضم عددا من علماء الآثار بالتنقيب على الساحل الغربي من شبه الجزيرة العربية، في سلطنة عمان، وفي مقابل مضيق هرمز. وتركز عملياتِ التنقيب على كشف أطلال قلعة مثمنة الشكل، تعرضت للدمار وطمرت في الرمال نتيجة لانهيار تجويف كلسي كانت قد شيدت فوقه. ويعتقد أنها المدينة الأسطورية «إرم» (أوبارUBAR) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. ومنها كانت القوافل تنطلق محملة بالبخور واللبان، ويقال إن الملوك المجوس الثلاثة قد انطلقوا منها إلى بيت لحم.

اكتشف علماء الآثار هذا الموقع التاريخي اعتمادا على الأرصاد الجوية والفضائية. فعلى الأرض، لم يكن هناك أي أثر يدل على وجودها، ومن الأهمية بمكان تحديد ما إذا كانت هذه الأطلال لمدينة «أوبار» أم لا. ففي هذه المنطقة من العالم، تجد جميع آثار الماضي وقد طمرت تحت طبقات سميكة من كثبان الرمال.

بالاستعانة بأجهزة للاستشعار عن بعد وبأجهزة تصوير محمولة فوق مناطيد أو محطات فضائية، وجد الباحثون أنفسهم وقد تسلحوا بوسائل كشف جديدة وفعالة، ففي هذا الموقع حيث لا تدل المشاهدات الأرضية على أي مؤشر، تجد الوثيقة التي يعطيها الرادار أو الصور التي تلتقط من الفضاء وقد أظهرت وجود أطلال حضارة غابرة.

نيل آخر تحت الرمال

وفي وقتنا الحاضر، يستخدم علماء الآثار بانتظام الأجهزة المحمولة على الأقمار الصناعية. وقد لجأوا إليها خاصة لسبر غور المدن القديمة المختفية في اليونان القديمة وكذلك آثار حضارة المايا في أمريكا الوسطى والمواقع التي تدل على أولى خطوات البشرية في الصدع الأفريقي.

ويعود الفضل الأول في اكتشاف «أوبار» إلى الرادار «سير» SIR الذي استخدم للمرة الأولى عام 1981. ومبدأ هذا الرادار معروف جيدا اليوم، فهناك مرسل يطلق نبضات أشعة كهرومغناطيسية، ويستقبل لاقط مرفق به صدى النبضات المرتدة. ومن تحليل هذه الأصداء ومدى شدتها وتغير ترددها، يمكن تحصيل كم كبير من المعلومات حول الهدف العاكس للأشعة.

وفي عام 1981، قام مكوك الفضاء الأمريكي تشالينجر بسبر غور المناطق التي حلق فوقها خاصة الصحراء الكبرى بدءا من مصر وتشاد ومرورا بالسودان وليبيا، وذلك بالاستعانة برادار يستخدم طول موجة قدرها 22,5 سم. ويعد هذا

الجزء من الصحراء أكثر مناطق الجفاف في العالم أجمع، ففي بعض انحائه لم يسجل هطول المطر سوى مرة واحدة خلال 40 عاما، وعلى الأرض ترى الأفق دون أي تضاريس.

وكم كانت دهشة الجغرافيين والباليونتولوجيين (علماء الإحاثة) المتخصصين في هذه المنطقة كبيرة عندما عرضت عليهم الخرائط التي سجلها الرادار. فقد لاحظوا باستغراب شديد وجود آثار نهر ضخم كان حجمه أكبر من حجم نهر النيل الحالي، وكان متصلا بشبكة كثيفة من الروافد والبحيرات قبل أن تنضب مياهه.

مدينة مطمورة عند تقاطع الطرق

أصبحت هذه الصور السلبية ممكنة إذ إن الموجات السنتيمترية تخترق التربة الخالية تماما من الماء إلى عمق أمتار عديدة حتى تصطدم بالصخرة القاعدة المتآكلة جزئيا والتي تعكس هذه الموجات. ولذلك فالصور الملتقطة من الطائرة لا تكشف شيئا.

مدينة إرم (أوبار) الأسطورية

يعتقد أنه تم اكتشاف مدينة «إرم» التي ورد ذكرها في القرآن الكريم باسم إرم ذات العماد.

بعد أن تزود الباحثون بهذه المعلومات، انطلقوا إلى الموقع وشرعوا بالتنقيب معيدين بذلك مشهدا يتراوح عمره ما بين 40,000 إلى 100,000 سنة. وكانت الصحراء آنذاك سهولا كثيفة العشب غزيرة المياه. وقد أظهرت التنقيبات عما كان في الماضي ضفاف النهر، وجود آثار مساكن وسط أنقاض تدل على نشاط هجري مثل: فؤوس ورؤوس سهام ومن المكتشفات أصداف محار أيضا.

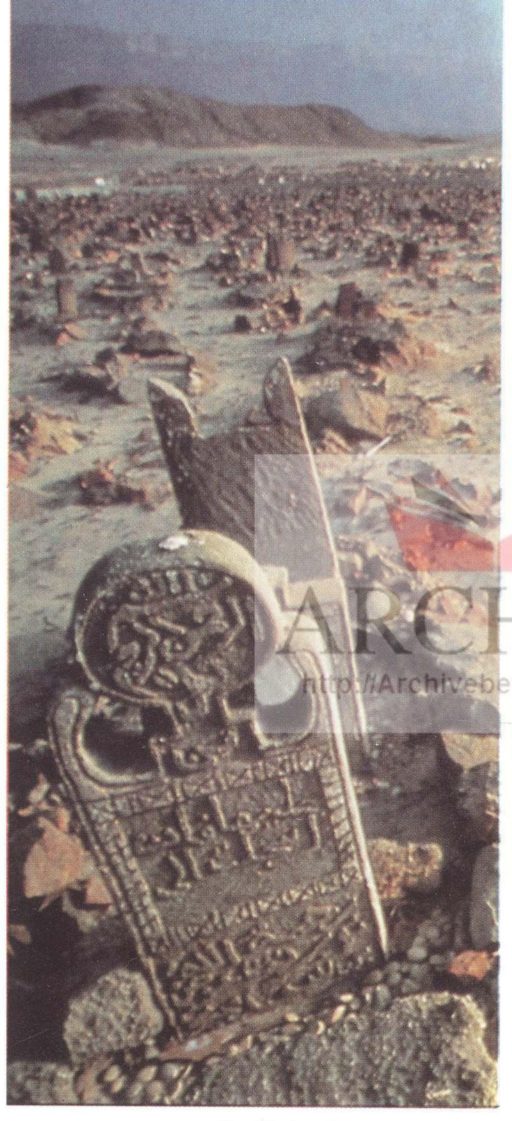
وفي عام 1984 أعيدت التجربة فوق

شبه الجزيرة العربيـة باستخـدام رادار محسن هـذه المرة. وقد دلت الصـور التي التقطت خـلال هـذه التجربـة على وجـود المدينة المطمورة «أوبار». فقد رصد الرادار آثـارا دقيقة للغـايـة لمسارات قـوافل عبر مئـات الكيلـو مترات في صحـراء شبـه الجزيرة العربية.

فعلى مـرّ العصـور، سلكت الجمال المسارات ذاتها مما جعل رمالها وحصاها أكثر نعومـة من المواد المحيطة بها. وتتأثر أصـداء الـرادار بهذا الاختـلاف فتظهـر مسارات القوافل كخطوط فاتحة. وقد فهم البـاحثـون على التـو أنها تمثل مسـارات قديمـة، وقد تمكنوا من رصد أحـدها على طول 5 كم دونما انقطاع. ثم اختفى تحت كثبـان ضخمة من الرمال قبل أن يعود ثانية للظهور في الطرف الثانـي منها.

المسار كان مغطى برماد البراكين

وقد هرع البـاحثون إلى الحصول على خـريطة لخطـوط سير القـوافل القديمـة، فـلاحظوا أن كثيرا منهـا يتقاطـع في نقطـة واحدة. وسرعان ما انتقلوا إلى الموقع علـى الأرض الطبيعية غير أنهم لم يشـاهـدوا مايلفت النظر، ولكن على عمق عـدة أمتار تحت سطح الرمـال كانت تـربض أطلال مخزن وخان لإيـواء القوافـل. كما وجدت



اكتشاف قبور

أسفرت التنقيبات التي أجريت في «أوبار» عن ظهور مقبرة إسلامية مهمة تبين وجود مدينة مأهولة بالقرب منها.



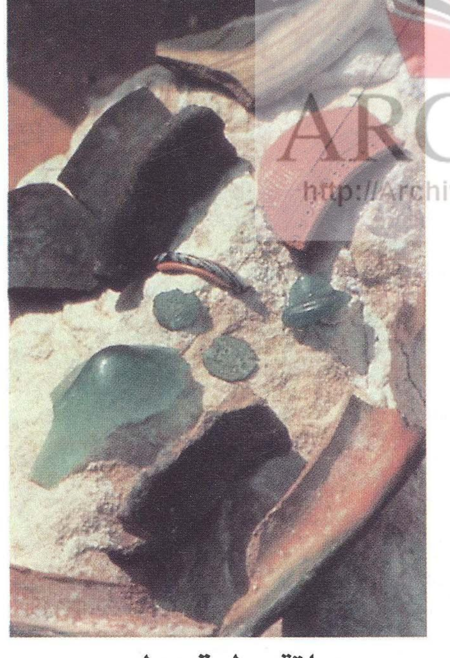
خريطة يعود تاريخها إلى 1000 عام

هذه الخريطة مستوحاة من الخريطة التى وضعها الفلكي وعالم الرياضيات اليوناني إقلاديوس البطلمي للجزيرة العربية في القرن الثاني ق.م. وتظهر مدينة في موقع التنقيبات (انظر السهم).



تحت أمتار عديدة من الرمال

بعد الحفر، تمكن علماء الآثار من التنقيب في الموقع فوجدوا - ضمن السور المثمن - مستودعات استخدمت لتجارة العطور والبخور.



ملتقى طرق دولي

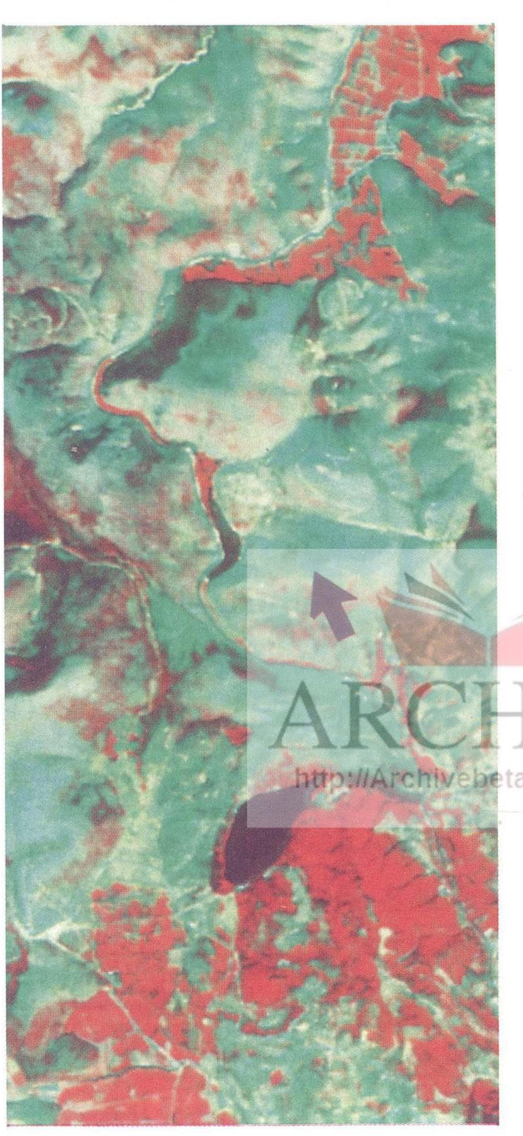
بقايا من السيراميك والزجاج منشؤها سوريا واليونان.

أطلال أخرى في موقع قريب دلت على وجود تجمع سكاني مهم.

وعلى أية حال فالكنوز الأثرية لا تختفي دائما تحت الرمال. ففي عام 1985، قام عالم الآثار الأمريكي بيسون شيتس Bayson Sheets من جامعة كولورادو بدراسة مجموعة من الصور الجوية الملتقطة بالأشعة تحت الحمراء لمنطقة «تيلاران» Tilaran الواقعة في شمال غرب كوستاريكا. وتوصل شيتس، الذي يعرف المنطقة معرفة جيدة، إلى تحديد التفاصيل ذاتها في الوثائق المرسلة من قبل

القمر الصناعي، غير أن مالفت انتباهه هو وجـود خط متعرج يبـدأ من مقبرة ثم ينحدر ويلتف حول تكتل من الصخور ثم يصعد على جبل قبل أن يعـود إلى مساره. وبما أن هذا الخط كان يصل ما بين مواقع أثرية: مقابر ومدن ومنـاجم قديمة، عابرا منطقة كثيرة الأودية، فقد استنتج شيتس أنـه ليس بالظـاهـرة العاديـة. فعمل على إجراء مجسات بينت نتيجتهـا وجود آثار لمسـار يعود عمـره إلى القـرن العـاشر الميلادي، وقـد حفر هذا الطـريق في التربة البركانية نتيجة للمرور المتكرر للبشر. ولم يكن هـذا الطـريق قد لـوحظ قبـلا بسبب تغطيته بعدة أمتار من رماد البراكين.

وهكـذا استطـاع عـالم الآثـار تمييز المواقع الأثرية التي يصل هذا الطريق فيما بينها، ولكنـه لم يتمكن من تمييز المسار ذاته. وقد كانت الصـور الملتقطة من القمر الصنـاعـي أكثـر حسـاسيـة من العين البشريـة في اكتشـاف اختـلاف الألـوان. وبـالفعل كـان العشب النامي فـوق هـذا الطـريق حصرا ذا لون أخضر أكثـر ثباتـا واستمرارا مما جـاوره، وذلك بسبب كون طبقة الـرماد البركـاني أكثر سمكـا فوق الطـريق منهـا في المناطق الأخـرى. الأمـر الذي أسهم في زيادة نمو النباتات.



استدلال انطلاقا من الفضاء

في بقايـا الرسـوبيات (انظـر السهم) لبحيرة قديمـة، تم اكتشاف فأس من الحجـارة يعود تاريخها إلى 200 ألف عام.

شبكة من الأقمار الصناعية ترشد علماء الآثار

ومن الصعوبات التي غالبا ما تواجه علماء الآثار، الذين يتعاملون مع صور الأشعة تحت الحمراء أو مع خرائط الرادار، نقل ما تظهره هذه الصور من مواقع مهمة إلى الأرض الطبيعية. ففي منطقة حرجية مثلا، يظهر طريق قديم كخط فاتح على الصورة ولكن المشكلة تكمن في كيفية العثور عليه وسط الغابة الكثيفة، وكذلك العثور على الموقع الذي يعبر فيه النهر الذي يعترضه على حين أن الجسر كله قد اختفى منذ فترة طويلة.

وقد ابتكرت تقنية فضائية أخرى لتذليل هذه الصعوبة، أطلق عليها GPS.

وهى قادرة على تحديد موقع المستكشف على الأرض بدقة كبيرة بالاستعانة بموجات راديوية وبعدة أقمار صناعية يعرف مسارها جيدا. وبفضل نظام معلوماتي أدخل في جهاز على هيئة علبة حجمها كحجم مذياع صغير، يتمكن عالم الآثار من تحديد موقعه بدقة وتوقيعه على الخرائط التي يعمل عليها. وتظهر فائدة هذه الصور الجوية عندما تكمل بالاستعانة بأجهزة ركبت على مناطيد صغيرة.

وهذه المناطيد سهلة الاستعمال بالإضافة لكونها زهيدة التكاليف، الأمر الذي يجعلها ذات ميزات مهمة. فاستخدامها يغني عن ضرورة انتظار وصول القمر الصناعي إلى الموقع المناسب في مداره بالنسبة لفريق التنقيب الذي يعمل على الأرض، الأمر الذي قد يتطلب أسابيع بل شهورا. ونظرا لكونها في متناول اليد، أصبحت هذه المناطيد جزءا من معدات فرق التنقيب عن الأماكن الأثرية التي يصعب تحديد موقعها.

واليك مثالاً آخر يبين فعالية هذه التقنيات الحديثة. ففي إطار مشروع «نيكوبوليس» "NIKOPOLIS" اهتم فريق من الباحثين من جامعة بوسطون بالماضي السحيق لمنطقة بريفازا، وهي عبارة عن ميناء صغير على الساحل الغربي لليونان.

فأس من الحجر حفظت بشكل كامل

شرع علماء الآثار بأبحاثهم اعتمادا على صور التقطتها الأقمار الصناعية الفرنسية «سبوت» SPOT والتي غطت المنطقة بكاملها. وللحصول على تفاصيل أدق بالنسبة لبعض النقاط، استعانوا بالمناطيد المذكورة أعلاه. وأدى ذلك إلى العثور على ماهو أقدم بكثير جدا من أطلال المدينة التي كانت الهدف الأولي

للتنقيبات. إنها فأس رائعة يبلغ طولها 22 سم مصنوعة من الحجر، وقد حفظت بحالة جيدة تماما. ويعود تاريخها إلى ما بين 200 ألف و500 ألف عام. وفي حال الجزم بهذا التقدير، تكون هذه الفأس أحد الآثار الأكثر قدما والتي تدل على الوجود البشري في أوروبا. ومما لا شك فيه أن الفأس لم تكن مرئية بذاتها من الفضاء، إنما وجدت في بقايا رسوبيات لبحيرة تعود إلى ماقبل التاريخ.

وقد أظهرت الصور الملتقطة من قبل القمر الصناعي مستويات مختلف الطبقات الرسوبية تبعا لمراحل ملء البحيرة. وقد أدت هذه الطبقات إلى حدوث تغيرات - تافهة أحيانا - في النباتات ولكنها مرئية بشكل واضح بالألوان الكاذبة في الصور السلبية (الكليشيهات). وهكذا تمثل - بشكل رمزي - الأرض القاحلة باللون الأصفر في الصور الملتقطة بالأشعة تحت الحمراء، وشجر البلوط باللون الأخضر، أما اللون الأزرق فيدل على المناطق الرطبة. وقد ظهرت الطبقة، التي تعود إلى المرحلة الجيولوجية المدروسة - باللون الأزرق الفيروزي. وحينما جرى التنقيب في جوانبها تم العثور على الفأس.

وكما رأينا فقد كان الهدف الأولي هو كشف أطلال نيكوبوليس. وهي مدينة شيدها - عام 29 قبل الميلاد - الإمبراطور أوغسطس، احتفالا بانتصاره على أسطول مارك أنطونيوس وكليو باترا بالقرب من بريفيزا.. وموقع هذه المدينة كان معروفا بفضل وجود الأسوار وبعض النصب المحطمة، ولكن لم يكن قد أجري قبلا أي تنقيب فيها، وكان المخطط التفصيلي للمدينة مجهولا. إن ما جعل الأمر ملحا هو توسع المدينة وماتسببه من تخريب همجي للآثار وأيضا إنشاء الأبنية السكنية وشبكات الطرق، كل ذلك بات يهدد بمحو أطلال هذه المدينة القديمة وإلى الأبد.

ويساعد في الإشراف على مشروع نيكوبوليس علماء آثار يونانيون محليون، فالمهمة هائلة ويتوجب التواجد في كل حفرة لمجرور أو أحساس لبناء.

ويحاول القائمون على هذا المشروع عدم الانزلاق في نشاط محدد الأجل ولذلك نجدهم يدأبون على وضع خارطة كاملة للمنطقة تشمل جيولوجيتها وآثارها على حد سواء. وهذا العمل الذي كان سيستغرق عشرات السنين سابقا، أصبح اليوم في متناول اليد خلال فصل صيف واحد فقط.. وذلك بفضل السماء إن جاز هذا القول.



أسرار الطبيعة

الإيقاعات الفلكية للمناخ

تأليف : ليلى حداد

ترجمة : عبدالقادر حمدو

يتسم تاريخ الأرض بسلسلة «مذهلة» من درجات الحرارة «المرتفعة» و«المنخفضة» مثل تأخر وتقدم الجليد، وتلك السهول القاحلة التي أصبحت صالحة للزراعة، وتبدلات درجات الحرارة أو مستوى البحار. وقبل خمسين سنة وجد أحد المهندسين الصربيين تفسيرا جذابا لهذه التقلبات المزاجية للمناخ، واضعا في خط التسديد المسار الشاذ للأرض حول الشمس.

منذ زمن بعيد وفي نهاية العصر الكريتاسي بين 100 و65 مليون سنة كان كوكبنا خاليا تماما من الجليد: ففي المكان الذي يرتجف فيه اليوم عشب نحيل تحت ثلاثة أمتار من الثلج، كانت العظائيات ترعى كلأ خصبا وسط أشجار النخيل والجاكا(1). ويحق لنا أن نحنّ إلى تلك الأرض ذات المناخ الفردوسي حيث كانت الحرارة

العنوان الأصلي للمقال:

Les Mystéres De La Nature, Les Rythmes Astronomiques Du Climat ,Ciel Et Space, No. 279, Avril 1993

مراجعة : هيئة التحرير

بشكل معقول تسخن حراشف طعام الشعب الأرضي، لكن تلك الزواحف الأولى كانت محسودة على مصيرها أكثر من الثدييات التي خلفتها.

تبدأ الفترة الأخصب بالتطورات المناخية بتجلد عظيم قبل ما بين 2,4 و2,7 مليون سنة. كان حجم الجليد القاري حينها يجاوز الحجم الحالي بـ 10^6. 50 كم^3 ، وكان مستوى البحار قد انخفض بمعدل 100م. أما الأم لوسي lucy الشبيهة بالقرد فكانت قد نزلت عن شجرتها، لكن منطقتها كانت محدودة على أفريقيا المضيافة. خلفها الإنسان الصانع Homo Habilis الذي استفاد قبل 1,8 مليون سنة من فترة دفء لطيفة تدرب خلالها على قذف الحصى المنحوتة. وبعدها بـ 200000 غادر الساحة ليحل محله المغامر جدا: الإنسان المنتصب Homo erectus.

هل يمكن لنا أن نتخيل أنه قبل 5000 عام فقط كانت هناك بحيرات زرقاء عميقة تتلألأ مكان الكثبان الرملية في الصحراء الكبرى؟ ومع ذلك فهذه هي حالة المناخ الذي تعقب فيه فترات الحر فترات البرد بأتم دقة.... فلكية.

عانى هذا الأخير فترتي تجلد شديدتين قبل أن يفهم أنه إذا أراد أن يبقى حيا فمن الأفضل له أن يكتشف النار وأن يبني كوخا. استفاد الإنسان المنتصب قبل 120000 عام من دفء مناخي ملحوظ لكنه للأسف لم يستغرق سوى عشرات الآلاف من السنين. كانت الحرارة في روسيا الوسطى حينها تزيد أحيانا بـ 10 درجات على الحرارة الحالية.

لا يفتأ المناخ الأرضي يتقلب بين حار وبارد منذ 4,5 مليارات سنة دون أن يوفق في الثبات بشكل نهائي على الجانب المعتدل. فقد تلت فترات جليدية اتسمت ببرودة واضحة على الكرة الأرضية لحظات باذخة كانت فيها فصول الصيف والشتاء اللطيفة

تفوق بـ 9 درجات الحرارة الحالية، إلا أن فترة تجلد شديدة ثالثة جعلت الإنسان المنتصب يترك المكان قبل حوالي 100000 عام لذلك المتوحش ذي الجبهة المنخفضة إنسان نياندرتال Néanderthal. لم يكترث هذا الإنسان بالبرد أو الثلج إذ تغطى بجلود الحيوانات وذرع دون توقف سهوب سيبيريا الأوروبية، وكان قد بدأ حينها بدفن أمواته. وعاش الإنسان الذكيHomo Sapiens قبل حوالي 35000 عام فاتخم نفسه من الرنة والدببة والمواميث الصوفية ومن الأرويان(2). لكنه عانى – كثيرا – بين 21000 و18000 سنة خلت من برد قاس. فقد غطى نصف الكرة الشمالي 50 مليون متر مكعب من الجليد، وانخفضت الحرارة من 4 إلى 6 درجات. فبدا شمال فرنسا وكأنه سيبيريا. انسحب الإنسان الكرومانيولي إلى مغارته مكرسا وقته للفن، فاخترع إبرة الخياطة. وقبل 10000 سنة عاد الطقس صحوا ثابتا، وعادت الرنة إلى الشمال واختفت المواميث من سيبيريا فاضطر الإنسان الأول الذي حرم من لقمة عيشه إلى ممارسة الزراعة، فبدأ بزراعة القمح والشعير بهدوء بسبب ارتباطه المتدرج بالمناخ.

يتابع ميزان الحرارة لعبة اليويو(3). فتتناوب حقب باردة مع أخرى مشمسة. فقد كانت هناك قبل 5000 عام بحيرات براقة تغطي الصحراء الكبرى. وفيما بين عام 500 قبل الميلاد والعام 0 كان اليونانيون يزينون لأنفسهم مايجري على الرغم من رداءته. أما العصر الروماني فقد اتسم بتقدم واضح للجليد في جبال الألب. وفيما بين عامي 900 و1200 اغتنم الفايكينغ تراجع جليد القطب الشمالي للوصول إلى إيسلندا وغرينلندا والشواطىء الأمريكية. ثم ارتجف الناس في أكواخهم فيما بين 1500 و1850. لقد هاجروا وماتوا واكتشفوا ملذات دوران الأرض. وأخيرا ودون تردد فالقرن العشرون حار مؤكدا.

إن التركيب الكيميائي وكثافة الجو المحيط وتغيرات شدة الأشعة الشمسية والتفاعلات بين الجو والمحيطات وحركة التيارات وحركات الصفائح التكتونية... كلها صالحة لكي نحاول تفسير هذه الاضطرابات المناخية القاسية والمذهلة. وهذا تدريب يزداد صعوبة لاسيما أنه في قلب عهد جليدي يمكن أن نميز عدة دورات تحتية أكثر حرارة تتناوب مع حدود قصوى للتجلد. وعلى حين كان الباحثون في السبعينات يحيطون أولا بأول بالتسلسل التاريخي للدورات الجليدية والبيجليدية Interglaciaire فإنهم قد فهموا أن النظرية التي قدمها ميلوتان ميلانكوفيتش M.Milankovitch في عام 1941 والتي أحياها في نهاية الستينات البلجيكي أندريه بيرجيه A.Berger، تتفق أكثر فأكثر مع نتائجهم.

إن التفسير الذي طرحه المهندس الصربي (محصور في خطوط العرض القريبة من القطب في نصف الكرة الشمالي الذي يفترض أن يكون حساسا أكثر للتقلبات المناخية)، هو

الفصول الأربعة



إن سبب تواتر الفصول واختلاف طول الليل والنهار هو أن محور دوران الأرض ليس عموديا على مستوى دائرة البروج ولأن اتجاهه يبقى خلال العام الواحد ثابتا. في اعتدالات مارس – أذار، وسبتمبر – أيلول – التي تحدد بداية الربيع وبداية الخريف في نصف الكرة الشمالي – تتواجد الشمس تماما في مستوى خط الاستواء. أما في الانقلابات في يونيو – حزيران، وديسمبر – كانون الأول فتمر وعلى التوالي في سمت رأس مدار السرطان والجدي.

على مايبدو بسيط جدا، ترافقت العهود الجليدية مع حقب كانت فصول الصيف خلالها في خطوط العرض العليا باردة بشكل كاف لمنع ذوبان الثلج المتراكم خلال الشتاء. أما المنطقة الجليدية القطبية وبفضل قوتها العاكسة فقد أعادت الإشعاعات الشمسية لتدفئ ساكني المريخ. ويكبر الغطاء الجليدي عاما بعد عام فتنخفض الحرارة على الأرض التي حرمت من الطاقة الشمسية. وهذا مايجب إثباته.

لكن كيف يمكن أن تكون هناك فصول صيف حارة وأخرى باردة؟ يحصل ذلك بتغيير التشميس، أي كمية الطاقة التي تتلقاها الأرض من الشمس. فبقدر ما يكون نصف الكرة الشمالي قريبا من الشمس بقدر ما يكون الطقس حارا. وبقدر ما يكون بعيدا عنها بقدر ما يكون باردا. كلام منطقي. يبقى أن نحدد لماذا قد تتواجد الأرض تارة قريبا من الشمس وتارة أخرى بعيدا عنها. وجد ميلوتان ميلانكوفيتش قصة قاتمة جمع فيها بين مبادرة الاعتدالين الفلكية وميل وتغير الانحراف المركزي لمدار الأرض.

تدور الأرض حول نفسها وفق محور غير عمودي البتة: فهو يميل بـ َ27 23^{0} بالنسبة لشاقول مستوى المدار الأرضي الذي نسميه فلك البروج Ecliptique. لهذا الميل فائدته، فنحن مدينون له بالفصول. إذ إنه في الواقع لو كان المحور عموديا تماما على مستوى فلك البروج لتقاسم نصفا الكرة الشمالي والجنوبي بالتساوي أشعة الشمس على طول السنة دون أن يكون لهذا أو لذاك أي اختلاف فصلي. وبحسب ميل المحور الذي

يبقى ثابتا ولا يغير من اتجاهه خلال السنة الواحدة لا يتلقى نصفا الكرة الأشعة الشمسية وفق الاتجاه نفسه على مر الأشهر. فحينا يتوجه القطب الشمالي نحو الشمس وحينا آخر نحو القطب الجنوبي.

إن نصفي الكرة غير منارين بالزاوية نفسها وخلال الوقت نفسه إلا مرتين في العام، عندما تسقط أشعة الشمس تماما فوق خط الاستواء أثناء الاعتدالين. يؤذن الاعتدال الربيعي ببداية هذا الفصل في نصف الكرة الشمالي على حين يتم تحضير الألبسة الصوفية في نصف الكرة الجنوبي. ثم يحصل الانقلاب الصيفي عندما تصبح الشمس في سمت رأس مدار السرطان. وتبدأ الأيام في شمالي خط الاستواء بالقصر قليلا قليلا بينما يتقدم الجنوب شيئا فشيئا نحو الشمس. وعندما تصبح الشمس في سمت رأس مدار الجدي يكون الطقس صيفيا في أمريكا الجنوبية ويحصل عندها الانقلاب الشتوي. يختبأ حينها سكان الشمال من قسوة الشتاء.

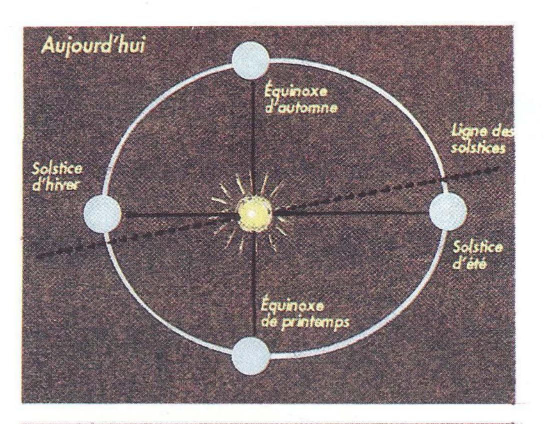
ترسم الأرض حاليا حول الشمس مدارا أهليلجيا. فخلال السنة التي تستغرقها الأرض لإتمام دورة القطع الأهليلجي تتغير مسافتها عن الشمس من 147,1 مليون كم كحد أدنى (الحضيض) إلى 152,1 مليون كم كحد أقصى (الأوج). وبعكس مانعتقد تمر الأرض بأقرب نقطة إلى الشمس في خطوط عرضنا في بداية الشتاء (حوالي 4 يناير – كانون الثاني) وبأبعد نقطة في بداية الصيف (4 يوليو – تموز). وهذا مايضمن لنا فصول شتاء لطيفة ومشمسة.

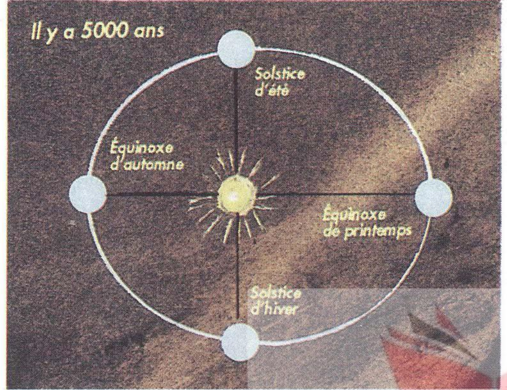
لنفترض أن شكل المدار الأرضي لا يتغير مع الزمن. ولنفترض أن ميل محور دوران الأرض وخصوصا اتجاهه (الذي يتجه حاليا صوب نجم القطب) يبقى أيضا ثابتا. يمكننا عند ذلك أن نعلّم بأربع إشارات النقاط الأربع التي توجد فيها الأرض في لحظات الاعتدالات والانقلابات. وكلنا ثقة بأننا سنجدها تماما في الأمكنة نفسها وفي اللحظات نفسها خلال البضعة مليارات من السنين التي بقيت من عمرها. وستبقى الأرض دائما في أقرب نقطة من الشمس في 4 يناير وفي أبعد نقطة في 4 يوليو. جميل أكثر مما يجب.

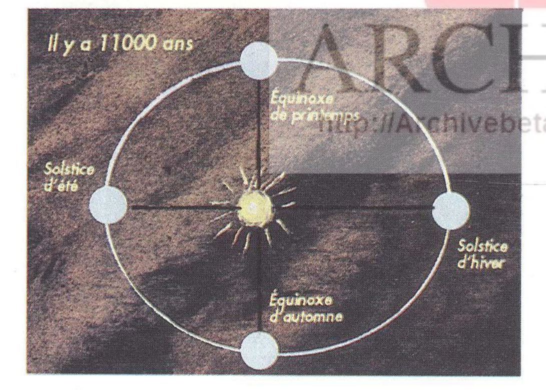
لكن الأمر فضائيا معقد للغاية. فمحور دوران الأرض لا ينظر باستمرار في الاتجاه نفسه. فقبل 5000 عام كان يصوب نحو مجموعة التنين. وبعد 5000 عام سيصوب نحو ألفا قيغاوس. وعلى مر السنين يدور محور الأرض حول شاقول مستوى فلك البروج كما تفعل مؤخرة دوامة في نهاية شوطها، ويستغرق 26000 سنة ليعود إلى اتجاهه الأولي. هذه هي ظاهرة مبادرة الاعتدالين الفلكية. في الآن نفسه يغير النقاط التي كانت الاعتدالات والانقلابات تحصل فيها. فمثلا عندما سيتجه المحور بعد 13000 سنة باتجاه يعاكس قطريا اتجاهه اليوم فإن الاعتدال الربيعي والخريفي وكذلك الانقلابات ستعكس أماكنها على المدار الأرضي. سيحدث الاعتدال الخريفي عندما

مبادرة الاعتدالين

يدور محور الأرض في الواقع حول العمود على مستوى دائرة البروج في 26000 سنة... كما تدور دوامة في نهاية شوطها. وحركة المبادرة هذه - الناتجة عن الجذب المشترك للقمر والشمس على الشريط الاستوائي الأرضي - تسبب في الآن نفسه انتقالا بطيئا ولكنه محتم لمواقع الاعتدالين والانقلابين على المدار الأرضي. ففي ظرف 11000 عام تبادلت انقلابات الصيف والشتاء (الشيء ذاته بالنسبة للاعتدالات) أمكنتها «بالنسبة للشمس». أما كون المدار الأرضي غير دائري تماما ولكن أهليجي فيؤثر في طول الفصول.







تحضر الأرض نصف كرتها الشمالي للربيع والعكس بالعكس. وإذا دار على مداره ربع دورة فإن الاعتدال الخريفي سيحصل في المكان الذي كان الانقلاب الشتوي يحصل فيه.

لنبق في حالة أن المدار لا يتبدل شعرة واحدة فإن الأرض ستجد نفسها قريبة من الشمس بالتناوب في الشتاء وفي الخريف وفي الربيع وفي الصيف. وذلك تبعا لاتجاه محورها. فقبل 11000 سنة مثلا كانت بعيدة كثيرا عنها في ديسمبر - كانون الأول. وكان الصيف حارا بشكل غير مألوف لدرجة تكفي لإذابة جليد فصول الشتاء. كانت الأرض حينها في غمرة الانحسار الجليدي الأخير.

لكن شكل المدار الأرضي يتغير. وبقدر ما يزداد الانحراف المركزي (أقصى حد هو تقريبا 0,06 بالنسبة لقيمة تجاوز الـ 0 عندما يكون شكل المدار قريبا من الدائرة)، بقدر ما يكون الفارق الكيلو متري بين الحضيض والأوج كبيرا. وبزيادة تباين التشميس أيضا: ستعقب فصول صيف حارقة فصول شتاء قطبية أو على العكس

فصول صيف قارسة وفصول شتاء لطيفة.

وليست هذه هي النهاية: إذ يمكن أن يتغير ميل المحور زيادة أو نقصانا بمقدار 130 كل 41000 عام، وتتغير درجة التشميس وكمية الحرارة اللتان يتلقاهما أحد نصفي الكرة تبعاً لقيمة هذه الزاوية وبمقدار كبير: فبقدر ما تكون كبيرة بقدر ما تكون الأرض مائلة نحو الشمس وتصبح كمية الحرارة التي تتلقاها أكبر.

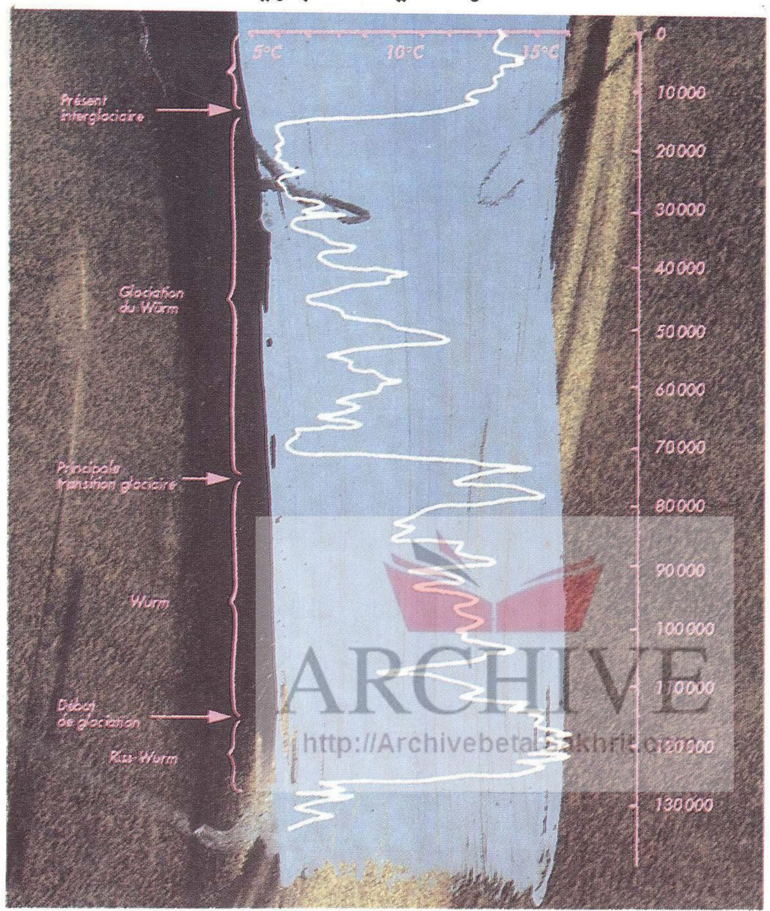
لكي نحسب تشميس الأرض في لحظة معينة ولفصل معين يجب الأخذ بعين الاعتبار وبالترتيب: مبادرة الاعتدالين: أي موقع الاعتدالين والانقلابين على المدار، الانحراف المركزي للمدار: أي موقع الأوج والحضيض، ميل المحور أو انحرافه. كل هذه الظواهر دورية: دور تبدل الانحراف المركزي مثلا هو 100000 سنة ودور تغير ميل المحور هو 41000 سنة. ونظريا فإن دور مبادرة الاعتدالين هو 26000 سنة. وفي الواقع إن نزوة أخرى للمدار الأرضي الذي في دورانه يتجه باتجاه النجوم البعيدة تجعل هذه الظاهرة تضطرب أيضا. إذ تقسم مبادرة الاعتدالين إلى دورتين: الأولى كبرى دورتها 23000 سنة والأخرى ذات دور يعادل 19000 سنة. هنا يصبح التشميس في خطوط العرض القريبة من القطب في نصف الكرة الشمالي خلال الملايين الأخيرة من السنين أمرا سهلا.

وعليه فقبل 135000 سنة كان الانحراف المركزي 0,04، وميل المحور أكثر بقليل مما هو عليه اليوم. كانت الأرض حينها تمر أقرب إلى الشمس في فصل الصيف وهذا ماكان يجعل التشميس أعلى مما نعرفه اليوم بـ 13٪. لقد كان الطقس صافيا وحارا في بداية هذه الحقبة البيجليدية المسماة إيمين Eemien. وقبلها بـ 15 ألف عام كانت الأرض تقترب من الشمس في الشتاء وكان الانحراف المركزي لمحورها 22° 14´ فكانت درجة التشميس أقل بـ 9٪ من الحالية. لقد كان الهواء باردا للغاية.

بعد عدة حملات وتحاليل لعينات جيولوجية أخذت من رسوبيات بحرية ومن جليد القطب تنبه الباحثون إلى أن الدورات والدورات التحتية الجليدية كانت دورية. وإجمالا كان يحدث شيء ما - تسخين أو تبريد - كل 18000 سنة، 25000 سنة، 41000 سنة وبشكل خاص كل 100000 سنة. وهذا يتفق بشكل عجيب مع أدوار مبادرة الاعتدالين وتغير زاوية الدوران، والانحراف المركزي.

وبعد 50 عاما من التأخير، اعترف علماء الطقس جميعا بصحة نظرية ميلانكوفيتش. إلا أنه من المؤكد أن هناك بعض المشاكل التي يجب تذليلها. فمثلا كيف أثرت العهود الجليدية في نصفي الكرة الشمالي والجنوبي في الآن نفسه؟ فالعالم كله يعلم أنه عندما يكون الطقس باردا في الجنوب يكون حارا في الشمال والعكس بالعكس. وحسب أندريه بيرجيه A.Berger «كان الطقس على مايبدو

مذكرات عينة اختبارية



يشير تحليل أحافير المنحزبات المأخوذة من عينة من موقع بدرجة عرض 53 درجة شمالا و22 درجة شرقا إلى أن حرارة مياه سطح الأطلسي الشمالية قد تغيرت ببطء خلال العصر الجيولوجي الرابع وفق تواتر الحقب الجليدية.

يتغير أولا في نصف الكرة الجنوبي. لكن بما أن هذا النصف مؤلف في غالبيته من الماء فإن التبدل يكون بطيئا جدا. وعندما تلقى نصف الكرة الشمالي إشارة التشميس التي تنبىء ببداية البرد استجاب سريعا بسبب الكتل القارية. فبدأ على عجل بصنع المناطق القطبية منتهيا بفرض مناخه على الجنوب. ولا نعرف جيدا لماذا بالوضع الراهن للأبحاث».

تتفق النماذج المناخية التي أعيد تشكيلها حتى الآن انطلاقا من قياسات للحرارات المحيطية القديمة مع النظرية الفلكية وخصوصا فيما يتعلق بالمليون سنة الأخيرة. وفي أحد الأيام خطرت لمجموعة باحثين أمريكيين يديرهم إسحق وينوغراد I.J.Winograd، من المسح الجيولوجي، فكرة أن يحللوا تغيرات تركيز الأوكسجين 0^{18} أحد نظائر الأوكسجين(5) في عينة بطول 36 سم

أخذت من عرق كربونات الكالسيوم المتبلورة Calcite في ديفيلس هول Devils Hole في نيفادا، وهي منطقة متصدعة تتصل مع طبقة مياه جوفية كبيرة. كانت كربونات الكالسيوم الناتجة عن حاويات الماء المشبعة وبإفراط خلال 500000 عام تقوم بالترسيب وبشكل مستمر. دقق الباحثون نتائجهم وأعادوا تدقيقها قبل إعلان النبأ المرعب: فمدة العهود الأربعة الأخيرة كما حسبوها كثيرة التقلب إذ تتغير من 80000 سنة إلى 30000 سنة (بدلا من 100000 سنة) بل وحتى أسوأ من ذلك فتواريخ بداية الدفء والبرودة التي وجدوها لا تنطبق مع التسلسل الزمني «الرسمي». آخ.

إن أصحاب هذا العمل العلمي التخريبي بنتيجة تحاليلهم يقترحون وبكل بساطة الطلاق من المهندس الصربي ومن نظريته فيتخلصون من مهمة إيجاد تفسير آخر للاضطرابات المناخية الأرضية. وسوف تنهار نظرية ميلانكوفيتش كقصر من ورق لأن تتابع العهود الجليدية/ البيجليدية ليس دوريا تماما.

ويندد أندريه بيرجيه : «كيف يمكن لقياس محلي أن يقوض أو يكذب نظرية كوكبية؟.. إذا نظرنا إلى تطور الحرارة خلال المئة سنة الأخيرة نلاحظ زيادة في كل مكان إلا في قيننا. تخيلوا النتيجة التي سيصل إليها الباحثون الذين لم يقيسوا الحرارة إلا في هذه البقعة. ومادام أحد لم يثبت لي أن فريق وينوغراد قد اكتشف ظاهرة كوكبية فإن ذلك لن يشغلني أبدا. بل يبقى ذلك بالنسبة لي ظاهرة محلية»

انتظر وانظر.... بانتظار انقلاب مفترض في العالم المصغر لعلماء الطقس فإن لنظرية ميلانكوفيتش ميزات لا تقبل الجدل. فهي تتيح التنبؤ بتغيرات الطقس على المدى القريب والبعيد. وعلى الرغم مما يظهر – المناخ الحالي معتدل نسبيا – فإن الأرض بدأت تبرد منذ 6000 سنة. وسيتابع ميزان الحرارة انخفاضه خلال الخمسة آلاف سنة القادمة ثم سيكرم المناخ فيسخن ثانية. هذا إذا حصل كل شيء على مايرام.. إذ إن أحدا لا يمكنه أن يتكهن بالآثار التي يمكن أن تخلفها الكميات الهائلة في الـ CO_2 الناتجة عن نشاط الإنسان والمطروحة في الجو على المناخ. ولكن تلك قصة أخرى.

الهوامش

1 – أشجار الجاكا : هي أشجار الخبز – المترجم

2 – الأرويان : نوع من الماعز البري – المترجم

3 – لعبة اليويو : لعبة من أصل صيني مؤلفة من قرص خشبي مفرغ من وسطه يصعد وينزل على خيط معلق في محوره – المترجم.

4 – أندريه بيرجيه : أستاذ في المعهد الفلكي والجيوفيزيائي في الجامعة الكاثوليكية في لوفان.

5– كمية نظير الأوكسجين O^{16} و O^{18} المحتواة في المياه الحلوة والبحرية تختلف كثيرا تبعا للطقس. على وجه التقريب بقدر ما يكون الطقس باردا بقدر ما يكون ماء البحر غنيا بالـ O^{18} لأن الجليد لا يثبت هذا النظير الذي يذهب ليتجمع في المحيط.

قوى الشيخوخة

إن الشيخوخة موضوع بحث تزداد أهميته باستمرار، وبالأخص في البلاد المتطورة حيث ارتفع بشدة معدل العمر وحيث يهتم الباحثون بالآثار النفسية للشيخوخة. ويتفق الباحثون كلهم على تأثير العمر في سرعة ردود الفعل وفي عمل الذاكرة. ومع ذلك يبدو أن ما يُفقد حتى سن السبعين في السرعة أو الفهم يعوض جزئيا من خلال استراتيجيات ترتكز على التجربة أو التحفيز. فقد شوهد متدربون على عزف آلة الكمان يتجاوزون الستين من العمر ومع ذلك يتفوقون على زملائهم اليافعين.

تأليف : جليان كوهين*

ترجمة : أديب ديب الخوري

يشكل تعيين وفهم التغيرات النفسية التي تطرأ خلال الشيخوخة، مسألة ذات أهمية فائقة في البلاد المتطورة حيث أدى تزايد معدل العمر وتناقص معدل الولادات إلى ازدياد سريع في نسبة الأشخاص المسنين. كانت نسبة الأمريكيين الذين تزيد أعمارهم على الخامسة والتسعين تشكل 4٪ في عام 1990 ووصلت إلى 11٪ في عام 1980 ويقدر لها أن تتجاوز 13٪ في نهاية القرن. ويمكن ملاحظة الوضع نفسه في أوروبا. إن شيخوخة السكان تثير العديد من المشكلات العملية والتي يمر حلها عبر معرفة دقيقة بتحولات القدرات الذهنية والوظائف الإدراكية عند المسنين.

ويمكن لهذه المعرفة أن تُستخدم من أجل تحديد سن التقاعد لرجال السياسة والقضاة والجامعيين والأطباء، وكل من تتطلب وظائفهم سلامة تامة للذاكرة والمنطق. كذلك فإن آثار الشيخوخة مهمة أيضا من منظور نظري، فكل نمذجة لمنظومة يجب أن تتمكن من أخذ عدم انتظام وظائفها بالحسبان. وكذلك فإن على كل نموذج نظري للمنظومة الإدراكية أن

العنوان الأصلي للمقال :

Les Forces De La Vieillesse. La Recherche, 257, September 1993, Volume 24

مراجعة : د. عدنان الحموي

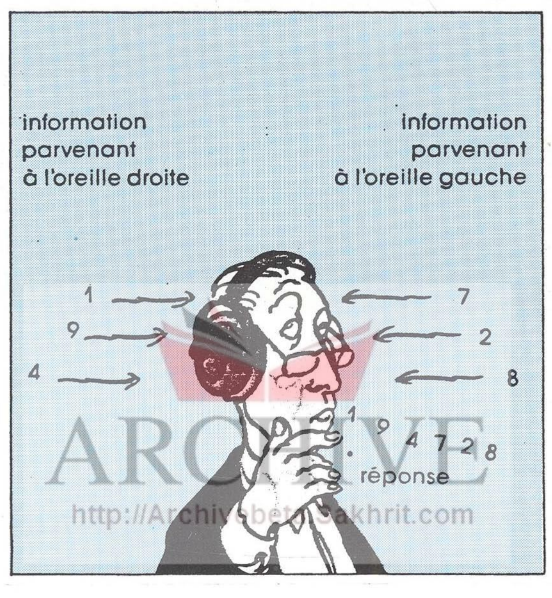
*(G. كوهين) تُدرِّس علم النفس في مخبر أبحاث الإدراك الإنساني في جامعة أوين في (بريطانيا). وتتركز بحوثها الحالية على الشيخوخة والذاكرة.

يتمكن من استيعاب التغيرات المرتبطة بشيخوختها أو باختلالات خضعت لها.

بعد مدخل موجز حول الآثار المميّزة للتقدم في العمر سأقدم ثلاثة نماذج نظرية للشيخوخة، ثم سأتفحص آثار الشيخوخة في النشاطات اليومية.

لا يرتبط التراجع النفسي بالضرورة عند إنسان مسن بعمره. فثمة عوامل وراثية وبيئية، إضافة إلى الصحة الجسدية والذكاء ونمط الحياة، تتداخل مع العمر الزمني وتحدد مدى احتفاظ الشخص بقدراته الذهنية. ووسطيا، لا تتأثر هذه القدرات إلا بقدر ضئيل حتى سن السبعين، ويتسارع تراجعها بعد ذلك. غير أن آثار التقدم في السن تختلف كثيرا من شخص لآخر، ولا يبدي نحو 10٪ من الأفراد أية علامة تأثر حتى سن متقدم للغاية. ومن أجل فهم هذه الاختلافات يجب التمييز بين الشيخوخة الزمنية والعضوية (الفيزيولوجية) والنفسية (أو الإدراكية) والتي على الرغم من ارتباطها لا تتطور بالضرورة وفق إيقاع واحد.

ترتبط الشيخوخة النفسية بالصحة الجسدية للفرد أكثر من ارتباطها بالعمر، فشخص في الخامسة والستين من عمره يعاني من سوء صحته يمكن أن يُبدي دلائل تراجع ذهني أكثر مما يبديه شخص يتمتع بصحة جيدة في الثمانين من عمره. وبشكل خاص، فإن الأمراض القلبية – الرئوية والدماغية – الوعائية تضعف الوظيفة الإدراكية. وكما أثبت الباحثون الكنديون من جامعة فيكتوريا، (D. هلتش) و(M. همر) و(B. سمول)، فإن آثار التقدم في السن تكون ضعيفة نسبيا عندما تُفصل عن آثار الوضع الصحي العام. كما بين هؤلاء الباحثون أن انخفاض الخصائص الإدراكية بسبب الشيخوخة يكون أقل بكثير عند الأفراد الذين يمارسون بشكل منتظم نشاطات كالبريدج أو حل الكلمات المتقاطعة أو الذين يعزفون على آلة موسيقية. ومع ذلك،



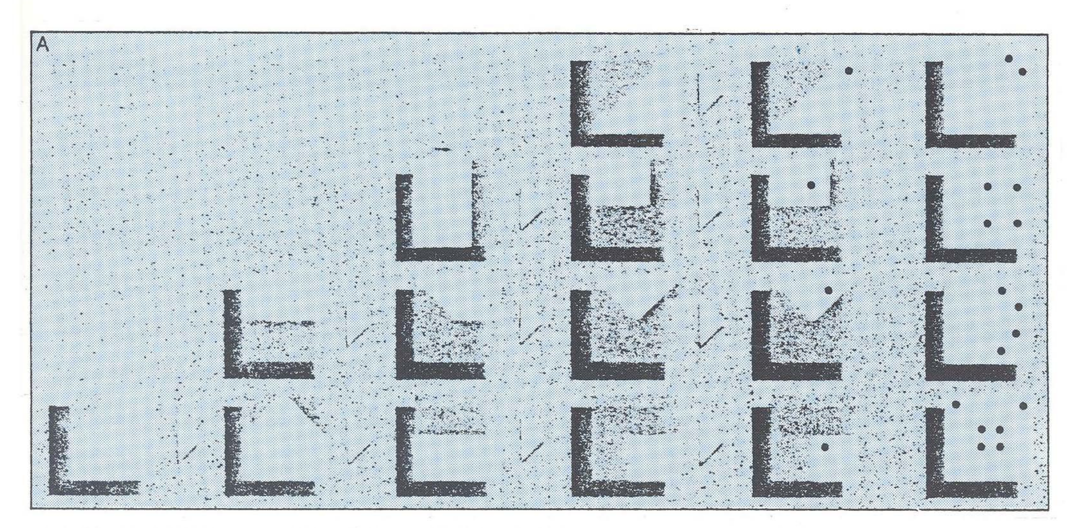
يختبر علماء النفس حدود المنظومة الإدراكية عن طريق الطلب إلى الأشخاص من المختبرين تنفيذ نشاطين أو ثلاثة في آن واحد. وهكذايطلبون مثلا من أحد هؤلاء الأشخاص أن يوزع انتباهه بين سلسلة أرقام تصله عن طريق أذنه اليمنى، وسلسلة أخرى تصله عن طريق أذنه اليسرى، ثم أن يعيد جميع الأرقام التي سمعها. وكانت النتيجة أنه من الأسهل على المختبرين المسنين تذكر الأرقام التي سمعوها بأذن واحدة ثم التي سمعوها بالأخرى. ومن الصعب جدا عليهم إعادة الأرقام وفق ورودها المتتالي إلى أذن وأخرى.

فثمة عوامل أخرى عديدة (سوء التغذية، الاكتئاب، الحداد، الوحدة) غالبا ما تكون مرتبطة بالشيخوخة، يمكن أن تفسد الوظيفة الإدراكية. وينتج عن ذلك أن التأثير الصافي للشيخوخة الزمنية «البحتة» يبدو مهملا إذا ما عزلناه عن العوامل الأخرى المرتبطة به.

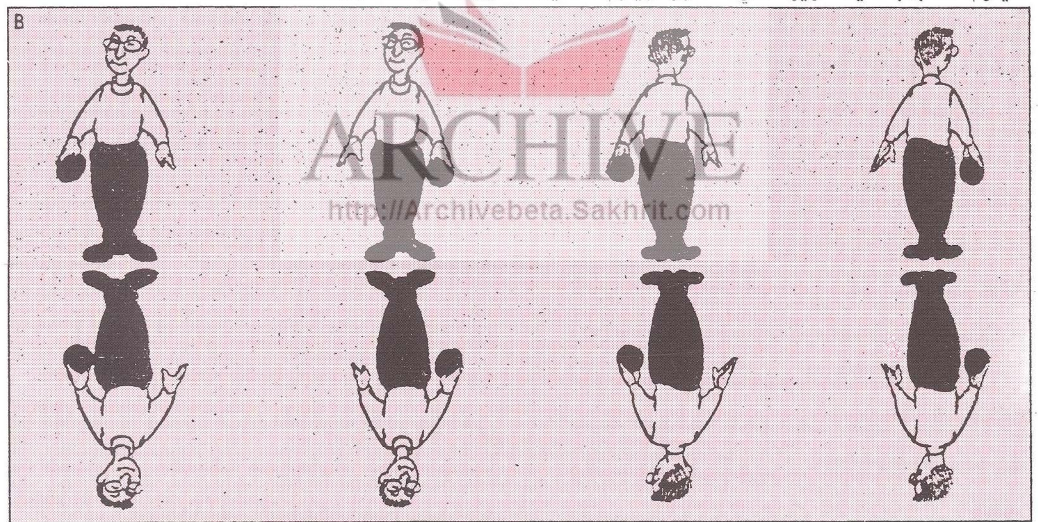
ولفترة طويلة، هيمنت على الأبحاث المتعلقة بالشيخوخة فكرة حدوث تراجع عام . وقد انطلقت هذه الأبحاث من فرضية أن القدرات الذهنية تتقدم وتتبلور بين العشرين والثلاثين من العمر، وأنها تتراجع بالضرورة بعد ذلك. ولقد استعيض عن هذه الفكرة التقريبية جدا بتصور جديد للشيخوخة أكثر تمايزا، ووفق هذا التصور تحتفظ بعض القدرات بقوتها وتتراجع أخرى، على حين يستمر غيرها بالتطور. هذا وإن التغيرات التي تطرأ على الفرد المتقدم في السن تنتج عن عوامل عديدة ومختلفة، تقاس بمستوى الذكاء وبالإرث الموروثي (الجيني) لهذا الفرد بقدر ما تقاس بسيرته الذاتية وبخبراته.

إن الإدراك البشري بالنسبة لعدد كبير من علماء النفس هو بشكل أساسي معالجة معلومات، وكذلك فإن المنظومة الإدراكية هي مسار من سلسلة مراحل أو أجزاء منها (شكل 1).وتبعا لهذا النموذج، الذي أعده عام 1958 (D. برودبنت) من جامعة أوكسفورد، فإن الإدراك هو السيرورة التي تسمح لنا باكتساب معلومات تأتينا من العالم الخارجي. وإن انتباهنا المحدود يثار من خلال العمليات الجارية. أما بالنسبة للذاكرة فهي تخزن لوقت قصير المعلومات الواردة حديثا، كما تخزن لأجل طويل المعارف المحصلة سابقا. ويتم التفكير والمحاكمة العقلية انطلاقاً من معلومات ماثلة في الحالة الواعية، وتكون محصلة ذلك إنتاج إجابة على شكل رد فعل كلامي أو سلوكي. ولا شك أن هذا النموذج للإدراك البشري بسيط جدا إذ إنه يفترض جريانا تعاقبيا وخطيا في معالجة المعلومة غير آخذ بعين الاعتبار تأثير معاملات كالعواطف والنيات والمعتقدات عند الفرد. ومع ذلك فهو يوضح أسلوب عمل الباحثين الذين يدرسون الشيخوخة على طريقة المرصصين، متفحصين مختلف أجزاء المنظومة قبل تعرّف مركباتها المعيبة، وعازلين منها البنى أو السيرورات المتأثرة بالعمر.

يؤثر أي تحول في سيرورات الإحساس بعمليات على سوية أعلى، مثل الفهم أو المنطق. وهكذا فإن حدة البصر تخف مع تقدم العمر ويتقلص حقل الرؤية ويفقد الإحساس بالفضاء ورؤية الألوان دقتيهما وتصبح قدرة العين أبطأ وأقل فعالية في التآلف مع تغيرات الإضاءة. أما فيما يتعلق بالسمع فإنه يواجه انخفاضا تدريجيا في حساسيته للتوترات العالية. وهناك أيضا انخفاض في سرعة معالجة المعلومات بحيث يتطلب الأمر وقتا أطول لتعرف المنبهات السمعية والبصرية. وتؤثر هذه التراجعات للإدراك الحسي في المعلومات المتلقاة أثناء القراءة أو أثناء طبع نص على آلة كاتبة أو الإصغاء لحديث أو قيادة السيارة. والحال أن عمليات السوية الأعلى مثل الفهم واتخاذ القرار تتأثر بذلك بطريقتين. أولا، لأن المعلومات التي تعاني التشوه أحيانا تصل ببطء، ثم لأن الإدراك بقدر ما يتطلب المزيد من الجهد



تكشف روائز (اختبارات) الكفاءة المكانية عموما عن انخفاض في النتائج مع التقدم في العمر. وفي اختبار طي الأوراق يواجه المختبر سلسلة من الرسوم تمثل أشكالا متعددة لطي ورقة مربعة الشكل ولثقب الأوراق المطوية بهذا الشكل. ويكون على المختبر أن يقرر فيما إذ كانت وضعية الثقوب البادية على اليمين (A) تنتج فعلا عن الطيات المتتابعة وعن موضع الثقب. وفي اختبار آخر (B) يطلب من المختبرين أن يعينوا فيما إذا كان الشخص المصور يحمل الكرة في يده اليمنى أو اليسرى. ويتعلق التحويل الأكثر صعوبة بالشخص المصور في أسفل اليمين. وفي الحقيقة، تتطلب المهمة أن يقوم المختبر بعملية تدوير ذهني للصورة ويلزم المسنين لتحقيق ذلك وقت أطول.



يمتص قدرا متزايدا من تنبه المنظومة مما يترك قدرا أقل لعمليات السوية الأعلى. لقد اختبر العلماء حدود ذلك التأثير طالبين إلى أشخاص مسنين القيام بمهمتين أو ثلاث مهام في آن واحد، تمثل أعمالا جديدة أو صعبة تتطلب انتباها أكبر من طاقتهم الكامنة المحدودة. وهم يطلبون إليهم، على سبيل المثال توزيع انتباههم بين قائمة كلمات أو أرقام تصل إلى الأذن اليمنى، وأخرى تصل في آن واحد إلى الأذن اليسرى (شكل2). ويواجه الأشخاص المسنون صعوبات متزايدة في هذه المهمة كما لو أن قدرتهم (الكامنة) على الانتباه تنفد مع تقدم العمر.

ويميز علماء النفس بالنسبة لمرحلة

الذاكرة بين منظومة ذاكرة قصيرة الأجل تسمى أحيانا «ذاكرة العمل» ومنظومة طويلة الأجل. إن ذاكرة العمل هي أيضا ذاكرة محدودة وترتبط بمضمون الوعي في لحظة معينة. وهي تتلقى المعلومات من العالم الخارجي بوساطة الحواس، ومن الذاكرة طويلة الأجل. وهكذا يرتكز حساب قيمة حفنة من القطع النقدية على تحليل الصفات الفيزيائية للقطع، وفي الوقت نفسه على تذكر قواعد الحساب العددى المناسبة والمخزونة في الذاكرة طويلة الأجل. إن عمليات التفكير والتحليل والحساب والتقدير والفهم تجري في ذاكرة العمل التي تقاس قدرتها المثلى باختبارات تتكون من تقديم سلاسل من الأرقام إلى الشخص المُختبر طالبين إليه في كل مرة تكرار أكثر ما يمكن منها بشكل مرتب. وتتراجع النتائج مع تقدم العمر فيتذكر الشبان بين العشرين والثلاثين سنة ما بين 6 إلى 7 أرقام على حين لا يتذكر الأشخاص الذين يقاربون السبعين من العمر سوى 5,5 أرقام وسطيا. وفي اختبار أكثر حساسية طلب (A. وينجفيلد) من جامعة براندايز إلى الأشخاص الخاضعين للاختبار الاستماع إلى السلسلة من الجمل قبل أن يقرروا فيما إذا كانت صحيحة أم لا، ثم طلب إليهم في نهاية الاختبار تذكر الكلمة الأخيرة من كل جملة. وقد استطاع الشبان تذكر الكلمات الأخيرة في أربع جمل على حين لم يتذكر المسنون سوى نحو 2,2 كلمة. إن هذه العملية صعبة على المسنين فهي تتجاوز القدرة المحدودة لذاكرة العمل لديهم. ومن جهة أخرى يمكن أن يمنعهم بطؤهم الشديد في معالجة المعلومات من متابعة إيقاع مصدر القراءة.

تظهر دراسات تُجرى على الذاكرة طويلة الأجل أن بعض المظاهر تتراجع مع الشيخوخة على حين تبقى أخرى سليمة. فالأشخاص المسنون يحفظون بشكل جيد المعارف العامة ويتذكرون المعارف المتخصصة والمفردات، لكنهم يتذكرون بشكل أقل جودة تجاربهم الشخصية. ومع ذلك تزعم الحكمة الشعبية أن الذكريات البعيدة تكون محفوظة بشكل جيد في حين تكون الذكريات الحديثة واهية. إن هذا التعميم يصح في حالة مرض العته الشيخوخي Alzheimez وفي أشكال أخرى من العته، لكنه لا يصح في حالة الشيخوخة الطبيعية. وفي تجربة قمت بها مع (D. فولكنر) طلبت إلى عدة مجموعات من الأشخاص تتراوح أعمارهم بين 25 و85 سنة أن يصفوا أحداثا جرت خلال فترات مختلفة من حياتهم، وكان استرجاع كل حادثة يتطلب أن يُقيّم من ناحية أهمية الحادثة والشحنة العاطفية التي تحويها ومدى تذكرها. فكان على الأشخاص المختبرين أن يسجلوا عدد المرات التي تم فيها استحضار الحدث المعني وكان موضوعاً للحديث مع أشخاص آخرين. وتظهر النتائج أن الأشخاص المسنين لا يملكون ذكريات دقيقة عن أحداث من الماضي البعيد إلا عندما تكون هذه الأحداث ذات أهمية شخصية خاصة وعندما يكونون قد استذكروها بكثرة على مدى السنوات. وعندما يطلب إليهم تذكّر أحداث عن العالم أو البرامج التلفزيونية فإن

المسنين يتذكرون أحداثا قريبة بسهولة أكثر من تذكر الأحداث الماضية. إن المسائل المتعلقة بالعمر ترتبط أساسا باستدعاء الذكريات والأسماء والأحداث التي لا يتوصل المرء دائما لبعثها، وليس الممحية فعلاً من الذاكرة طويلة الأجل، لأنه يكفي أن يستحضرها أحد ما حتى يتم تذكرها على الفور. وهكذا يمكن أن يغيب اسم عاصمة النرويج من الذاكرة في لحظة ما لكن يتم تعرفه بشكل صحيح ضمن سجل يحوي أسماء مدن عدة.

تشمل التراجعات في فاعلية الذاكرة المنطق وفهم اللغة. إن فهم اللغة المحكية يتطلب معالجة سريعة للمعطيات ومزامنة مع سرعة المتكلم. وهكذا يكون على ذاكرة العمل أن تحتفظ آنيا بصدر الجملة لمطابقتها مع نهايتها.وعلى الرغم من بقاء المعارف اللغوية سليمة، فإن تأثير العمر في سرعة معالجة المعلومات وفي قدرة ذاكرة العمل يمكن أن يجعل الفهم سطحيا، بل مجزءا، وبخاصة عندما يكون المتكلم سريعا وتكون الجملة معقدة التركيب. وقد طلبنا، في سلسلة من التجارب، إلى عدد من المختبرين من مختلف الأعمار الإصغاء إلى قصص قصيرة تُروى تارة بسرعة وأخرى ببطء، ثم كان عليهم الإجابة عن أسئلة تختبر فهمهم الواضح للأحداث المروية في هذه القصص وإدراكهم للمعلومات الضمنية فيها. وقد اتضح أن مستمعين مسنين يستطيعون فهم المعنى الظاهر لمقولة دون أن ينجحوا مع ذلك في استخلاص معانيها الضمنية. ومع ذلك يمكن سد ثغرات الفهم بالاعتماد على مضمون النص بكامله، وذلك عندما يكون الإلقاء بطيئا والموضوع مألوفا. ولا يمكن عندئذ تمييز أي فارق بين شرائح الأعمار. ومن ناحية أخرى، تبقى قدرات المنطق سليمة نسبيا عندما يستطيع الناس مواجهة المشكلات وفق إيقاعهم وتدوين نتائج تفكيرهم بحيث لا يضطرون للاحتفاظ بالمعلومات في ذاكراتهم.

أما بالنسبة للمنطق والذكاء، فإن روائز اختبارات الذكاء تظهر نتائج متباينة جدا خلال مرحلة من العمر، وتشير إلى أن الذكاء لا يقتصر على عامل واحد منعزل، إنما يتركب من قدرات مختلفة تتأثر بالعمر بشتى الأشكال. ويعرف معظم الناس التقدير القياسي النفسي على شكل روائز للذكاء. وتستخدم الدراسات القياسية النفسية مجموعة روائز مدرجة مثل اختبارات سلاسل الأرقام (حيث يطلب تكرار أكبر عدد ممكن من الأرقام وفق الترتيب ذاته) واختبارات المفردات والمنطق والكفاءة المكانية (كتمثيل مجسمات ثلاثية الأبعاد) والهدف هو الاستدلال على التغييرات المرتبطة بالعمر وتعيين الكفاءات الذهنية المتأثرة بالشيخوخة وتلك غير المتأثرة بها. وتسمح هذه الروائز بالحصول على قياسات كمية دقيقة عن طريق مقارنة النتائج المتعلقة بأشخاص مسنين بالنتائج النظيرة المتعلقة بمجموعات أخرى من الأعمار. وإذا ما جمعنا النتائج الحاصلة عن طريق تلك المجموعة من الروائز نجد انخفاضا من 5 إلى 10٪ كل عشر سنوات بعد سن الخامسة والعشرين، في حين لو فحصنا النتائج منفردة فسيظهر أن تغير العمر لا يؤثر فيها جميعا.

خلافا لما توحي به بعض الدراسات فإن التقدم في العمر لا يؤدي بالضرورة إلى تراجع عام

لا تكشف روائز القدرة الكلامية - أي روائز المفردات حيث يطلب من المُختَبر إعطاء تعاريف ومرادفات للكلمات - عن أي تراجع، بل ليس من النادر أن يحصل أشخاص من أي عمر كان على نتائج أفضل من بعض الشبان. ويعزى ذلك على الأغلب إلى أثر تغير طرق التعليم. وبالمقابل تكشف روائز الكفاءة المكانية (شكل 3) عن انخفاض مهم في النتائج مع تقدم العمر. وعندما تستند النتيجة إلى السرعة والدقة في آن معاً (أي إلى عدد المسائل المحلولة في وقت محدد) يكون أثر العمر أكبر أيضا. ولقد قادت هذه النتائج كلا من (L.J. هورن) و(B.R. كاتل) من جامعة كاليفورنيا إلى التمييز بين الذكاء «المائع» - صاحب الدور في امتلاك ومعالجة وتشكيل المعلومات - والذكاء «المُبلور»، الذي يتطلب الرجوع إلى المعارف التي سبق اكتسابها. إن الذكاء «المائع» يتناقص مع تقدم العمر ولكن ليس الذكاء «المتبلور».

إن هذه الروائز موضوعية ودقيقة، لكنها عندما تطبق على أشخاص مسنين فإنهم يجدون أنفسهم قاصرين تجاه تمارين غير مألوفة ومفصولة عن أي سياق طبيعي، ويجدونها بالأحرى مُغمة ومقلقة. وللإقلال من هذه الصعوبات وضع كل من (B. ويلسون) و(A. بادّلي) و(H. هاتشينز) من جامعة كامبريدج مجموعة روائز أكثر ألفة في هذا المجال، عرفت تحت اسم «روائز(اختبارات) ريفرميد لسلوك الذاكرة» "Rivermead Behavioral Memory"، حيث إن معظمها قريب جدا من المواقف اليومية، مثل تعرف صور لوجوه أو تذكر قصة أو أسماء أو خط سير. يطلب القائمون بالتجربة أيضا تحقيق تمارين مستقبلية للذاكرة تفترض تذكر فعل نوعي قيد الإنجاز خلال وقت ما في المستقبل. ويكون على الشخص المُختبر في بداية الجلسة مثلا أن يسلم إلى القائم بالاختبار شيئا شخصيا (مفتاح، قلم، مشط) ويجب عليه أيضا أن يتذكر المطالبة به لاحقا. إن نتائج روائز الذاكرة المستقبلية وذاكرة القصص والأسماء هي وحدها التي تظهر آثارا مهمة مرتبطة بالعمر.

وفي النهاية تشمل المرحلة الأخيرة من السيرورة الإدراكية إنتاج إجابة أو رجع كلامي أو سلوكي. وفي هذه المرحلة بالذات لوحظت التغيرات المرتبطة بالعمر الأكثر وضوحا. ويقدر أن زمن ردّ الفعل (الرجع) يتزايد بين سن العشرين والستين بمقدار 20٪. وبالربط بين قياسات إيقاع الرجع (زمن رد الفعل) وأخرى فيزيولوجية عصبية (توجد في الدماغ أشكال من الأمواج الكامنة المستحضرة معروفة بالاسم المختصر P.300)، ضاعف (A. كوك)، من جامعة أمستردام، تعقيد إحدى المهام بزيادة عدد العمليات اللازمة، وقاس سرعة المعالجة من أجل كلٍ من المراحل: إدراك، قرار، استجابة. وتشير النتائج إلى أن العمر يؤثر بالأكثر في المرحلة الثالثة أي مرحلة الاستجابة.

يمكن بدلا من دراسة تأثير الشيخوخة في

مختلف مركبات النظام الإدراكي أن نرجع الدراسة لعامل عام واحد – مثل قصور سرعة معالجة المعلومات أو نقص قدرات الذاكرة – من أجل تفسير تدني النتائج لعدد كبير من العمليات الإدراكية. وتمثل هذه الحالة النموذج المسمى «نقصان الإمكانات» والذي يؤدي دورا رئيسا في دراسة تأثير الشيخوخة. وقد أعدّ هذا النموذج من قبل (T. سولتهاوس) من معهد التقانة في جورجيا بالولايات المتحدة. ووفقه تؤدي تأثيرات ازدياد العمر إلى انخفاض في الإمكانات المهيأة لمعالجة المعلومات وفي سرعة المعالجة وقدرة ذاكرة العمل وشدة الانتباه. فكلما كان الفعل مركبا وكان تحقيقه أكثر صعوبة، بات تأثير العمر أكثر أهمية.

سيكون علينا أيضا وفق هذا النموذج إيجاد علاقة متبادلة قوية بين العمر ونوعية النتائج وسرعة التنفيذ وقدرة ذاكرة العمل. وثمة تحليل شديد التعقيد يسمح بإظهار مستوى التغير الموافق لكل من العوامل. غير أن النتائج لا تدعم هذا النموذج إلا جزئيا. وعلى سبيل المثال، فإن قياسات قدرة ذاكرة العمل تردُّ نحو 50٪ من التغيرات إلى التقدم في العمر وتترك الباقي دون تفسير.

إن كون سرعة الاستجابة تتناقص مع تقدم العمر، في كافة أنماط المهام تقريبا، قاد سولتهاوس إلى تأكيد حدوث «تراجع عام في النظام السلوكي» ناتج عن تلف عصبي مع تقدم السن. ويتشكل التراجع العام وفق «فرضية التراكب» التي تنص على أن رجوعات (ردود فعل) المسنين أطول من رجوعات الشباب بنسبة ثابتة. ويؤكد هذه الفرضية عدد كبير من التجارب، لكن ليس جميعها. إن فرضية التراجع العام جذابة إذ إنها تقدم تفسيرا وحيدا مرتبطا بسلسلة كبيرة من النتائج، كما أنها تقيم جسرا بين نموذج إدراكي وبين فيزيولوجية الجهاز العصبي. ومع ذلك، لا يمكن بسهولة إرجاع آثار التقدم في العمر كلها إلى تراجع في سرعة معالجة المعلومات. فمن العسير أن يرى المرء كيف يمكن ردّ الوهن في استعدادات مكانية (حيزية) إلى انخفاض في سرعة المعالجة، كما أن العديد من مهام الذاكرة يتأثر بالشيخوخة، حتى وإن لم يُفرض حدّ زمني. ومن جهة أخرى، وكما يُظهر تناول الموضوع بالاعتماد على مركبات كوك، فإن التراجع يقتصر على مراحل معينة في العديد من العمليات الإدراكية.

يستخدم (N. تشارنس)، من جامعة واترلو في كندا، بيسر المحاكاة (Simulation) باستخدام الحاسوب لاختبار نموذج تناقص قدرات الانتباه.

إنه يحاكي قدرة تذكر ثلاث عشرة ورقة من أوراق اللعب، موصوفة بإيجاز، ويأخذ برنامجه بعين الاعتبار عوامل سرعة نقل المعلومات، قدرة ذاكرة العمل وخبرة أو كفاءة اللاعب. وتُظهر نتائج المحاكاة، مقارنة بالمعطيات البشرية، أنه ليس لعامل واحد بمفرده أن يُشبه بالسلوك البشري، ولكن اجتماع عاملين معا، مثل السرعة وقدرة ذاكرة العمل، يعطيان نتائج جيدة. وتنطوي النتيجة الأكثر أهمية على اكتشاف أن الخبرة تعوض ما يخسره المرء في السرعة والذاكرة. فيمكن بالنسبة للإنسان، كما بالنسبة للنموذج

الحاسوبي أن تخفي خبرة اللاعب تناقص إمكاناته. وهذا اكتشاف مهم في إكمال نموذج تناقص الموارد.

في الأدبيات المعاصرة، غالبا ما يقابل تراجع الانتباه بتراجع التحريض داخل شبكة من روابط من المفاهيم. فتبعا لـ (D. ماكاي)، من جامعة كاليفورنيا و(D. بورك) من معهد بوسونا في كاليفورنيا، هناك شبكة تتألف من عدة عقد (أو مفاهيم) مرتبطة فيما بينها بأقواس تصل بين بعضها بعضا. وتتشكل هذه الأقواس خلال التعلم، وتستطيع أن تحث أو تكبح استدعاء معلومة ما. ويجري الاستدعاء بتحريض العقد ذات العلاقة بالموضوع سعيا نحو العقدة المطلوبة في حين تبقى العقد المستقلة عن الموضوع غير فاعلة. وهكذا يمكن أن نجد كلمة «نرجس» ابتداء من تحريض، والسعي نحو العقد المرتبطة بها التي تكون: «وردة»، «صفراء» و«ربيع». إن معاملات نموذج تناقص الإمكانات تبقى سائرة المفعول هنا. وفي النظام الشبكي تصبح سرعة المعالجة سرعة النقل؛ وتتناسب شدة الانتباه مع مجموع العقد المنفعلة في لحظة معطاة؛ وتكافىء ذاكرة العمل عدد العقد القادرة على أن تكون فاعلة في آن واحد. وفضلا عن ذلك، فإن مفهوم الشبكة يسمح للمعاملات الجديدة، مثل التشكيل البنيوي للعقد والترابطات وقوة وثقل الروابط المختلفة وعتبات العقد والسرعة التي يتم بها تناقص التحريض أن تلعب دورها. إن هذه المظاهر كلها تسمح بتفسير التبدلات المرتبطة، بالعمر كـ «عجز في الحركة». وهكذا فقد وضعت فرضية تنص على أن مستوى التحريض ينخفض عند الأشخاص المسنين، على حين ترجع بورك آثار التقدم في العمر إلى تراجع سرعة وكمية التحريضات المنقولة. وتصبح التراجعات المرتبطة بتقدم العمر، حسب نظرية «عجز الحركة»، موسومة بشكل خاص بالمعلومات المكتسبة حديثا لأن الروابط المتشكلة تكون ضعيفة. وتصبح آثار التقدم في العمر أقل وضوحا عندما تكون المعلومة «قديمة» والروابط بين العقد مثبتة جيدا ومعززة باستخدام متكرر.

وثمة وجهة نظر أخرى ميزها (L. هاشر)، من جامعة دوك في الولايات المتحدة، حيث فسر آثار تقدم العمر بالفاعلية المتدنية لسيرورات الإعاقة التي تعمل في الحالة العادية على منع تحريض العقد غير الملائمة أو غير المرغوبة فيها. وهكذا نجد المعلومات المتعلقة بالفعل الجاري هي وحدها التي تجد طريقها إلى ذاكرة العمل. ويبدو وفقا لنظريات هاشر أن المسنين يطلقون لأنفسهم أكثر عنان الشرود. وبالتالي يمكن لاستدعاء المعلومات اللازمة من الذاكرة أن يغرق وسط عناصر متزاحمة لا تتوصل المنظومة إلى كبحها. ففي مسائل فهم نص لغوي مثلا، قلما يتوصل الأشخاص المسنون إلى إبعاد التفسيرات غير الملائمة عندما يكون النص غامضا. ومع أن وجهة نظر هاشر معقولة، إلا أنه لا يأخذ بعين الاعتبار سوى جزء من التغيرات الملاحظة عند المسنين. كذلك لا يمكن لعامل وحيد تفسير كافة التغيرات الإدراكية المرتبطة بتقدم العمر. وبشكل عام، فإن المشكلة الأساسية لنماذج الشبكات هذه تتعلق بصعوباتها في التفريق تجريبيا بين آثار مختلف العوامل وآثار نسق

من العوامل.

ويختلف نوعا ما النموذج الاتصالي أو نموذج المعالجة المتوازية، المعدّ من قبل (L.J. مكليلاند) و(E.D. روملهارت) من جامعة ستانفورد عام 1986، عن النموذج السابق من ناحية عدم تموضع المعلومات في موضع محدد في مجموعة خاصة من العقد، بل توزعها وفق ترسيمة حركية عبر الشبكة كلها. ويحاكي آثار الشيخوخة هنا ما يطرأ على الشبكة من تشويه أو إتلاف، بحيث تصبح المعلومة صانعة للتشويش. إن النماذج الاتصالية فعّالة بشكل كاف، فهي – مثل الإنسان – تعمل وفق مقاربة احتمالية. وإن فقدان الفاعلية يكون جزئيا أكثر من كونه كليا. يستطيع إنسان مسن أحياناً أن يتذكر اسم رئيس روسيا ولا يتمكن من ذلك في أحيان أخرى، فالنجاحات والإخفاقات ديناميكية إذ إنها لا تظهر إلا استطرادا. ويمكن للنموذج الاتصالي أن يتمثل عددا كبيرا من التصرفات الملاحظة عند المسنين، كالنزعة إلى الخلط في الذكريات وتذكر أحداث لم تجر أبدا، وكذلك الصعوبة التي يواجهونها في تعلم أمر جديد. إن استخدام النموذج الاتصالي في دراسة آثار الشيخوخة لا يزال في بداياته، وإن نتائجه في تمثيل السيرورات الإدراكية التلقائية، مثل تعرف الكلمات، هي أفضل منها في تمثيل السيرورات الواعية الموجهة، مثلاً نحو حل مسألة ما أو نحو تذكر محتوى مقالة معينة. بيد أن آثار الشيخوخة تبدو بشكل أكثر وضوحاً في السيرورات الواعية منها في السيرورات التلقائية، وفي أفعال تتطلب بعض الجهود الذهنية منها في الأفعال والمهام التي لا تتطلب ذلك.

ثمة منظور آخر للعمل تبناه (P. بالتس) وزملاؤه من معهد ماكس بلانك في برلين. إنهم ينظرون إلى الشيخوخة كجزء من مجمل حياة الشخص، ويعتبرون تطوره الذهني متعدد الاتجاهات، ويقومون ـ في آن معاً ـ بتسجيل ما يكسبه وما يفقده هذا الشخص مع تقدمه في العمر. ويتسع الفارق النسبي بين المكتسب والضائع مع تقدم العمر (شكل 4). ويشدد هذا التناول للموضوع على طواعية المنظومة الإدراكية التي تتكيف باستمرار لإصلاح التقلب بين المضيعات والمكتسبات. وتتميز شيخوخة المنظومة الإدراكية بشكل خاص جدا بالإمكانات والفعاليات الإدراكية والإمكانات الأدنى الموزعة على عدد أقل من المجالات وفي نمو استراتيجيات التعويض. وتظهر أبحاث «بالتس» أن الأشخاص المسنين هم أحيانا أسرع من الشباب في حل مسائل من الحياة الواقعية، مثل حل مسائل في التعاملات المالية، أو حل مشكلات مهنية أو النصح حول تصرف مناسب. وكما في دراسة «تشارنس» عن لاعبي البريدج تعوض الخبرة إلى حدّ كبير آثار تقدم العمر.

يمكن أن نتساءل إلى أي حد تخفض الشيخوخة من فاعلية النشاطات اليومية، وهل يتعين على الناس أن يبدأوا تقاعدهم بعد الستين أو أنهم يظلون قادرين على العمل بكفاءة عالية؟ وإلى أي مدى تعكس نتائج الأبحاث ما يجرى في الحياة اليومية؟ ويمكن تناول الموضوع عن طريق تحليل الإنتاجية للفرد خلال حياته كلها. وقد بينت دراسة

أجريت حول إنتاجية المبدعين من علماء النفس الجامعيين، أن هذا الإنتاجية تتزايد من سن الثلاثين إلى الأربعين لتتناقص بعد ذلك. وفي حوالي الأربعين من العمر يتم إنجاز أفضل الأعمال. هذا ويمكن ملاحظة اختلافات فردية، كما تختلف العلاقة بين العمر والأداء الأمثل حسب طبيعة العمل. فعلى حين يبلغ الرياضيون والمراقبون الجويون أوجهم باكراً، نجد أن الكتاب والموسيقيين ينتجون أحيانا أفضل أعمالهم في نهاية حياتهم.

وهناك نشاطات كثيرة لا تدفع القدرات الذهنية أو الفيزيائية إلى حدودها القصوى. إن العناية بالحدائق والقيام بأعمال المطبخ وحضور الاجتماعات وكتابة الرسائل لا تقتضي متطلبات كبيرة من الذاكرة ولا من سرعة الرجع ولا من تنسيق آليات الإدراك، وهذا ما يجعل آثار الشيخوخة غير ظاهرة في هذا النوع من النشاطات. وبالمقابل تفيد الإحصائيات أن قيادة السيارة هي أكثر تطلبا لذلك بكثير. فنسبة الحوادث إلى عدد الكيلو مترات المقطوعة تزداد عند السائقين الذين تتراوح أعمارهم بين 45 و60 سنة. كما أن السائقين ذوي الخبرة الذين تزيد أعمارهم على السبعين يسجلون نسبة حوادث أعلى من الشبان حديثي العهد بالقيادة. وفي هذه الحالة لا تفيد الخبرة الطويلة في تعويض آثار التقدم في العمر، بعكس الحال في البريدج أو الشطرنج، حيث الخبرة هي العامل الرئيسي في النجاح، وهنا لا تظهر الآثار السلبية للشيخوخة إلا عند اللاعبين الأقل موهبة.

يتعلق جزء مهم من فعّالية المسنين بحافزهم، فهم ـ عند توافره ـ ينذرون المزيد من الوقت والجهد للمهمة المنوطة بهم ويقومون باستخدام أمثل للاستراتيجيات الموازية وللوسائل المساعدة للذاكرة. وفي تجربة أجريت من قبل (G. نايلور) و(E. هاروود) عام 1975، كانت ساعة واحدة في الأسبوع خلال ثلاثة أشهر من دروس اللغة الألمانية كافية من أجل أكثر من نصف مجموعة من الأشخاص تتراوح أعمارهم بين 63 و91 من أجل اجتياز امتحان من مستوى يتطلب عادة من التلاميذ ثلاث سنوات لبلوغه. وأثبتت (J. جاكسون) في هولندا، من خلال تجربة مشابهة، تفوق أشخاص مسنين كانوا يتعلمون العزف على الكمان على الشباب. وقمت حديثا مع (M. كنواي) و(N. ستنهوب) بتحليل النتائج التي حاز عليها أشخاص مسنون يعدون دبلومات جامعية. وقد تبين أن الطلبة الذين يتجاوزون الستين من العمر كانوا يحصلون على نتائج أفضل من الشبان في أعمال السنة، لكن درجاتهم كانت أدنى قليلا في الامتحانات.. وتشير هذه الأمثلة إلى أن الجهد الإضافي الذي يبذله المسنون يسمح لهم بتعويض التراجعات الإدراكية المرتبطة بالتقدم في العمر.

الخبرة تعوض آثار التقدم في العمر

من أجل قياس النجاحات المحققة خلال النشاطات اليومية – التبضع (التسوق)، قيادة السيارة، القراءة، التلفزيون – يلجأ الباحثون إلى الاستبيانات وإلى التقدير الذاتي. يعاني المسنون بشكل خاص مشكلات فيما يخص تذكر الأماكن والأرقام والأسماء، وتقول (K. كيراسيك) من جامعة كاليفورنيا

الجنوبية، إن الأشخاص المسنين كثيرا مايفقدون نظاراتهم أو مناديلهم ويضلون طريقهم في المراكز التجارية وينسون أين تركوا سياراتهم. وقد جعلتهم كيراسيك يجتازون اختبارات إلى جانب مجموعة من الشباب طالبة إليهم تذكر مواقع وممرات معينة داخل مجمع تجاري معروف لديهم وآخر غير معروف. ولقد واجهت مجموعة المسنين صعوبات حقيقية في الذاكرة عندما لم يكونوا عارفين للمكان.

وقد طلبت بالاشتراك مع(D. فولكنر) من شبان ومن كبار في السن أن يصنفوا قدرات ذاكراتهم من أجل كافة أنواع الأشياء (وجوه، ألوان، خط سير، تواريخ، أعلام، أفعال يومية) على سلم يتدرج من 1 (سيىء جدا) إلى 5 (جيدا جدا). وقدر المسنون أن لديهم ذاكرة أفضل من الشبان فيما يتعلق بالمواعيد ودفع الفواتير وتناول الدواء والرد على الرسائل. بيد أنهم يتذكرون بشكل أقل أسماء الأعلام وأرقام الهواتف والتواريخ والنتائج الرياضية، ومن أجل ذلك يستخدمون المفكرات مما يساعدهم على عدم نسيان الأمور المهمة التي يتوجب عليهم إكمالها. غير أن هذا النمط من الاستراتيجيات قليل الفاعلية عندما يتعلق الأمر بتذكر الأسماء والأرقام. وكثيرا مايعرف المسنون حالات تجمد في الذاكرة مما يجعلهم في لحظة ما غير قادرين على تذكر اسم رغم كونه معروفا لديهم. وهذا الجمود بالنسبة لهم هو أكثر آثار الشيخوخة إرباكا. ومع ذلك فهم يقدرون أن لديهم ذاكرات جيدة لنشاطات الحياة العادية، لكن اختبارات أكثر جزما كالتجربة الموضحة في الشكل 6، تظهر أن هذا النمط من الذاكرة معيب أيضا. إن فجوات الذاكرة تصبح أكثر تواترا عند المسنين. فهم لا يعرفون فيما إذا كانوا قد أنجزوا حقا ما كان يجب عليهم القيام به. فلا يتذكرون مثلا إن كانوا على نحو أكيد، قد أقفلوا الباب بالمفتاح أو إن كانوا قد أضافوا الملح إلى الحساء أم أنهم توقفوا عند نيتهم القيام بذلك. وفي حين أن ذكرى حدث تم فعلا تكون أقوى وأوضح في الحالة الطبيعية من ذكرى حدث ظل في إطار المشروع، فإن الأحداث الواقعية عند المسنين تسجل بشكل أقل غنى ويكون التمييز أكثر صعوبة.

تظهر المعطيات التجريبية وروائز القياسات النفسية انخفاضا مع تقدم العمر في مختلف مركبات الفعل الإدراكية، في حال كون النشاطات اليومية غير معقدة بما يكفي لإظهار الضعف في المنظومة الإدراكية. ومن جهة أخرى تسمح استراتيجيات تعويضية والمفكرات والمزيد من الوقت والجهد المبذول بموازنة التراجع الذهني. ويعبىء المسنون بشكل خاص قدراتهم من أجل نشاطاتهم المفضلة. وهكذا يمكنهم أن يخفوا وأن يتصدوا وحتى أن يتجنبوا آثار الشيخوخة. وثمة أقلية ضئيلة من الأشخاص تبدو غير معرضة لآثار التقدم في العمر. ويتميز هؤلاء الأشخاص المسنون عموما جدا بذكائهم وصحتهم الجسدية الاستثنائية وبواقع كونهم يستمرون نشطين جسديا وذهنيا. وحتى يومنا هذا لم نستطع بعد سبر غور سرهم.

الإدارة الاستراتيجية في التنمية الاقتصادية

تجربة سنغافورة

تأليف : مارك جوه
تشونج لي تشوي
كارولين يوه

ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

حققت سنغافورة تنمية اقتصادية رائعة للغاية في الثلاثين سنة الأخيرة، إذ تحولت من دولة يعتمد اقتصادها أساسا على تخزين السلع المستوردة ثم إعادة تصديرها، إلى مركز تجاري ومالي نشط في منطقة جنوب شرقي آسيا، مع قاعدة صناعية متقدمة بدرجة لا بأس بها. وقد تضاعف نصيب الفرد في إجمالي الناتج القومي نحو أربع عشرة مرة وبلغ 20,816 دولارا سنغافوريا منذ عام 1960 (الدراسة الاقتصادية 1991)، مع الاستمرار في النمو الاقتصادي السريع والعمالة الكاملة والإنتاجية العالية. وتعتبر الاستراتيجيات المطبقة لتحقيق التنمية نموذجا للنمو الاقتصادي السريع تحتذي به الدول النامية والدول الصناعية على حد سواء. وقد بدأت سنغافورة منذ أواخر السبعينات بالتخلص التدريجي من الصناعات التي تتطلب عمالة كبيرة كالمنسوجات والملابس والتوجه نحو الصناعات التي تعتمد على تقنية عالية وتدر عائدا مجزيا مثل التكنولوجيا الحيوية وتكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا التشغيل الآلي (الأوتوماتية).

وقد دفع الركود الاقتصادي الذي شهدته سنغافورة عام 1985 الحكومة لإعادة النظر في الأسس التي يقوم عليها الاقتصاد. وفي مقدمة ذلك كله، نشأت علاقة عمل جديدة بين الحكومة والقطاع الخاص. وبفضل هذه العلاقة الجديدة وكذلك الجهود التي بذلتها نقابات العمال، نجحت سنغافورة في

العنوان الأصلي للمقال:

Strategic Management In Economic Development: The Singapore Experience.

International Journal of Management, Vol. 10, No. 2, June 1993.

مراجعة: هيئة التحرير

الخروج من دائرة الركود الاقتصادي في فترة قصيرة للغاية لم تتجاوز سنة واحدة.

ومنذ ذلك الحين واصلت سنغافورة رسم استراتيجيات واتخاذ مبادرات جديدة لحقبة التسعينات بهدف زيادة التنمية وذلك من خلال قيام تحالفات استراتيجية دولية جديدة مع الشركات متعددة الجنسيات ومع الحكومات الأخرى الأعضاء في رابطة دول جنوب شرقي آسيا (ASEAN). وتهدف هذه الاستراتيجيات ـ إلى حد كبير ـ إلى دعم مركز سنغافورة الاقتصادي وقدرتها التنافسية في التسعينات. وتقوم استراتيجية إعادة الهيكلة الاقتصادية على استغلال الموارد البشرية وغيرها من الموارد القائمة بالفعل وكذلك الموارد الممكن توفيرها وذلك لتنفيذ الخطط طويلة الأجل. ويهدف هذا المقال بصورة خاصة إلى إبراز ومناقشة السياسات والاستراتيجيات الجديدة التي تبنتها الحكومة في محاولة منها للوصول بهذه المدينة ـ الدولة لأن تحتل مكانا بارزا في الاقتصاد العالمي ولمواجهة التغيرات والتحديات الجديدة على الساحة الاقتصادية التي تتميز بتنامي الدور العالمي فيها يوما بعد يوم.

كما سنناقش ما تنطوي عليه هذه التوجهات النشطة من جهود وما صادفته من مشكلات وعقبات، وسنركز على وجه الخصوص على الجهود التي بذلت في مجال الإدارة الاستراتيجية لكي تصبح سنغافورة مدينة تكنولوجية عالمية بنهاية القرن الحالي وذات اقتصاد متقدم ومستوى معيشة مماثل لسويسرا. كما سنقدم لمحة تاريخية موجزة عن هذه التطورات الحديثة وذلك في مسعى منا لأن نتفهم بصورة أفضل الدوافع التي أدت إلى السير في هذا الاتجاه بالذات.

التنمية الاقتصادية في سنغافورة

يمكن تقسيم المراحل التي مرت بها التنمية الاقتصادية في سنغافورة الحديثة إلى خمس مراحل، بدأت المرحلة الأولى منها عام 1959 عقب استقلالها عن بريطانيا مباشرة وانتهت عام 1965 بعد انفصالها عن اتحاد ماليزيا. وامتدت المرحلة الثانية من عام 1965 إلى عام 1979،

وهي مرحلة النمو السريع والتصنيع، على حين استمرت المرحلة الثالثة من النمو بين عامي 1979 و1985، وهي مرحلة «الثورة الصناعية» الثانية. وأما المرحلة الرابعة فقد شهدت الركود الاقتصادي في عامي 1985 و1986، وتأتي بعدها المرحلة الأخيرة والتي تمتد من فترة الانتعاش الاقتصادي التي بدأت عام 1987 وهي مستمرة حتى الوقت الحاضر. وتركز هذه المرحلة على التحالفات الاستراتيجية الجديدة كالاستراتيجية التنموية الجديدة للتنافس الدولي من خلال التعاون الوثيق مع الدول الثلاث التي تشكل «مثلث النمو».

الصراع من أجل البقاء:

1959 ـ 1965

نالت سنغافورة عام 1959 اعترافا دوليا بقيام حكم ذاتي فيها في إطار كونها مستعمرة بريطانية. وقد ورثت هذه الحكومة مشكلات اقتصادية واجتماعية وسياسية حادة . ومن بين المشكلات الخطيرة التي واجهت سنغافورة في ذلك الحين البطالة المتفشية وعدم استقرار الاقتصاد الذي كان يعتمد اعتمادا كليا على قطاع واحد وهو تخزين السلع المستوردة ثم إعادة تصديرها. وكانت الخطوة الاقتصادية المباشرة التي اتخذتها الحكومة هي البدء في تنفيذ برنامج جريء وشامل للتصنيع لجذب الصناعات الإنتاجية. وكانت أهداف هذا البرنامج زيادة النمو الاقتصادي واستقرار العمالة وتوفير بديل لنشاط التخزين وإعادة التصدير (تشونج، 1986). وقد ركز برنامج التصنيع على الاستثمارات الأجنبية المباشرة، مع الاهتمام في البداية بإحلال الواردات (إنتاج سلع محلية للاستغناء عن السلع المستوردة)، على أمل أن يخرج مشروع السوق الماليزية المشتركة المقترح إلى حيز الوجود.

ولدفع عجلة التصنيع تأسس مجلس التنمية الاقتصادية عام 1961. وكانت المواجهة مع أندونيسيا عام 1963 حدثا تاريخيا مهما، لأنها تسببت في قطع العلاقات التجارية بين البلدين. ونتيجة لذلك تأثر إلى حد كبير وضع سنغافورة الذي يعتمد على نشاط التخزين وإعادة التصدير. وقد تزايد الشعور بالحاجة إلى جذب الاستثمارات الأجنبية لمساعدة سنغافورة على التوجه نحو التصنيع.

التصنيع والنمو الاقتصادي:

1965 ـ 1979

كان انفصال سنغافورة عن ماليزيا عام 1965 حافزا لزيادة الصادرات. وقد تحولت السياسة الصناعية من إحلال الواردات إلى زيادة الصادرات وذلك بسبب فقدان الظهير الاقتصادي لسنغافورة، وهو السوق الماليزية المشتركة. وكانت بريطانيا على وشك الإعلان عن انسحابها العسكري الكامل عام 1968 (كان هذا يعني بالنسبة لسنغافورة خسارة خمسة وعشرين في المائة من إجمالي ناتجها القومي وعشرين في المائة من إجمالي حجم العمالة فيها)، كما أن السوق المحلية في

سنغافورة محدودة. وقد أدت كل هذه العوامل مجتمعة لأن تتبنى الحكومة استراتيجية التصنيع من أجل التصدير.

وكان هذا الاتجاه الاستراتيجي يعني قيام المسؤولين بدور فعال في توجيه الشؤون الاقتصادية والتدخل فيها، إذ اعتبر هؤلاء المسؤولون أن عملية تحول المستثمرين ورجال الأعمال المحليين من التجارة إلى الصناعة تسير سيرا بطيئا كما أنها غير مؤكدة النتائج (جوه، 1987). وقد اتخذت الحكومة خطوات سياسية واجتماعية واقتصادية قوية لضمان توفير مناخ استثماري ملائم لجذب المستثمرين الأجانب في إطار استراتيجية التصنيع من أجل التصدير. وقد أدى هذا التغير في التخطيط الاقتصادي إلى إنشاء بنك سنغافورة للتنمية وذلك لتمويل التنمية الصناعية وكذلك إنشاء شركة التجارة الدولية بهدف زيادة الصادرات الصناعية. وفي عام 1968 أنشئت مؤسسة مدينة جورونج (Jurong) للتخطيط لإقامة المناطق الصناعية وتطويرها وإدارتها وكذلك لوضع أسس برنامج التصنيع. وقد سارع رجال الصناعة الأجانب والمحليون إلى الحصول على قطع الأراضي والمصانع، الأمر الذي خلق فرص عمل للآلاف من أبناء سنغافورة. وفي عام 1969 تأسست خطوط نبتون (Neptune) الشرقية لتوفير الخدمات الملاحية. وقد تزامن هذا التحول في سياسة التصنيع مع حدوث تطورات مواتية في الاقتصاد العالمي. وقد حققت استراتيجية التصنيع من أجل التصدير، والقائمة على السلع التصديرية التي تستخدم فيها عمالة كبيرة، نجاحا ملحوظا.

وقد تحققت العمالة الكاملة في أوائل السبعينات، ثم بدأت الضغوط تمارس لرفع الأجور. ووضعت الحكومة استراتيجية جديدة للتنمية للعمل على التحول عن الأنشطة الاقتصادية التي تعتمد على عمالة كبيرة وغير ماهرة وتدر أرباحا زهيدة. وكان الهدف من هذا التوجه الجديد في إعادة هيكلة الاقتصاد الوطني تأمين استمرار الازدهار في المستقبل. إلا أن المحاولات الأولى في هذا السبيل سرعان ما توقفت نظرا لحالة الركود التي مر بها الاقتصاد العالمي في عامي 1974 و1975. وقد واصلت الحكومة سياسة تشجيع الاستثمارات التي تتطلب عمالة كبيرة وتنشيطها والمشاركة فيها. ثم استأنفت الحكومة عملية إعادة الهيكلة الاقتصادية عام 1979 في استجابة منها لزيادة الطلب على السلع في السوق المحلية وبسبب القيود الخارجية التي كانت تحد من زيادة النمو الاقتصادي والصناعي في سنغافورة.

وعند هذه المرحلة، كان قد تم بنجاح تحويل الاقتصاد من عملية تخزين السلع المستوردة ثم إعادة تصديرها إلى اقتصاد تصنيع وخدمات. وبعد ذلك ارتفعت نسبة إسهام القطاع الصناعي في إجمالي الناتج القومي من 12٪ عام 1960 إلى أكثر من 28٪ عام 1979. وهكذا أسهم نجاح برنامج التصنيع في ازدهار البلاد.

ثورة صناعية جديدة:

1979 ـ 1985

بفضل القيود التي فرضت للحد من زيادة الأجور في أوائل السبعينات أصبحت مجالات الاستثمار في سنغافورة مجزية للغاية ومشجعة لجذب الشركات متعددة الجنسيات إلى المشاركة في الأنشطة ذات العمالة الكبيرة. وبحلول عام 1979 كان هناك نقص واضح في العمالة في كافة قطاعات الاقتصاد، كما زاد الطلب على العمالة الأجنبية زيادة كبيرة. وقد أدى ذلك، بالإضافة إلى بروز بعض المشكلات المحلية والخارجية، إلى الحد من استراتيجية التصنيع من أجل التصدير. وكانت الإنتاجية في تدن مستمر، مع زيادة حدة المنافسة من الدول المجاورة ذات العمالة الوفيرة والأجور الرخيصة، علاوة على الخطر الوشيك المتمثل في فقدان الأفضلية في التعامل التجاري بالنسبة للسلع الصناعية المصدرة والمنتجة محليا بعمالة كبيرة وزيادة توجه الدول الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية (OECD) لتطبيق سياسة الحماية (الجمركية) لمنتجاتها الوطنية.. كل هذه العوامل مجتمعة كانت إيذانا بدخول سنغافورة عصر «الثورة الصناعية» الثانية.

وقد شنت الحكومة حملة دعائية كبيرة للترويج لهذه الثورة، والتي كانت تستهدف إعادة هيكلة الاقتصاد وتحسينه ورفع مستواه، وذلك بالتوجه نحو إنتاج السلع والخدمات التي تعتمد على عمالة ماهرة وتقنية متقدمة وتدر أرباحا وفيرة، مع زيادة أجور القوى العاملة ورفع مستوى إنتاجيتها في آن واحد. ونظرا لأن إعادة هيكلة الاقتصاد هي عملية ضخمة وسريعة ومتشابكة، فقد اتجهت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات صارمة وحاسمة لتحويل الأنشطة ذات العمالة الكبيرة إلى الأنشطة ذات العائد المجزي والتي تعتمد على مهارات أعلى ورأسمال أكبر وتقنية أكثر تقدما. وتقرر منح عدة حوافز مالية وضريبية لتشجيع الصادرات على إنتاج سلع بتقنية أكثر تقدما (تشونج، 1983). وقد استمرت البحوث وأعمال التطوير بهمة ونشاط ودعمتها الحكومة بتقديم مختلف الحوافز وتوفير مستلزمات البنية الأساسية، وشجعت الحكومة على وجه خاص المشروعات الاستثمارية التي تعتمد على رأسمال ضخم وتقنية متقدمة، كما اهتمت اهتماما كبيرا بتحسين المهارات وذلك من خلال إنشاء مراكز تدريب جديدة وتوسيع المؤسسات التعليمية القائمة. وقد أدت كل هذه الإجراءات إلى تحسين تنظيم وإدارة القطاعين العام والخاص على حد سواء.

مواجهة الركود الاقتصادي:

1985 ـ 1986

شهدت سنغافورة نكسة اقتصادية خطيرة عام 1985، وتوقف سيناريو النمو الكبير الذي حدث في السبعينات (زيادة إجمالي الناتج القومي بنسبة 8,5٪ سنويا) واستمر حتى أوائل الثمانينات إلا أنه توقف خلال باقي الثمانينات. كما تراجعت معدلات الاستثمار وكذلك الأداء العام للاقتصاد. وقد

عانى الاقتصاد من بعض الظواهر غير الصحية التي تصاحب النمو السريع، وزادت تكاليف العمالة والتكاليف الأخرى على الإنتاجية زيادة ثابتة وإن كانت كبيرة. وعجز الأداء الاقتصادي بشدة عن تحقيق معدلات النمو الطموحة المستهدفة في خطة التنمية الاقتصادية للثمانينات. والوقع أن التنبؤات الاقتصادية لعام 1986 كانت متشائمة. ولذلك تمت مراجعة الخطط الاستراتيجية وتعديل بعض السياسات. كما تم إنشاء لجنة اقتصادية عام 1985 لدراسة المشكلات الاقتصادية ووضع تصور ورؤية مستقبلية للوضع الاقتصادي في البلاد ولإبراز جوانب الخلل الهيكلي في النظام الاقتصادي وتعرف مجالات النمو الجديدة وتحديد واقتراح سياسات النمو المستقبلية (تقرير اللجنة الاقتصادية، 1986). وقد اتخذت عدة إجراءات تصحيحية تتمثل في تجميد الأجور وخفض حصة صاحب العمل في نظام المعاشات التقاعدية للعاملين وخفض إيجارات المنشآت التجارية، وذلك لتمكين المشروعات الاستثمارية من خفض نفقات تشغيلها واستعادة قدرتها التنافسية في الأسواق العالمية. وقد أدت هذه الإجراءات إلى قيام علاقة تضامنية جديدة بين الحكومة والقطاع الخاص نابعة من المصلحة المشتركة. وقد نجحت هذه العلاقة القوية الجديدة، وما صاحبها من إجراءات تصحيحية صارمة، في إنقاذ البلاد من الركود الاقتصادي الذي شهدته عام 1985 وذلك خلال سنة واحدة.

مثلث النمو: نحو اقتصاد عالمي

والآن، وبعد أن عقدت سنغافورة مؤتمرين عن الاستراتيجيات العالمية شارك فيهما مستثمرون ورجال أعمال من مختلف الجنسيات وجرى تعريفهم بالفرص العالمية المتوافرة بالبلاد، فإنها في طريقها لأن تصبح دولة تعتمد على التكنولوجيا المتقدمة وتطبق أحدث أساليب تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا الأوتوماتية والتكنولوجيا الحيوية. وأما الصناعات التي تتطلب عمالة كبيرة فهي الآن إما في طريقها إلى التصفية ببطء ولكن بعزم أكيد، أو إلى قيام مستثمرين من دول أخرى بالمنطقة بتولي إدارتها. ومع تحول الصناعات من عمليات التجميع (الإنتاج البسيطة) إلى صناعات متكاملة تعتمد على البحوث والتطوير وتصميم المنتجات وليس مجرد إنتاجها، فإن الأجواء مهيأة الآن للسير في الاتجاه الجديد نحو إنشاء مناطق تجارية متكاملة فوق هذه الجزيرة.

الخطط التنموية وإدارتها

نجحت سنغافورة نجاحا ملحوظا في تنفيذ سياسة التخطيط والإدارة الاستراتيجية التي رسمتها لنفسها خلال الثلاثين عاما الماضية، ويرجع الفضل في جعل الخطط التنموية حقيقة واقعة إلى الأهداف الواضحة والمحددة التي وضعت والإجراءات السريعة التي اتخذت. وقد أظهرت الحكومة دائما توجها استراتيجيا واضحا خلال العقود الثلاثة الأخيرة لتحقيق

التنمية الاقتصادية وذلك بتهيئة المناخ الاستثماري الكفيل بجذب مختلف أنواع الاستثمارات.

وقد حافظت الحكومة على الهدف العام للنمو الاقتصادي مع تحقيق العدالة الاجتماعية، إلا أن الخطط الاقتصادية والتحالفات الاستراتيجية اللازمة لتنفيذ كل خطة كانت مختلفة.كما ظلت الخطط الاقتصادية في غاية المرونة مع إمكان تغييرها بتغير المناخ الدولي، ورسمت خطط مختلفة وفقا لجداول زمنية مختلفة ولكي تلائم المناخ الاقتصادي السائد. فعلى سبيل المثال، عندما رأت سنغافورة في الستينات أنه من الضروري توفير بديل لتجارة تخزين السلع المستوردة ثم إعادة تصديرها، كانت الخطة تستهدف خلق وظائف للقوى العاملة المتنامية فيها وذلك من خلال عملية التصنيع. وقد ساعد ذلك على التخفيف من مشكلة البطالة الحادة التي كادت البلاد أن تواجهها. كما قدمت حوافز لجذب الصناعات ذات العمالة الكبيرة وذلك بموجب قانون «الصناعات الرائدة» (إعفاء من ضريبة الدخل) وقانون التوسع الصناعي (1959). وكان هذا التخطيط إجراء حاسما لاحتواء الموقف ولم يقصد به التخطيط للمدى البعيد. وقد تم تنظيم الاقتصاد تنظيما شاملا، من العموميات إلى أدق التفاصيل، ووفقا لأولويات محددة. وقد أسهمت الحكومة إسهاما فعالا في الصناعة والمشروعات التجارية وذلك بهدف دفع عجلة التصنيع وإعادة الهيكلة الاقتصادية.

وعلى إثر انفصال سنغافورة عن ماليزيا وانهيار مشروع إقامة السوق الماليزية المشتركة، تحول الاهتمام عن استراتيجية التصنيع القائمة على إحلال الواردات واتجه نحو زيادة الصادرات. وصدر قانون حوافز التوسع الصناعي (إعفاء من ضريبة الدخل) عام 1967 وذلك لتشجيع تصدير المنتجات المحلية. وقد شهدت السبعينات أهم التغيرات في تاريخ التنمية في سنغافورة، فقد أصبحت من أكبر مراكز بناء السفن، كما أصبحت ميناء رئيسيا ومركزا مصرفيا وماليا وتجاريا إقليميا نشطا، بالإضافة إلى ما تتمتع به أصلا من قاعدة صناعية كبيرة، وكان المفهوم الذي انطلقت منه سنغافورة في تلك الفترة ذا شقين: الشق الأول يتمثل في تبني استراتيجية الاستعانة بالشركات متعددة الجنسيات في تحقيق التوجه الاقتصادي نحو التصدير. وأما الشق الثاني فكان مواصلة سياسة اقتصادية لها مقومات النمو والاستمرار وذلك بخفض تكاليف الإنتاج. وقد لعبت الحكومة في هذا المجال أيضا دورا حيويا لتأمين ودفع عجلة النمو إلى الأمام.

ومع دخول سنغافورة عصر «الثورة الصناعية الثانية» أصبح التخطيط يرسم للمدى الأطول وذلك لمواجهة ماينطوي عليه المستقبل من احتمالات وتطورات. وقد عملت الحكومة من خلال المجلس الوطني للأجور على زيادة الأجور وذلك للإسراع في تحقيق التغير التكنولوجي وتوجيهه نحو أساليب لا تحتاج إلى عمالة كبيرة. ولم تشجع الحكومة

الشركات متعددة الجنسيات التي تمارس أنشطة صناعية ذات عمالة كبيرة، كما قدمت حوافز خاصة للشركات لرفع مستواها التقني، أو للتوجه نحو مجالات تقوم على تقنية متقدمة. ومن النظم التي استحدثت لدعم هذا التوجه نظام مساعدة تطوير المنتجات ونظام المعونة الرأسمالية وصندوق تنمية المهارات. كما بدأت الحكومة بزيادة إسهامها في التجارة الدولية من خلال قيامها بشراء وتملك الشركات ذات التقنية المتقدمة في الغرب وذلك بهدف رفع مستوى التقدم الصناعي في البلاد والإسراع فيه (إيشاويك، 1981). ولم تعد الحكومة تهتم بمجرد توفير فرص العمل كما كانت الحال في الستينات ومعظم السبعينات، بل حرصت على خلق وظائف ذات رواتب عالية مع زيادة الإنتاجية والنمو.

وبفضل هذا التوجه تعزز النمو في الثمانينات بعد أن تجاوزت سنغافورة الحاجز التكنولوجي ودخلت عصر التكنولوجيا وأصبحت مركزا للصناعات ذات التقنية المتقدمة كالكمبيوتر والاتصالات والطباعة والنشر. وحتى أسلوب الإدارة تغير، إذ أصبح يعتمد أكثر على تبادل الرأي والمشورة مع المستثمرين ورجال الأعمال ومع كافة أفراد المجتمع.

وكان هذا التغير في التوجه أمرا مطلوبا إلى حد ما لأن سنغافورة كانت تخطط لخصخصة الجزء الأكبر من اقتصادها (أي تحويله إلى القطاع الخاص) (مجلس التنمية الاقتصادية، 1988). وكان من نتائج الركود الاقتصادي الذي مرت به سنغافورة عام 1985 أن زادت عملية تبادل الرأي والمشورة، فقد وضعت خطط واستراتيجيات التنمية بالتشاور مع كبار المستثمرين في القطاع الخاص وذلك لضمان أن يظل اقتصاد البلاد محافظا على مقومات النمو والاستمرار في التسعينات. وكانت الحكومة عاقدة العزم على تحويل البلاد إلى مركز تجاري عالمي متكامل مع زيادة إسهام القطاع الخاص فيه وحث الشركات متعددة الجنسيات والشركات المحلية على تجاوز عملية الإنتاج الصناعي والانطلاق نحو تصدير الخدمات.

ولدعم الاستقرار الاقتصادي في القرن القادم فإن سنغافورة تتوخى الحرص والدقة في اختيار مجموعة الشركات متعددة الجنسيات الرئيسية التي ستسهم في النمو الاقتصادي للبلاد مع مساعدتها لكي تطرق باب النظام الاقتصادي العالمي. وترحب الحكومة بشدة بالشركات متعددة الجنسيات التي يتوقع أن تسهم إسهاما بارزا في الاقتصاد في عشر السنوات القادمة. وفي المقابل تمنح هذه الشركات حوافز خاصة وتقدم لها مساعدات مختلفة (تصل إلى حد شراء منتجاتها). ومما لاشك فيه أن إنشاء المناطق الصناعية وتزويدها بكافة المرافق والخدمات، بالإضافة إلى تشجيع الحكومة للاستثمارات، سيعجل بعملية تحويل سنغافورة لأن تصبح المركز التجاري المتكامل الأول في آسيا. وفي إطار التوجه الجديد نحو تنمية الصناعات التي تدر عائدا

كبيرا فإن الحكومة تقوم بدور فعال في عملية التنمية بالبلاد. فالسياسات الاستراتيجية يجري صياغتها وتنفيذها ومراجعتها بالتفاعل السريع من المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وهذا بدوره قام برسم صورة المناخ الاستثماري والنمو الاقتصادي.

وقد تطور أسلوب الحكومة في الإدارة منذ الستينات مواكبا تطور أسلوبها في التخطيط، ونجحت سنغافورة في التحول من تجارة الاستيراد والتصدير إلى إقامة الصناعات ذات العمالة الكبيرة ومن ثم إلى الصناعات والخدمات ذات التقنية المتقدمة في المستقبل، وذلك من خلال منح الحوافز وتوفير المساعدات الأخرى للشركات المطلوبة وحرمان الشركات التي يثبت أنها لا تحقق عائدا من المقومات الأساسية لوجودها. وقد انتقلت البلاد من استراتيجية أساسية للصراع من أجل البقاء في الستينات إلى أن بلغت المرحلة التي تأسست عندها اللجنة الاقتصادية عام 1985 لتحقيق هدف واحد، وهو التصدي للركود الاقتصادي. وقد يكون أفضل الدروس المستفادة من هذا الركود زيادة الوعي والإدراك بأهمية الحفاظ على القدرة التنافسية على الساحة الدولية والعناية الشديدة بالمؤشرات التي تعتبر مقياسا لهذه القدرة. وهكذا أصبحت التسعينات تمثل بالنسبة لسنغافورة عقد الإدارة الاستراتيجية. وهي بذلك تشبه لاعب الشطرنج الذي يرسم خطواته وحركاته ويسبق خصمه في تحريك القطع بعدة خطوات. كما أدركت سنغافورة أن المعارك يجب أن تدور رحاها على الساحة الدولية وفي الأسواق العالمية، وذلك هي المفتاح الرئيسي للنمو.

تشكيل تحالفات استراتيجية

تتميز سنغافورة بعدة خصائص فريدة، وهي: عدم وجود ظهير اقتصادي لها، ونقص الموارد الطبيعية، وقلة عدد السكان، وبالتالي سوق محلية محدودة، وهذا ما يفسر لنا اعتمادها على الطلب والعرض الخارجيين. ونتيجة لهذه الأوضاع فإن هاجسها الأول هو البقاء والاستمرار سياسيا واقتصاديا. وقد حرصت سنغافورة حرصا شديدا على الدخول في تحالفات اقتصادية مع المجموعات الاستراتيجية للشركات متعددة الجنسيات سواء في داخل المنطقة أو خارجها وذلك للتغلب على القيود المحلية المتمثلة في نقص الموارد والأسواق ولتأمين استمرار النجاح والازدهار. وبدلا من أن تقوم الحكومة بتنمية المهارات الصناعية المتوافرة محليا، فإنها اختارت طريق التصنيع لدفع عجلة النمو من خلال الشركات متعددة الجنسيات.

وأما العوامل التي حددت شكل التحالف فكانت: الرغبة في توفير فرص عمل على الفور، والدخول إلى الأسواق العالمية، والعروض التي قدمتها الشركات متعددة الجنسيات والتي كانت تشتمل على نقل المهارات والخبرات الإدارية إلى المواطنين، والنظر إلى هذه الشركات باعتبارها المدخل

المنطقي للحاق بركب الدول المتقدمة في مجالات المعرفة والمهارات والخبرات العلمية.

ويتناول هذا الجزء من المقال العلاقة الفريدة القائمة بين الشركات متعددة الجنسيات وسنغافورة، وسنقوم بعرض الأشكال المختلفة للتحالفات الاستراتيجية المطلوبة التي تأسست خلال الثلاثين عاما الأخيرة وأسهمت في التنمية الاقتصادية والنمو الاقتصادي السريع للبلاد.

فعندما كانت سنغافورة مستعمرة بريطانية كان هذا الوضع يعتبر تحالفا مع بريطانيا لخدمة المصالح البريطانية بالمنطقة. ونتيجة لذلك، ازدهرت البلاد واكتسبت قوة ومقومات تفوق بكثير مساحتها الجغرافية. وبعد حصول سنغافورة على الاستقلال، كان عليها أن تختار أحد بديلين: إما الدخول في تحالف دائم مع دولة أخرى بالمنطقة وبذلك تكون بلدا مستقلا في إطار تلك الدولة الأكبر، أو الاستقلال التام. وقد اختارت سنغافورة البديل الأول، إلا أنها اكتشفت فيما بعد أنها لا تستمد قوتها الدولية إلا من خلال قوة ماليزيا. ولذلك فليس من المستغرب أن تحقق سنغافورة أدنى معدل نمو اقتصادي خلال السنوات التي كانت فيها جزءا من اتحاد ماليزيا. يتضح من ذلك أن هذا التحالف كان أمرا غير مرغوب فيه، ولذلك عندما انفصلت سنغافورة عن الاتحاد المذكور كان لزاما عليها أن تجدد صلاتها التقليدية مع الأطراف المهيمنة على التجارة الدولية وأن تعتمد عليهم في توفير الأسواق والمهارات والموارد.

وقد أدركت سنغافورة أن إقامة تحالف مع أي دولة أو شركة متعددة الجنسيات من شأنه أن يدعم مركزها في المنطقة وعلى الساحة العالمية. ومن خلال هذه العلاقات المحورية حققت سنغافورة نموا هائلا وأصبح اقتصادها يتسم بالصبغة العالمية وذلك بدخوله أكثر فأكثر في الاقتصاد العالمي. وقد أثبتت العلاقات التجارية القائمة بين سنغافورة والشركات متعددة الجنسيات أنها علاقات مثمرة تعود بالخير والمصلحة على الطرفين.

ونظرا لاشتداد حدة المنافسة في عالم اليوم على جذب الاستثمارات الأجنبية من مختلف الدول، فقد شرعت سنغافورة في اتخاذ مبادرات استراتيجية جديدة لمواجهة هذه التحديات الاستراتيجية القائمة على الساحة الاقتصادية العالمية. ويعتبر تشكيل «مثلث النمو» بين كل من جزيرة باتام (Bat-am) الأندونيسية وولاية جوهور (Johor) الماليزية وسنغافورة أصدق شاهد على ذلك (مجلس التنمية الاقتصادية، 1990). ويدعو هذا المفهوم الاستراتيجي الدول الثلاث إلى التنسيق فيما بينها في الصناعات والاستثمارات، وإلى حشد ما تتمتع به من مزايا نسبية واستغلال جوانب القوة المتكاملة لديها، وذلك من أجل زيادة التنافس في جذب الاستثمارات الأجنبية. وهذا التحالف الاستراتيجي يرسم بعدا جديدا في التعاون الاقتصادي بين دول

جنوب شرقي آسيا (ASEAN). كما أن المناورات الجديدة التي قامت بها سنغافورة لدعم مركزها الاقتصادي كفيلة بأن تجعلها شريكا رئيسيا للشركات متعددة الجنسيات وذلك بحكم كونها حلقة الصلة التي يمكن لهذه الشركات من خلالها أن توسع استثماراتها في منطقة جنوب شرقي آسيا (ASEAN)، وخاصة في ماليزيا وأندونيسيا. وبفضل ضخامة حجم النشاط التجاري والاستثماري مع باتام (Batam) ضمنت سنغافورة استمرار قدرتها التنافسية في التسعينات، كما ضمنت استمرار النمو والازدهار في المستقبل. وقد أثبت هذا التحالف الاستراتيجي حتى الآن أنه في صالح سنغافورة. والزمن وحده هو الكفيل بأن يبين لنا ماسيكون عليه الشكل القادم للتحالف الاستراتيجي الذي تسعى سنغافورة إليه وهي تخطو نحو أعتاب الألف سنة القادمة.

نحو اقتصاد عالمي وتنمية بتقنية متقدمة

لقد نجحت سنغافورة حتى الآن في تحقيق الازدهار الاقتصادي وذلك من خلال استغلال جوانب القوة لدى جيرانها ولدى الشركات متعددة الجنسيات العاملة فيها. وما من شك في أن سنغافورة وهي تحتفل بمرور ثلاثين عاما من النجاح في الإدارة الاستراتيجية والازدهار الاقتصادي، فإن أهدافها وطموحاتها وتطلعاتها ستظل كما هي عليه. وستواصل سنغافورة جهودها في أن تتفوق على جيرانها في لعبة البقاء كقوة اقتصادية. ومن منطلق الالتزام بالإدارة الاستراتيجية تم رسم سياسة اقتصادية جديدة لتنمية هذه المدينة ــ الدولة وذلك بجعلها مدينة تكنولوجية دولية في القرن الحادي والعشرين. وقد نجحت سنغافورة في التغلب على مشكلة صغر حجمها وذلك بارتباطها بكيان أكبر، تاركة مصيرها في صندوق واحد مع مصير العالم، سواء كان ذلك للأفضل أو للأسوأ. وقد أصبحت هذه البلاد نموذجا للكفاءة وبعد النظر في التخطيط المستقبلي.

واليوم، فإن سنغافورة شاهد حي على نجاح دولة شابة في مجال الإدارة الاستراتيجية. فبفضل تطويرها وإدارتها للقوى العاملة الماهرة وكذلك لمرافقها وخدماتها فإنها تحقق نموا اقتصاديا طيبا. إلا أن أكبر التحديات التي تواجه سنغافورة في التسعينات تتمثل في كيفية تحقيق زيادة في النمو بمعدل 4 إلى 6٪ سنويا على المدى الطويل والوصول إلى مستوى التنمية الاقتصادية الموجود في سويسرا وذلك من خلال تحويل البلاد إلى مركز تجاري دولي يقدم للسوق العالمية الخدمات والمنتجات ذات الجودة العالية والعائد المجزي. وتحقيق هذا الهدف يتطلب تخطيطا سليما للتنمية. ومع إدخال التقنية المتقدمة يتوقع أن تحتل الخدمات يوما ما مكان الإنتاج الصناعي كمحرك رئيسي للنمو الاقتصادي في هذه الجمهورية.



المراجع

Asiaweek, 20 March 1981.

Boon, Y. C., "Singapore in the Nineties: The Challenge Ahead," Economic Bulletin, March 1990.

Chen, P.S. (Ed.), Singapore Development and Trends, Oxford University Press, 1980.

Chow, K.B., "Asean Economic Co-operation and Singapore," in You Poh Seng and Lim Chong Yah (eds.), Singapore: Twenty Five Years of Development, Nanyang Xing Zhou Lianhe Zaobao, 1984.

Chong L.C., "Economic Growth and Social Equity in Singapore: A Managerial Perspective," Contemporary Southeast Asia, vol 4, no. 2, 1982.

Chong, L.C., "Multinational Business and National Development: Transfer of Managerial Know-how to singapore," Maruzen Asia, Singapore, 1983.

Chong, L.C., "Singapore's Development: Harnessing the Multinationals," Contemporary Southeast Asia, vol 8, no. 1, 1986.

Economic Development Board (Singapore), "Gearing Up for An Enhanced Role in The Economy: The Singapore Partnership," paper presented at the International Conference on Global Strategies, 24-26 Oct 1988.

Economic Development Board (Singapore), "Concept Paper on The Triangle of Growth," Second International Conference on Global Strategies, 4-6 June 1990.

Economic Survey of Singapore 1991, Ministry of Trade and Industry, Singapore National Printers, 1991.

Goh Keng Swee, The Practice of Economic Growth, Federal Publications, Singapore, 1977.

Ian Thynne and Mohd Ariff, Privatisation: Singapore's Experience in Perspective, Longman, 1989.

Peters, A., "From Rice Bowl to Superbowl," Asia Magazine, August 3-5, 1990. Report of the Economic Committee, The Singapore Economy: New Directions, Ministry of Trade and Industry, Feb 1986.

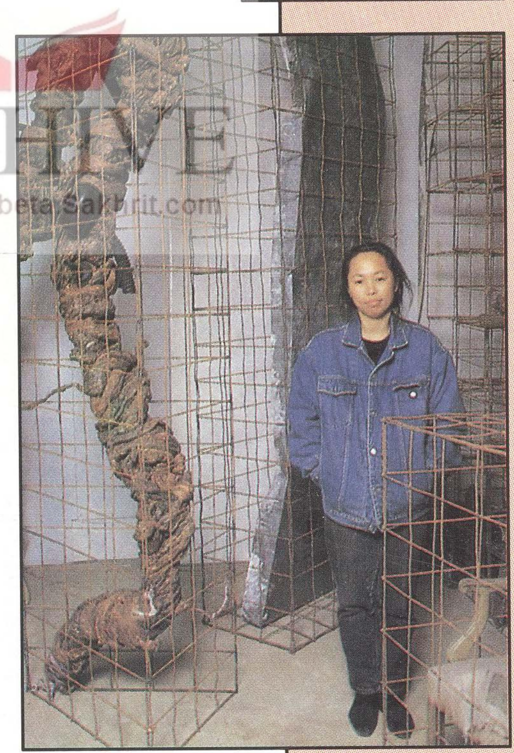
Report of the Public Sector Divestment Committee, 21 Feb 1987.

جين سو كيم

تأليف : إلينور هيرتني

«كـان من المفترض لي ، كفتاة كـوريـة، أن أشب عن الطوق فأغـدو امرأة ناضجة، وزوجة، وأما. غير أنني أدركت، حينما صار عمري ثلاث عشرة سنة، أن هذا النمط من الحياة ليس هو الذي أريد».

إن الرحلة التي قطعتها «جين سو كيم» بحثا عن حريتها الشخصية والفنية حملتهـا بعيدا عن مهد الشباب وعـالمه. لقد بلغت حاليا الثـانية والأربعين من العمر، بيد أنها لم تكن قد تجاوزت الرابعة والعشرين حين غـادرت كوريـا الجنوبيـة إلى لوس أنجلـوس، حاملـة معها شهـادة في التمريض من جامعة سول الوطنية، وشوقا عارما لأن تصبح فنانة. وفي الوقت الـذي عملت فيه ممرضـة لإعالة نفسها، اتجهت إلى الـدراسة بكلية الفن التـابعة لجامعـة إلينوي الغـربية أولا ثم بمعهد الفن في شيكاغو، الذي حصلت منـه على الماجستير في الفنـون عـام 1983، وهو المعهد الذي تقوم حـاليا بالتدريس فيه. وخلال ذلك تزوجت، وأنجبت ابنا، واستقرت في إيفانستون، بولايـة إلينوي، وبدأت عملية صعبة من أجل تحقيق مصالحة بين طفولتها الهادئة المقيدة وبين عـالمها الحالي الـذي يعج بالضجيج والاضطراب.



لقـد اختـارت كيم التشييـد Installation وسيطا فنيا لها. واستطـاعت في مجموعة من الأعمال الفنية ـــ عرضت في متـاحف سبرنج فيلد، بـولاية ماسـاشوستس، ومـاديسون، بـولايـة ويسكـونسن، وفي متحف بـروكلين بشيكاغو في الصيف الماضي – أن تكشف عن رصيد وافر من المفـردات البصرية من خلال تحويل الأشيـاء والمواد المستهلكة التي تعثـر

العنوان الأصلي للمقال :

United States, Jin Soo Kim

عليها إلى استعارات معبرة عن الذاكرة، والفقدان، والمصالحة، ومداواة الجروح. فالكراسي المحطمة، وخزائن المطبخ المعدنية، ونوابض الأسّرة الصدئة، وأبواب السيارات، ومزاليج النوافذ الرصاصية هي شهود على ثقافة أمريكا الإعلانية العابرة، وهي في الوقت ذاته آثار دالة على حيوات خاصة يتعذر التعرف عليها من دونها. وتشرح «كيم» كيف أنها شرعت في جمع هذه الأشياء عام 1979، وذلك قبل أن تستخدمها في أعمالها بوقت طويل، إذ بدا لها أنها تقلل الحاجز الذي يفصل بينها وبين موطنها الجديد إلى أدنى حد.



وعلى حين استخدمت كيم في تشييداتها أو تركيباتها المبكرة أشياء متراكمة متشابكة جمعتها من هذا الحطام الذي تلقي به المدن، نجدها في الفترة الأخيرة وقد بدأت بوضع أشياء في أقفاص من صفائح الشباك الفولاذية المستخدمة في هياكل أرصفة المدن، والأرضيات الأسمنتية، وغير ذلك من عناصر البنى الأساسية. وبالرجوع إلى خبرتها كممرضة، ربطت كيم بين شبكة الفولاذ وبين ذلك الهيكل الخفي، ألا وهو الهيكل العظمي للإنسان. ويبرز هذا التناظر بين الدرع الصناعي وجسم الإنسان من نزوع كيم إلى لفّ أجزاء من الشبكة والأشياء ذاتها بضمادات بيضاء مما يستخدم في المستشفيات.

إن كيم النحيلة، التي يغلب عليها الخجل، تبدو أحيانا ضئيلة الحجم إلى جانب التركيبات الممتدة التي تبدعها. إلا أن الأمر ليس كذلك تماما، لا بالنسبة لها ولا فيما يتصل بالعمل الذي تقوم به. فالتركيب (أو

في الصورة العليا تبدو كيم بجانب أحد أعمالها التركيبية العملاقة. أما إلى اليمين، فنشاهد عملها «العبور الضمني»، 1992، الذي تبدو فيه الأشياء للوهلة الأولى وقد «تراكمت معا». إلا أن كلا منها سرعان ما يفرض نفسه على المشاهد عن قرب.

التشييد) الخاص بمتحف بروكلين، الذي يحمل عنوان «العبور الضمني» Tacit Transit يدخل في صميم هذا الموضوع. وحين تلقت كيم دعوة من أمينة المتحف تشارلوتا كوتيك لتقديم عمل يوضع في الردهة الكبرى بالمتحف قررت أن تجمع في تركيب واحد عشر سنوات من العمل: «لقد أردت أن يكون هذا الأثر الفني هرميّ الشكل. تبدو فيه الأشياء متراكمة معا. بيد أنني أردت أن يواجه المشاهد أثناء عبوره به، الأشياء منفردة على نحو يوحي له بتاريخ هذه الأشياء وبالثقافة التي نبعت منها».

عن بعد، يبدو هذا التركيب، الذي يرتفع في ركام من الأقفاص المعدنية الصدئة التي تطرق أشياء مبهمة وتبرز من خلال حوائط ملفوفة بقماش أبيض أو أسلاك من النحاس المجدول، وكأنه مدينة أشباح مخيفة، أما عن قرب، فإن هذا العمل الفني يستحث المشاهد على التجوال عبر الممرات الضيقة، مرورا بلفات متشابكة من الحبال والخيوط الملتوية وأكوام من مزاليج النوافذ الرصاصية المكدسة التي تبدو وكأنها على وشك الدفن، ومن إطارات الأسّرة التي تكورت نوابضها وتمددت دونما حركة. ويبرز التركيب حدة الأثر الذي يتركه العنوان في نفس المشاهد، إذ يوحي بسرعة زوال الحياة الإنسانية وثقافة الآلة التي تساندها.

ويراود كيم الأمل في عمل تشييد أو تركيب يوضع في مكان ما بلوس أنجلوس ويكون بمثابة «صالة مصالحة» لأصحاب محال البقالة الكوريين وجيرانهم الأمريكيين الأفارقة الذين وقع بينهم صدام مأساوي في العام الماضي. وهي تعمل حاليا في أول تركيب دائم لمعرض تيجون بكوريا الجنوبية في هذا الصيف (أي صيف عام 1993). ويمكن مشاهدة أعمالها الفنية في الوقت الحاضر ضمن مجموعات مركز «ووكر آرت Walker Art»، وفي متحف الفن المعاصر في شيكاغو، والمتحف القومي للفن المعاصر في سول.

وتقول كيم، إذ تجد نفسها واقفة بين عالمين،: «حينما أقوم بعمل تركيب ما، فإنني لا أهتم بإبداع عمل من أعمال الخيال الصرف. إنني أريد لفني أن يكون امتدادا لما هو حقيقي. أريده أن يعكس صورة هذا المجتمع والصدام الذي أعايشه بين ثقافتين».

2. كندا

تأليف: سارة جيننجز

روبين كوليير

يمارس روبين كوليير، الطويل، الضامر العود، البعيد عن اللمعان، فنا هو بمثابة تعليق على العمارة، أو تخطيط المدن، أو السياسة والثقافة، أو على إشاعة الطابع السلعي في حياتنا على نحو ما يظهر في البيئة من حولنا وفي الصور التي تنهال علينا من وسائل الإعلام الجماهيري.

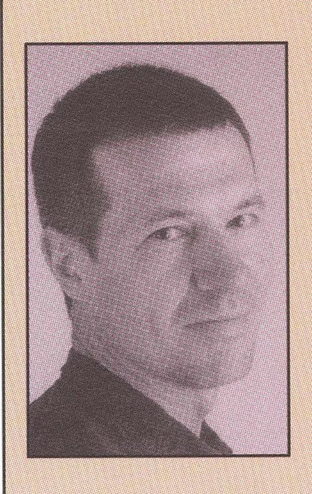
وطوال عشرين عاما، عكف النحات الكندي، البالغ من العمر اثنين وأربعين عاما، على العمل في خط متسق سواء من ناحية التكوين أو من ناحية طبيعة بحثه. ولقد تخرج كوليير عام 1968 في كلية تورنتو للفنون، وسرعان ما التقطه كارمن لامانا تاجر الأعمال الفنية، الذي كان يكرس صالة معروضاته برمتها للتطور الحاصل في الفن الكندي المعاصر، وأقام كوليير أول عرض منفرد له هناك عام 1971، وظل يعمل لدى صالة المعروضات حتى وفاة لامانا في عام 1991.

في الوقت الذي كان فيه كثيرون من النحاتين المعاصرين لكوليير تجريديين متزمتين اتجه هو إلى ممارسة شكل من التجريد المقارب للأصل، مع دمج ذلك ببعض العناصر التعبيرية. ويصف كوليير إنتاجه المبكر بأنه «كان كثير الشبه برد الفعل أو التعليق على الجوانب الشكلية لممارسة الفن التي كانت سائدة آنذاك». وعلى سبيل المثال، نتاج أنطوني كارو Anthony Caro أو الأعمال التجريدية لدونالد جود Donald Judd.: «لقد شاركتهم بعض استخداماتهم للفراغ والبساطة، لكنني شعرت بعدم الارتياح إزاء شكلية الأعمال وبرودها».

العمل الفني الذي يحمل عنوان «المنفذ» من إنتاج عام 1991 - مروحة، وصور للبيت الأبيض، وبطاقات تجارية عن «عاصفة الصحراء» تنفث مشاعر الغضب والدمار التي انطلقت من الشعوب والأماكن المرسومة في الصور.

العنوان الأصلي للمقال:

Canada, Robin Collyer



روبين كوليير

إن كوليير يستخدم «عناصر تتطلب أدوات بسيطة»، وغالبا ما تكون هذه الأدوات «خارج بيئة النحاتين، فهي أشياء لها استعمالها أو وظيفتها في الحياة». وكثيرا ما تستخدم هذه الأدوات في أعمال التشييد – قطعة من لوح معدني، قطعة من البلاستيك، أو الستائر المعدنية للنوافذ، أو أنبوب تهوية ـ وهدفه من ذلك هو أن يقلب المألوف والمتعارف عليه ظهرا لبطن، وأن يبين للمشاهدين أن بإمكانهم تكوين معانيهم الخاصة ورفض الرسائل المبرمجة. وخلال رحلة قام بها إلى جنوب الباسيفيك عام 1987 استأثر باهتمامه أن السكان المحليين يقومون بإعادة استخدام الأشياء المصنعة في العالم الغربي من خلال طرائق عملية لا تمت بصلة إلى وظائفها الأصلية. فقد استخدموا، على سبيل المثال، لافتات المخازن القديمة – مثل «كوكا – كولا». كمادة للبناء، ويقول كوليير: «لقد ربطت بين ذلك وبين عملي الخاص، وحينما عدت بدأت ببناء الخيام باستخدام المخلفات التقانية».

وتمثل أعمال كوليير النحتية المركبة التي يصعب اكتشاف مغزاها، رسائل مختلفة تعتمد على الكيفية والجانب الذي ينظر منه المشاهد لها. وكمثال على ذلك، يتكون عمله المسمى «ما الذي يؤثر»، (1987) من صندوق خفيف، وشرائح بلكسيجلاس Plexiglass (ضرب من البلاستيك)، والصلب، والألومنيوم، وبلاستيك فراغي الشكل، ولينوليوم (مشمع لفرش الأرضية) وورق صحف. ويبدو العمل من أحد الجوانب كمجموعة من أثاث المكاتب، على حين يبدو من جانب آخر وكأنه بناية مرتفعة.

وتلعب الأحداث المعاصرة دورا في كثير من أعمال كوليير الأخيرة. فحين اشتعلت حرب الخليج، كان رد فعل الفنان هو العمل الذي أطلق عليه اسم «المنفذ» Vent (1991)، وهو عبارة عن مروحة سقف من الألومنيوم، تلتف حول عمودها الرئيسي صور ملونة – هي صور متكررة للبيت الأبيض أثناء الليل – ومجموعة من البطاقات التجارية العسكرية الخاصة «بعاصفة الصحراء» («وجدتها في الدكان الذي كنت أشتري تبغي منه أثناء حرب الخليج») وصور للقادة العسكريين والسياسيين لكلا الطرفين المتحاربين فضلا عن مشاهد مرسومة

للجنود الأمريكيين في الحرب. إن وضع هذه الصور على جهاز يستخدم عادة لتصريف الهواء الساخن يستحضر في النفس مشاعر الغضب والسخط التي انطلقت من الناس والأماكن المرسومة.

وثمة عمل آخر من أعماله التي أبدعها في عام 1991 هو «أغنيات إلى مانويل» Songs For Manuel يتكون من حامل للكاسيت مصنوع من الألومنيوم، مع بطاقات تجارية على ثلاثة جوانب، أما الجانب الرابع فتوجد عليه قائمة الأغاني التي استخدمها مشاة البحرية الأمريكية في قصف الرئيس البنمي السابق مانويل نوريجا أثناء تعرضه للحصار في سفارة الفاتيكان في بنما. ويقول كولبير: «إن كل تلك الأغاني كانت تحمل عناوين مثل «أنا حاربت القانون (وانتصر القانون)»، أو «أنت لست طيبا»، «وكف عن ذلك». ويستطرد كولبير قائلا: «لقد تركز اهتمامي على الطريقة التي تمتزج بها ثقافة البوب بالتكنولوجيا العسكرية، لذلك قررت أن أقتفي أثر الأغاني الحقيقية».

ويقول كولبير إنه استطاع الوصول إلى الكولونيل المسؤول عن العملية: «كانت قائمة الأغاني لاتزال على مكتبه. وقد أوضح لي أن الرسائل التي تحملها الأغاني تم اختيارها بعناية لتحقيق أغراض سيكولوجية». وعلى أية حال، فإنه حينما اتصل بالوحدة السيكولوجية للجيش فيما بعد، أنكر القائمون بالأمر هناك تلك الواقعة.

إن التطور الذي حققه كولبير حتى الآن يحظى برعاية جمهور كندي محدود. ولا يزال الاعتراف الدولي به في بدايته، لا سيما في فرنسا حيث اشترت المجموعة القومية الفرنسية للفن المعاصر أحد أعماله، فضلاً عن المعرض الذي أقيم عام 1991 بمتحف الفنون الجميلة في «مول هاوس» والعروض التي قدمت في صالات العرض التجارية في نانتيه Nantes وباريس عام 1992. وخلال صيف عام 1993. مثل كولبير كندا في بينالي البندقية، ومن بين الأعمال التي يمكن مشاهدتها له هناك «المنفذ»، وعمل معماري جديد يندمج في الجناح الكندي ذاته.

ويقول كولبير: «لقد كنت دائما سمكريا. إن متعة تكوين الأشياء، في مراحل القصور الأولية، هي أفضل مرحلة في الفن. وما بعد ذلك ليس سوى الطريق نحو السفح».

كوليوم إينيز

تأليف : وليام فيفر

يسعى كوليـوم اينيز إلى إبداع لـوحات تبـدو وكأنما حدثت في التو واللحظـة. ويقول الرسـام ذو الملامح الساخرة، والعـلامات الجلدية اللـونية الشبيهة بظهر السلحفاة: «إن نقطـة البدء عندي هي الرغبـة في إبداع صورة طبيعية نـوعا ما، صـورة لها وجـودها الخاص الذي يحتل المكان الذي يستحقه».

ولد اينيـز في أدنبره، بأسكتلندا عـام 1962، ودرس كطالب في الدراسات العليا بكليـة أدنبره للفنون، التي تمثل معقل الرسم الأسكتلنـدي الحثيث الخطـى. وكـان معرضـه الأخير الذي أقيم في الصـالة القـومية لعـروض الفن الأسكتلنـدي الحديث (وهـو شكل أكثر تطـورا من العرض الذي قدمه في لندن في الصيف الماضي) لافتا للأنظار بصورة خاصة في محيط الأسكتلنـديين. فهنـا كـان رسام شاب يـؤكـد بأغلظ الإيمان تخليه عن الإفراط التصويري المنمق، سـاعيـا إلى تحقيق تأثيرات لا تختلف عن الـرذاذ الـواهن المعـروف محليـا بالضباب الأسكتلندي.



لوحة الفنان البريطاني كـوليـوم إينيـز التي لا تحمل عنوانا، وهي من أعمالـه في عـام 1992، وقد خضعت لاستخدام زيت التربنتينة.

كان اينيز لايزال طالبا حين حاول في بواكير الثمانينات أن يجرب المفهوم التشخيصي الـزاعق، الـذي ارتبط ببـاسيليتـز. وكـان أن اكتشـف أن التجريد قضيـة تحتاج إلى تجديد. كان دافعـه إلى ذلك هو تحـرير، وتذويب وإسالة المسـتودع الطمبي، حتى يعود كما كان في البدء، باستخدام مواد أساسية على نحو يمنع كل زينة.

العنوان الأصلي للمقال :

Great Britain, Callum Innes

الفنان الذي يرى أن نقطة البدء عنده هي إبداع صورة طبيعية نوعا ما، لها وجودها الخاص الذي يحتل المكان الذي يستحقه.

إن قائمة أعمال إينيز مستقاة، إلى حد ما، من الرعاية المنهجية التي أولاها كل من موريس لويس وبيرو مانزوني للون الأبيض. وثمة إشارات أيضا من أسلوب بارنيت نيومان المثقل بالاحتمالات. لكن من المثير للدهشة، أن إينيز يجد أن رسمه طبيعي: «إنني أرى أن العمل تشخيصي تماما من خلال بنية الخطوط ونوعيتها».

ويعلق الفنان على تعدد أساليبه قائلا: «إنني أعمل الكولاج كتدريبات شكلية، مثل العزف على البيانو. والواقع، أن الأعمال باتت أكثر شكلية مما كانت عليه من قبل. إنني أرسم على أجزاء من قماش الكنفا، عائدا بذلك إلى الأساسيات. كما أرسم لوحات بالألوان المائية ولوحات بيضاء: إن ذلك أكثر شاعرية. إن التكنيك والاكتشاف، مسألة حدسية تماما من عمل إلى آخر».

إن كل قطعة من الكنفا أو الورق تخضع لمعادل الأستوديو سواء من المطر المتدفق أو الانزلاق الأرضي. وتتم إزاحة طبقات الطلاء بزيت التربنتينة في خطوط متصلة، كدموع جارية على الخدود. ويقول الرسام مؤكدا «إن التكنيك ليس سوى وسيلة. فلو أنني صببت زيت التربنتينة فقط لتحولت اللوحة إلى ما يشبه الورطة. إنني أرسم خطا ثم أنظفه - أو أسترده - باستخدام زيت التربنتينة» وتجف جداول الألوان فتصبح خطوطا مقلمة ثقيلة. فبفضل الأساليب الداعية إلى التخلص من العوائق، تبدو أطيب النتائج محتفظة بنقاء أصلي. ويقول إينيز إنه يعكف على العمل في مجموعة من اللوحات، وإنها تتم في وقت واحد».

هذا التجريد السلبي، الذي هو محصلة أدنى تدخل ممكن فيما تمليه المصادفة، يمكن تحقيقه في أي مكان بالطبع. إن الاتجاه الحالي لجعل طريقة ما من طرائق العمل واضحة تماما يرتبط ارتباطا قويا بالارتياب السائد في «الأصالة» و«الإلهام». إلا أن ذلك قد يبدو ملائما بخاصة في بلد تتعقد فيه جبهات الطقس وترتبط حالات الذهن - وعلى رأسها القدرية - بالضوء الشمالي المحتبس.

وتمضي أصباغ اينيز وألوانه المراقة في سلاسة. وكل ما يستطيع عمله هو الإشراف على تلك الأصباغ والألوان وإزالتها إذا لم تتحلل بصورة مرضية. ولا شك أن ذلك عمل من قبيل المكابدة، بدءا من الشروع في وضع الألوان، ومراقبتها، ثم العودة إلى الوراء لإلقاء نظرة عليها. إن إحدى الحيل المعروفة في أفلام الرعب التي تدور أحداثها عبر الحقول مثل «تسع وثلاثون خطوة» الذي أخرجه هيتشكوك (وقد صور، بالمناسبة، في هضاب أسكتلندا) تتضمن اختفاء البطل الهارب خلف أحد الشلالات.

ماذا في جعبتك للجمهور؟ «إنني أعرض حاليا في «بروسبكت 93» في فرانكفورت، وفي صالة Bob Van Orsouw في زيورخ».

لقد استخدم إينيز الصبغة، والخدش، والطبقة الرسوبية بطريقة تفاعلية، بحيث جعل كل خطوة يقوم بإجرائها ضرباً من الانفعال. وهكذا صارت الصبغة نضارة، والخدش ظلا، والمادة الرسوبية تشويشا سابقا. إنه يتحدث عنا باعتبارنا نعيش في «زمن روحي تماما». فإذا كان الحال كذلك، فإن ما يكشف عنه أو يعرضه في رسوماته هو سجية روحية.

إن الأصباغ والمواد المترسبة هي ما يتبقى حين ينقشع رد الفعل، وحين تتبخر الوسيلة وتستقر الجزئيات في قماش اللوحة. وتعتمد الروحانية على التجانس (الهارمونية) والمباشرة التي تتسم بها الرسومات. وليس ثمة حجب أو أوهام خلف معنى الأشياء التي تطفو أو تلوح في فراغ الصورة.

4. ألمانيا

تأليف : دافيد جالواي

هندريك زيلبرمان

على الرغم من أن هندريك زيلبرمان، البالغ من العمر سبعة وعشرين عاما، لايزال مقيدا رسميا كطالب بأكاديمية درسدن للفنون، فإنه قد أثبت وجوده على المستوى الدولي. ففي العامين الأخيرين، بيعت أعماله في سوق الفن بكولونيا. كما أن ثمة ترتيبات للعام القادم بشأن عرض أعماله بقاعات في ليبزج وكولونيا، فضلا عن عرض منفرد في متحف خاص بمؤسسة للإلكترونيات في فوكواكا باليابان.

أما عن الفنان نفسه، فهو ذو مظهر أشعث خشن، يعطي انطباعا بأنه هو العامل الميكانيكي الذي درب على هذه الحرفة قبل دخوله مدرسة الفنون. أما اليوم فهو يقضي أغلب وقته في بيت ريفي تنفخ فيه الريح بشمال ألمانيا، البيت محاط بالدمى والأشياء التي يجمعها عشوائيا، أو تلك التي تستعمل في الكرنفالات. وهي أشياء سيدخل عليها ذات يوم «تحولات» لا يقدر على القيام بها سوى مصور فنان. وهو ينتقي هذه الأشياء، على حد قوله، «بسبب الهالة التي تحيط بها - ولعلها أن تكون نوعا من القلق أو الحنين، ولكنها تدخل في العمل الفني في سياق مختلف تماما عما كان لها من قبل».

ومن الصعب أن نصف ما يدخله زيلبرمان على هذه الأشياء من تحولات، وتأتي اصطلاحات مثل «بنائيات من وسائط مختلطة ومركبات» للابانة عن الحوار بين الشيء واللوحة التي تحتويه، وهو الحوار الذي يميز أفضل أعمال زيلبرمان التي تتصف بالغرابة

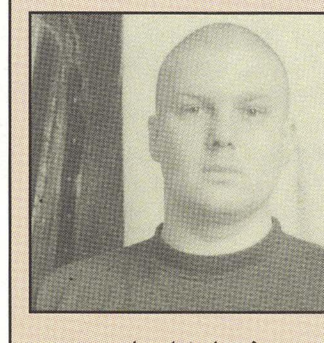
يقضي زيلبرمان معظم وقته في بيت ريفي بشمال ألمانيا، تحيط به الأشياء التي عثر عليها ولعب الأطفال التي يرسمها. وتركيبات زيلبرمان ومشيداته تلفت الأنظار بتراكماتها الصناعية المثيرة للغرابة.

العنوان الأصلي للمقال :

Germany, Hendrik Silbermann.

والمفارقة. وتحمل واحدة من أحدث أعمال زيلبرمان عنوان «من بليكسوم إلى نيويورك أو العبور الكبير». وتحت سماء كابية تمخر العباب سفينة ذات أشرعة متماوجة ورايات خفاقة، تمضي في طريقها إلى أمريكا أرض الميعاد، ولكن السفينة اللعبة، على الرغم من تجهيزاتها الاحتفالية، تبدو عليها العزلة والوهن، بل إن الشمس الملتهبة من فوقها، المصورة بورقة مبسوطة على هيئة مظلة مفتوحة، توحي بالهشاشة.

وتعتبر الرحلة - سواء بسفينة أو خط ملاحي مرفّه أو حتى بجندول - فكرة مكرورة في أعمال زيلبرمان. وتصاحب السفينة في رحلتها شمس أو قمر كشاهد محايد على الكفاح البشري. وهنا، يتحرك كل شيء في دوائر بمعنى الكلمة: سفينة تجوب بحار الدنيا، دوامات متأججة حول الإله ساتيرن، جواد طروب يخطر متمايلا في طريقه المطواع الذي يمر به المرة تلو المرة.



هندريك زيلبرمان

ولكنه بعد أن يوحي في هذه الأعمال بالحركة، لا يلبث أن يوحي بنقيضها، فيسود هذه العوالم الخيالية سكون عجيب، وحالة من الحيوية المكبوح جماحها، يعبر عنها من خلال أغلفة زجاجية ضحلة، فتبدو السفينة والشمس والجواد والقمر وقد تجمدت في المكان والزمان، مثل مشاهد ساكنة من شريط سينمائي أو معروضات في متحف غريب للتاريخ الطبيعي والأنثروبولوجيا والفنون الشعبية الفجة. وثمة ماهو مشترك بين مجسمات زيلبرمان ومحتويات «غرفة الغرائب» التي كان يفاخر بها المثقفون من النبلاء الألمان قديما، وهي تلك المقتنيات التي كانوا يجمعونها جزافا من مشغولات مستجلبة وعينات - من نقوش، وقشور جوز الهند، وقطع المطاط وقرن الخرتيت، وحبات البن، وحفريات وجزازات من تماثيل كلاسيكية - وهي تبدو اليوم كالإرهاصات العفوية لجماليات الأضداد التي صعدها السيرياليون بعد قرنين من الزمان إلى مستوى المذهب.

وليس في عطاءات زيلبرمان لا أوتوماتية، ولا مذهبية، وإن كانت روح كل من ماكس أرنيست وكيرت شفيترز يمكن أن تشعر بالألفة في عالم صندوق خيالات الظل هذا. ويقول الفنان: «إني أكن الإعجاب لأرنيست فوق كل شيء آخر، لأنه وجد الطريق الذي يبقيه في جوهره عصريا طوال مسيرته الفنية».

وتمزج سيناريوهات زيلبرمان المضمرة المغزى بين عالم مبتدع وعالم مكتشف في كل غنائي موحد، من خلال منهج لا يستبعد ما يخطر على البال من الوسائط أو الإشارات.

والذي يمكن أن يعاينه المشاهد كلوحة مصورة حسب المفاهيم التقليدية، ليس شيئا منبت الصلة عما تعاينه عيناه، ولا هو مضاد له، بل هو جزء لا يتجزأ من إطار العمل المعروض عليه.

وهناك، على سبيل المثال، سلسلة من الأعمال استخدمت فيها ألواح خشبية ذات مفصلات كأرضية لها. وتصبح «الخطوط» المحددة مسبقا للتكوين الأفقي جزءا من التأثير اللوني للوحة، وبالتالي توفر خلفية لصور فوتوغرافية ملصقة مع بقاء الألواح الخشبية بادية للعيان، مؤدية دورها الخاص في التكوين الكلي للعمل الفني. وفي أحد أعمال هذه السلسلة، يتضمن العمل جزازة دائرية من لوحة للعذراء والطفل سابقة على عصر رافييل، كما يغدو خطاف مثقل بالألوان علامة استفهام.

وتعاود الظهور في أعمال زيلبرمان مقومات دينية – وليس من الضروري أن تكون مسيحية – وتسهم في الإحساس بأننا إزاء مستودع لذخائر ثقافية مستنفدة. (ولعل من المفارقات أن زيلبرمان مضى يطور تقنياته في وقت أعرض فيه شباب الفنانين من غير المحافظين في ألمانيا الشرقية سابقا عن مواد الفنون الجميلة التقليدية، وأقبلوا على مرتجلات مما توصلت إليه الأساليب كافة).

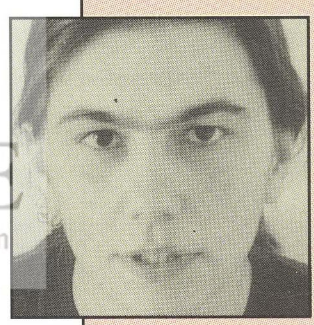
وعلى أي حال، فإن الديني والعادي العابر يتقاسمان ذات الاهتمام على قدم المساواة في أعمال زيلبرمان : حصان متمخطر وسائق عربة دلفي، عسس الليل لومبرانت وصورة مجهولة من القرن التاسع عشر، راقصة من بالي وجندي روسي، مصباح كهربائي ومنظر قمري – كل هذا قد أعطى المكانة ذاتها في هذه الأعمال المحكمة البناء، التي يتواتر خضوعها لأشكال آمرة هي المربع والمثلث، وأيضا الدائرة التي هي أكثر غلبة. وفي حقيقة تصويرية جديدة تلتحم رؤى من الأساطير والتاريخ، من الحاضر والماضي، من السحر والعلم، من السماء والأرض بكيفية أخاذة.

ليليانا مورو

تأليف : ماير رافائيل روبينشتين

لابد أن بزوغ نجم ليليانا مورو في معرض «دوكيومينتا التاسع» الذي أقيم في مدينة «كاسيل» بألمانيا الصيف الماضي كان مفاجأة بالنسبة لمن لم يتابعوا عن كثب مجريات الفن في ميلانو. وفي حضور نجوم «الفن الفقير» (آرت بوفيري) من أمثال لوسيانو فابرو، وجانيس كونيلليس، وماريو ميرز، كانت مورو في الظل باعتبارها امرأة وغير متمتعة بأي شهرة دولية. ولكن مورو كانت في الواقع تعمل وتعرض أعمالها منذ عام 1986 وسرعان ما اكتسبت الاعتراف بها لقدرتها المتوقدة على الخيال والتصور.

ومن خلال سهولة تنقلها بين الخامات والأساليب نجحت في تشكيل تمثال من زَبَد المطاط والروافع الهيدروليكية، وقطعة جمعت بين أشكال بالحبر لحيوانات وبصمات الصوت من فيلم فرانك كابرا «مستر سميث يذهب إلى واشنطن»، كما أنتجت عملا مركبا من اثنى عشر إناء زجاجيا وضعت بداخلها دمى مختلفة الأشكال من البلاستيك. وهي تعتزم البدء بالعمل بالفيديو. وتقول موضحة ذلك: «إنني أحاول ألا أحصر نفسي في شيء واحد أبدا».



الفنانة (ليليانا مورو)

والفنانة خشنة الملبس والطبع، ذات شعر أسود، وبينها وبين فريد كالو شبه ملحوظ - رغم أن أعمالها تختلف اختلافا كبيرا عن أعمال كالو التي تسد الطريق أمام الروح قسرا. ومثل معظم الفنانين الإيطاليين من جيلها، ترفض مورو حسية الاستغراق في الذات التي اتصف بها الفنانون الإيطاليون السابقون عليها، مثل فرانشيسكو كليمانتي، وتستعيض عن تلك الحسية بالتركيز على الحوار بين العمل والمساحة التي يوضع فيها.

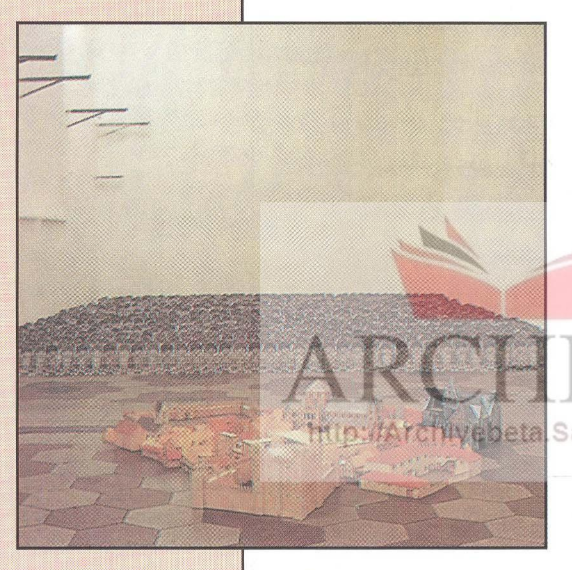
وهكذا عرضت الفنانة في أواخر الثمانينات أعمالها في أماكن لا يتوقع العرض فيها. وكان «البيت المحاصر» (كازا شيركوند ريالي) (1988) عملا مؤلفا من سلسلة من المرايا الخلفية مثبتة إلى قضبان نافذة سجن إيطالي. وفي مشروع يرجع إلى عام 1989 نصبت مذياعين في سيارة واقفة خارج ملهى ديسكو بميلانو، وأوصلت المذياعين بميكروفونات

العنوان الأصلي للمقال :

Italy, Liliana Moro.

عند مدخل الديسكو. ومضى المذياعان الموصولان بميكروفونات عند مدخل الديسكو ينقلان أحاديث الناس بالداخل إلى المارة بالخارج. وقد تخيلت مورو المذياعين «كائنين في سيارة يتبادلان الحديث».

وقد درست مورو المولودة في ميلانو عام 1961 «بأكاديمية بريرا للفنون الجميلة»، حيث كان فابرو واحدا من أساتذتها. وقد ألَّفْت مع ثمانية من زملائها هناك إحدى الجماعات. و«لم يكن ثمة شيء رسمي يجمع بينهم – على حد قول مورو – أكثر من فكرة كيفية الاقتراب من العمل». وفي عام 1986 أسسوا مجلة صغيرة بعنوان «الهدف المسير» (تيراكوريندو) ثم في عام 1989 بعد إنجاز دراستهم، استأجروا مساحة تصلح معرضا في «فيالازاوويلازي» بوسط ميلانو. وقد سمح لهم توافر مكانهم الخاص هذا ـ على حد قول مورو ـ «بالمضي قدما في العمل بهدوء، وإدخال التهذيب عليه» وذلك دون ضغوط من «النظام الذي سرعان ما يستغرق عملك».



ومن أجل «دوكيومينتا» أبدعت مورو عملين، كان أولهما صُفَّةً من أربعين دمية مطاطية من ذلك النوع الذي يباع عادة في محلات الجنس مدعومة بصوت يقرأ حكايات الجنيات. أما العمل الثاني فكان توازنا بين تجميع كروي من نماذج لأبنية من الورق المقوى وكومة علب (من الورق المقوى بدورها وتحتوي على مكبرات للصوت) وذلك على عامود فولاذي بارتفاع الركبة. وترى مورو في علب الورق المقوى هذه «وسيلة لاستخدام المكان لبناء نوع من المسرح».

ويبدو أن العملين المعروضين في دوكيومينتا ينحدران مباشرة عن مشيد مورو السابق «الإنزال» (أباسمينتو) الذي احتوى على ألف دمية من الورق المقوى ونموذج من لعب الأطفال لقلعة من القرون الوسطى. وقد أرادت مورو أن تجعل الناس «يطلون على العمل لرؤيته». ولهذا تعمدت أن تضع القطع على مقربة من الأرض. وبإرسائها هذه العلاقة بين الرائي ودمى الورق المقوى توعز إليه بأنها ترى فنها استمرارا للعب

تركز الفنانة التأملية على الحوار الدائر بين العمل الفني والفراغ الذي شيد فيه. والصورة لأحد تركيباتها التي سمتها «إنزال» (1992)، ويتألف من ألف دمية ورقية ونموذج لقلعة من العصور الوسطى. وغاية مورو من مثل هذه الأعمال أن «تجعل المشاهدين يطلون على العمل ليروه من أعلى».

الأطفال، كما تجبره على أن يضع في اعتباره المسافة بين الطفولة والمراهقة. وتعزز المقاربة بين الدمى وحكايات الجنيات وجهة النظر هذه.

وفي الخريف الماضي، قررت جماعة لازارو بالازي، وقد انخفض عدد أعضائها الآن إلى خمسة، أن تغلق المكان الذي منحهم اسمهم هذا، وذلك لأسباب اقتصادية من ناحية وبسبب ازدياد الطلب على أعمال كل واحد منهم من ناحية أخرى. ومنذ «دوكيمينتا» أضحت مورو نفسها شديدة الانشغال. فقد أقامت عرضا خاصا في قاعة «لوكوس سولوس» في جنوا. واشتركت في المعرض الذي أقيم بقاعة «إيمي فونتانا» الجديدة في ميلانو، ثم اختيرت ضمن مجموعة «متحف بيتشي للفن المعاصر» في براتو بإيطاليا.

ومن أكثر أعمال مورو لفتا للأنظار إليها عملها «ذكريات إيطاليا» (1991). فقد دعتها قاعة «هورتينس ستايل» بباريس لإبداع عمل داخل صندوق الدنيا، فاختارت مورو أن تعرض صورا من أعمال الأساتذة الإيطاليين القدامى على أجساد راقصات عارية. وقد احتج بعض الرواد المنتظمين على القاعة بأن الشرائح المنعكسة من آلة العرض غطت أجساد النساء برمتها، وأنها وضعت الشرائح أيضا في منظور تاريخي حيث أمكن للماضي والحاضر عبر حوار ثقافي الإشارة إلى موضوعات متنوعة من الفن والسياسة والنظرة إلى المرأة، بل ونظرة المرأة إلى نفسها.

وفي معرض أقيم منذ عهد قريب بقاعة «كازولي» في ميلانو، أعدت مورو مع زميلها المحنك برنارد روديجير عضو جماعة لازارو بالازي مشيدا مشتركا. وعلى حين ملأ رود يجير المساحة بعشرات من مواقد الغاز القديمة، أسهمت مورو بنموذجين مصغرين لمسرح وضعتهما داخل صندوقين على الأرض بحيث كان على المرء أن يركع ليراهما. وإنه لما يسم أعمالها كافة على وجه التحديد ذلك الانبهار بالكبير والصغير، ومواجهة أجساد البالغين بأحلام الأطفال. ولمساعدة جمهورها على فهم الدوافع الكامنة تحت هذه الفكرة، تسترشد بعبارة للكاتب الياباني «كوبو أبي» يقول فيها: «عندما تنظر إلى ماهو صغير، فأنت تريد الحياة مثلما تتأمل قطرات من الماء.. أو قفازات جلدية نقعت في الماء.. وانبسطت من جديد. أما عندما تتأمل شيئا ضخما، فأنت تريد أن تموت. مثلما تتأمل مبنى برلمان أو خريطة للعالم».

6. إسبانيا

تأليف: لوريل بيرجير

داريو باسو



صورة للفنان آنيبال كونتروماي (1990) ذات سطح مشقق جَعْد، وتكشف عن تأثر داريو باسو ببعض الفنانين الملمسيين مثل أنطوني تابييز ومانويل ميلاريس.

داريو باسو واحد من الرعاة الجوالين المحترفين. وتزوده تحركاته بالمادة الأولية للوحاته: وهي تكوينات تأملية كثيفة تلمس وترا حساسا في اللاشعور. ويسعى هذا الفنان الإسباني البالغ من العمر ستة وعشرين عاما على حد قوله «إلى آفاق روحية، أماكن أستطيع أن أدخلها، وأعيد تشكيلها».

وقد أمضى باسو العام الماضي في قرية يرجع إنشاؤها إلى الأربعينات بشمال إيطاليا، وعمل هناك في كنيسة من القرن التاسع عشر، حيث استلهم المنظر الخلوي الأشهب المنتمي إلى العصر الوسيط، والتصاوير الحائطية المتهرئة على جدران الكنيسة التي علتها الشقوق، ومضى يصور دوائر لولبية من عيون ودموع محفورة على سطح اللوحة.

ويقول باسو: «أردت شكلا كرويا صريحا وراسخا». وقد بُنيت سلسلة لوحاته هذه حول عين الرب الساهرة على كل شيء، التي تطل عليه من قبة الكنيسة. ويضيف قائلا: «سعيت إلى ابتداع تأثير متكسر في لوحة تستحث المشاهد على النظر إلى نفسه وليس العكس. وقد مضيت أراقب الشكل وهو يستحيل إلى دمعة. وتوالى الأمر بصورة حدسية، خارج حدود المنطق تماما».

وعلى الرغم من انتماء «باسو» إلى مصوري الثمانينات في مدريد، فإنه تربى في شمال إسبانيا ولم يعش في مدريد سوى الفترة الممتدة من 1984 إلى 1987. وقد كانت هذه - على حد قوله - فترة كافية لأن يتعهده بالصقل إدواردو آريو، وهو واحد من أبرز المصورين الإسبان في الستينات.

وإذ لم يشعر باسو بالارتياح إلى الجو الطقسي في «الأكاديمية

العنوان الأصلي للمقال:

Spain, Dario Basso

الإسبانية للفنون الجميلة» («استغرق بقائي هناك ثلاث ثوان»)، فقد وجد طريقه، وكان في سن الثامنة عشرة، إلى أحد الفصول الرئيسية «بدائرة الفنون الجميلة». وفي عام 1985 اختار داريو أحد أعماله ليعرض في معرض طلابي في قاعة «جامارا أي جاريجيس» بمدريد. وسرعان ما أقيم معرضه الخاص الأول بقاعة «أنتونيو ماخون»، وهي قاعة صغيرة في مدريد مخصصة للفنانين الشبان.

ومن شقته تحت سقف إحدى العمارات الشاهقة في قلب مدينة مانهاتن حيث أقام العام التالي، بفضل منحة من فولبرايت، يقول باسو: «كان الجو ساحرا ومشحونا بالعديد من المشاغل، وكان ثمة حوافز حقيقية ليس للإنتاج فحسب بل ولعرض أعمالك أيضا».

وفي عام 1987 على إثر زيارة للمغرب استغرقت ثلاثة أشهر، تدفقت سلسلة من لوحات مصفَّاة عن شمال أفريقيا بألوان رمادية صارمة وإيقاعات برونزية وضاءة، أشكال بيضاوية متجاورة، وأشكال أخرى عدائية وغير منتظمة.. شموس سوداء، وأنياب وكتب مقدسة تطفو بعرض اللوحة، وكتابات ملغزة تحاكي الكتابة العربية، منبسطة على مناظر طبيعية غائمة. هذا ما يسود تلك اللوحات المقتصدة.

وعلى إثر عودته إلى مدريد، فاجأ الجميع بسفره إلى باريس حيث أقام مدة ثلاث سنوات. وقد أعقب ذلك معارض له في «تريبولد» ببازل، و«هاينز هولمان» بكولونيا، ومعارض أخرى خاصة مختلفة في إسبانيا.

ويقول باسو موضحا: «احتجت إلى الابتعاد عن المشهد المدريدي كله. ففي إسبانيا مجرد خروجك للذهاب إلى حانوت عند ناصية الشارع يعتبر حدثا اجتماعيا». ثم يضيف قائلا : «على أنني بالإضافة إلى ذلك لا أريد أن أُزَجَّ في زمرة المصورين الفرنسيين الشبان».

وباستقراء انطباعات النقاد عن أعماله، نجد مقالة للناقد الإيطالي «أشيل بونيتو أوليفا» قدم بها عام 1990 معرضا لباسو، وكتب فيها يقول: «إن داريو باسو يستخدم اللون مثل درع واق لعمارة معنوية، واللوحات شواهد منقوشة بالأبيض والأسود لا تتحدث عن الحاضر فحسب، بل كذلك عن ماض من الأشكال والمضامين.»

وبفضل السطوح المشققة والجعدة، والعجائن السميكة من الأكريليك والمساحيق، والحفر المفرغة على قماش اللوحة، فضلا عن

المعادن المستعملة والأسمنت، تدين أعمال باسو بالكثير إلى المصورين الملمسيين من أمثال أنتوني تابيس ومانويل ميلاريس. ولكنه يمضي على أية حال في دربه الخاص.

وقد عرفته التجربة الإيطالية بألوان عصر النهضة. وهو يجتهد مؤخرا من أجل تحقيق خاصية لسطوح لوحاته أكثر نعومة وأقل كثافة، حيث يكون للخلفية والشكل حضور متساو.

وقد كُتب عن باسو الكثير في العام الماضي بمناسبة معارضه في بازل ومدريد وميلانو. وخصصت لأعماله أخيرا قاعة في «ديكادا دي لوس أو شينتا» في المجلس البلدي في مدريد، وهو معرض كرس لأعمال 17 فنانا من فناني الثمانينات من أبناء مدريد.

وقد استقر المقام الآن بباسو في نيويورك. ويقضي عطلات نهاية الأسبوع منقبا في حوانيت «تشايناتاون» و«كنال ستريت» عن الخامات التي تعنيه، ويقول إنه يشعر كأنه في بيته، كما يقول: «اعتقد أن الفنانين جميعا هم من ملاحي الأرغو» مشيرا بذلك إلى مجموعته عن «جيسون» وملاحي الأرغو. ويضيف إلى ذلك معلقا: «إننا نرحل على الدوام. وعملي هو خريطة لفكري. إنني أحب الخرائط المرسومة في القرون الوسطى، حيث أفضى القصور في المعرفة والاعتقاد في الأساطير إلى ابتداع مناطق مظلمة، الرجال فيها ذوو عيون تبظ من أعناقهم، والحيوانات ذوات رؤوس ثلاثة. قد لا يكون مثل هؤلاء الرجال أو هذه الحيوانات قد وجدت قط. لكنها شكلت على أية حال رؤيتنا للوجود. ذلك هو نوع الخرائط الذي أود أن أصنعه. ذلك هو ما أريد أن أعمله».



يعلق الفنان على هذه اللوحة بقوله: «في رأيي أن كل الفنانين ملاحون مثل ملاحي الأرغو في الأسطورة الإغريقية. فنحن في ترحال دائم، وعملي خريطة معبرة عن فكري».

نيستور كوينونيس

«إنني أصور لكي يفهم الآخرون، وأحاول أن أجعل أفكاري مباشرة للغاية». هذا ما يقوله نيستور كوينونيس، الفنان المكسيكي القوي، الوسيم، البالغ من العمر 25 عاما. وهو يعترف بأن «كل شخص يجب أن ينظر على أي حال من منظوره الخاص» ثم يمضي قائلا: «إن مايدركه أي شخص من لوحاتي أقل أهمية بالنسبة لي من أن فني يشجع بصفة عامة على التأمل».

تأليف: ماري شنيدر إنريكويز



السر الرابع (1992). ويقول كوينونيس إنها تتكلم عن غوامض العالم وأسراره والانسجام الذي يمكن أن يجمع بين الإنسان والعالم والله.

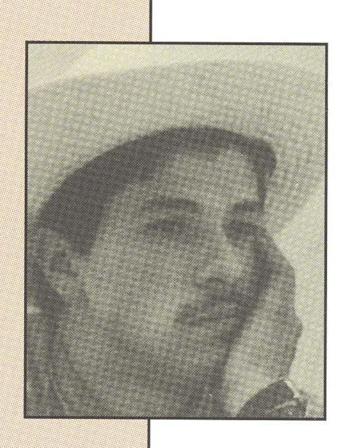
يقول كوينونيس: «إنني معجب بحكمة المكسيكيين السابقين على الفتح الإسباني. لقد احتفوا بما اعتبروه من أحاجي الحياة التي لا مناص منها. وكانت رؤيتهم أكثر عمقا وصدقا من رؤيتنا، فقد ركزت على الأساسيات، وانحنت إكبارا للغوامض. ومن خلال فني، أحاول أن أوقظ الإحساس بالأعاجيب لدى المشاهد».

ويقول إن لوحته «الأعجوبة الرابعة» (1992) على سبيل المثال إنما تتحدث عن غوامض الدنيا، والتآلف الذي يمكن أن يتحقق بين الناس، والكون، والله. وهذه اللوحة عمل كالصرح الشامخ المتفرد بالقوة والرهافة، على هيئة قطعة من هيكل مقدس، يضم إطارا يحتوي على غلالة رهيفة متألقة. وعند قاعدة الإطار وعلى كل من جانبيه هيئة أولية لرجل يكشف بدنه الشفاف عن الغلالة

العنوان الأصلي للمقال:

Mexico, Nestor quinones.

الموسومة بالصلبان من خلفه. وبأعلى يتلألأ غطاء نُضِّد في عناية بنجوم على خلفية من وهج وامض باد للعيان. وفي أسفل اللوحة كتب «الحب نور الآلهة». ويضمن كوينو نيس لوحاته أشياء مختلفة من منحوتات خشبية، ولباب الورق المضغوط، ونقوش من الحقبة السابقة على الفتح الإسباني، مما يحيل سطح اللوحة إلى مسرح تؤدي عليه الجزئيات المصورة أدوارها.



الفنان الشاب نيستور كوينونيس وهو يتأمل الحياة وألغازها التي لا مناص منها.

ويقول كوينونيس: «إنني أبحث عن بدائل للتعبير عن أفكاري، حاملا المشاهد على النظر إلى العمل من منظور مختلف، وأدخل الكلمات إلى لوحاتي لاعرض أفكارا وأومىء إلى أخرى، وألجأ إلى الغلالات لأشيع غموضا يمكنك أن ترنو من خلاله إلى ما وراءه».

وفي «الفأل» (1992) توفر الغلالة الفحمية مشهداً نورانيا، نرى من خلاله برجا من الألوان الزيتية وقطع الخشب شيد من قبضة يد إنسانية وضعت فوقها قبضة أخرى، في حين ثبت بأحد جوانب اللوحة نقش من المرحلة السابقة على الفتح الإسباني للمكسيك مُشكل من الورق المضغوط. ويقف بأعلى اللوحة وحش من البلاستيك ضئيل القد، شامخ الوجود، وقد أطبق قبضتيه في الهواء. وبمحاذاة إطار اللوحة كتب هذه الإشارة المقلقة: «الله يغفر على الدوام. الإنسان يغفر أحيانا. أما الطبيعة فلا تغفر أبدا».

وقد حظي كوينونيس في السنوات الأخيرة باهتمام عالمي، ووجد طريقه إلى عدد من المقتنيات المكسيكية المهمة. ومن بينها مقتنيات فرانسيسكو بيلليزي ولورينزو زامبرانو. ومنذ بضع سنوات كان ضمن مجموعة العارضين في معهد الفن المعاصر ببوسطن. وفي «البارليل بروجيكت» بلوس أنجلوس، وفي «الكازا أمريكا» بمدريد و«الكونست فيرآين بفرانكفورت». كما أقيم له معرض خاص في قاعة «أومر» بمدينة مكسيكو. وعرض مؤخرا في معرض الفنانين الدوليين لعام 1993 بفرانكفورت، وضمن مجموعة عارضين بمتحف التصوير

الزيتي في نيو مكسيكو.

وهو فنان علم نفسه بنفسه، ولم يكن التحاقه بمدارس التعليم العام إلا لفترة قصيرة وعلى نحو غير منتظم. فقد ذهب إلى المدرسة لمدة لم تزد على سبع سنوات حتى بلوغه سن الرابعة عشرة. ولكنه استعاض عن ذلك بالتعلم من أبيه ودراسة الفن والأدب والفلسفة من الكتب في البيت. وعلى خلاف أغلب المكسيكيين لم يتلق كوينونيس إرشادات دينية. «لقد أُعطينا الحرية. كان أبي يزودنا بالمواد الفنية والأفكار، وعلى الأخص كان كتاب الفلسفة الصينية القديمة المعنون «آي كينج» (كتاب التحولات) مهما بالنسبة لي، ومازال يشكل أفكاري. ولكن لم يحدث أن أخبرنا أحد كيف أو فيم نفكر قط.»

وعندما كان كوينونيس في الرابعة عشرة من عمره، غادر والداه المكسيك لأسباب صحية، وبقي هو وأخوه التوأم في بيت الأسرة الرحيب في مدينة مكسيكو: «عشنا بمفردنا أربع سنوات نصور ونقرأ. وفي الثامنة عشرة دعونا ثلاثة فنانين آخرين لاستئجار مراسم في بيتنا، وبدأنا نشاطا فنيا جماعيا باسم (كوينونيس يسترجعون الماضي)».

وقد قدر لهذا التجمع البوهيمي المغلق الذي أرساه الأخوان وعرف «بالكوينونيرا» أن يؤثر في جيل من الفنانين المكسيكيين الشبان. ويعيش اليوم هناك ثمانية فنانين يعملون في وسائط مختلفة، وسبعة فنانين آخرون لهم مراسم. ويقول كوينونيس: «إننا نشترك في الأفكار وننظم المعارض. ومعرضنا الأخير عن أثر البيئة في الحيوان والنبات. ومن المؤكد أن تثور خلافات بين الفنانين، فيعبر كل منهم عن وجهة نظره، ولكننا نوجد معا روحا تسري في أرجاء العرض». وقد مضت الجماعة منذ الثمانينات تعبر عن نفسها في لغة فنية عالمية، تتحاشى المجاهرة بموضوعات أو أيقونوجرافيات مكسيكية.

ويقول كوينونيس: «لابد أن أواصل البحث عن سبل للحديث في فني عما هو حدسي، وأن أعطي الفرصة للناس لكي يروا رؤية مختلفة من خلال أساليب ومواد أخرى»، كما يهدف كوينونيس إلى نفض التراب عن الإحساس بالغرابة والعجب لدى المشاهد الذي يكون عادة - على حد قوله - مدفونا تحت ركام مشاغل الحياة العصرية ومحاذيرها».

8. شيلي

تأليف : نينا أوسا

أرتورو دوكلوس

إن أرتورو دوكلوس المولود في سانتياجو، والبالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاما، هو بلا منازع نجم المدينة في مجال الفن التأملي. وهو شديد الارتباط بذكريات نشأته في فالباريزو، والمحيط الأثري لشوكواكماتا، ومنجم النحاس الأندياني حيث كان أبوه يعمل، وذكريات أيام حداثته التي كان مهتما فيها بدراسة اليهودية. أما اليوم، فهو مهتم بموقفه من تاريخ الفن، ويذكر كم غاص عندما كان صبياً في جذور فن القرن العشرين، وقرأ عن موندريان ومالفيتش وفناني الباوهاوس. وهو معجب بهم، لأنهم كانوا جميعا - على حد قوله - مبتكرين ومؤسسين عظاما.

يقول الفنان : «إنني مجسم، ومن طبعي أن أجسم الأفكار التي أستوعبها وأطبقها على الهدف الذي أسعى إليه».
واللوحة تصور أرانب مقطوعة الرؤوس جلدها منقط، اشتراها الفنان من الباعة المتجولين بالقرب من محطة سانتياجو الرئيسية للسكك الحديدية. والصورة تمثل الجزء الأساسي من لوحة بعنوان «التأمل الحق» (1992).

ويشغل مرسمه جناحا من بيته الذي يقع في حي قديم متهالك من أحياء سانتياجو تناثرت فيه قصور كان يملكها كبار الأغنياء في العقود الأولى من هذا القرن (والتي بدأت ، لدهشة دوكلوس، تصبح عصرية من جديد). والمرسم خافت الضوء، مرهف الترتيب: واحة من الهدوء في مدينة شديدة الضوضاء سريعة النمو.

وقد مضي دوكلوس يعرض بكثرة. وكان له معرض منفرد العام الماضي في قاعة «مارك باتراس» بباريس. وتعرض أعماله حاليا ضمن مجموعة المعرض الجوال «أنتي أمريكا» الذي ينظمه «بنك جمهورية

العنوان الأصلي للمقال :

Chile, Arturo Duclos.

بوجوتا» بالاشتراك مع «مؤسسة روكفلر»، وسوف يتوقف بكل من كاراكاس، وسان ديجو، وسان فرانسيسكو، وكانساس سيتي. وفي هذا الربيع كان لدوكلوس أعمال معروضة في «المدينة من خلال الثقافة» (لاسيتا ترانسكو لتورال)، وهو معرض لستة فنانين من أمريكا اللاتينية يقام في متحف سيدني للفن المعاصر وقاعة «أنينا نوساي» بنيويورك. وقد تلقى دوكلوس في العام الماضي منحة من «مؤسسة جون سيمون جوجينهايم التذكارية».

وعلى الرغم من هذه البدايات الناجحة، فمازالت أبجدية أشكاله غير ميسورة الفهم. ويدفع تلوينه القاتم لأشكاله المطبوعة على نحو صارم - لا يخلو من التكرار - يدفع تلوينه ذاك المشاهد إلى التوقف والتأمل والتفكير أمام تلك الأشكال المرسومة أو المعتمدة على عدد كبير من الخامات.

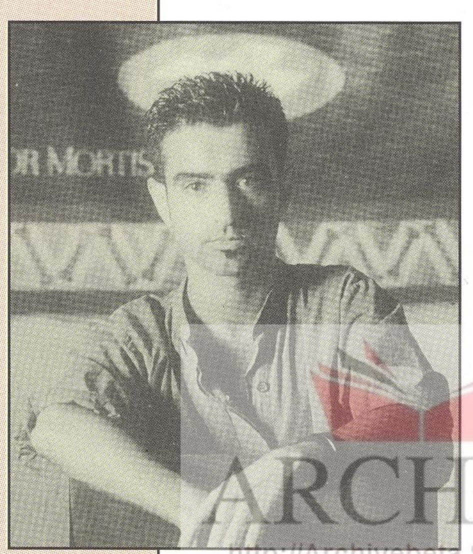
وقد دلَّ معرض دوكلوس في ديسمبر 1992 بعنوان «المتحف الخيالي» في سانتياجو على أن هذا الشاب النحيل القد، الرقيق، المتأمل، ناعم الحديث قد جاء إلى التعبير الفني مفعما بالحب لما هو مستبعد وخارج على المألوف. وقد قسم دوكلوس قاعة العرض تلك الى مساحات ثلاث، كل منها 9×17×10 أقدام ووضع في كل مساحة مشيدا إبداعيا صغيرا. وقد ترك هذا الترتيب مساحة مستطيلة مديدة علق فيها لوحة واحدة بالغة الطول.

وقد احتوى كل حيز مكعب على مشيد واحد، ولكن مجموع المشيدات بالإضافة إلى اللوحة المستطيلة، ألفت كلا أكبر بكثير من مجموع أجزائه. وقد حفلت أجنحة المعرض بثياب مستعملة، وقماش الطرطان، وورق حائط، وزنك مغضن. وعلى هذه التشكيلات علق دوكلوس ورسم مجازاته من الرموز المتناقضة: عظام ذرات ترابية، ملاك من البلاستر، زهور، كتب، أرانب نحيلة ميتة، علامة الصليب، مطرقة ومسامير صدئة، نجم يمثل التنوير، وسيوف عسكرية.

ويقول دوكلوس: «إن عملي هو التجسيم، وإني أجسم أفكارا أمسك بها وأطوعها لما أسعى إليه حقا» وعلى سبيل المثال فإن الأرانب في لوحته عن التأمل الحق «دي فيرا كونتيمبلاتسيوني» هي على حد تفسير

دوكلوس، صور مأخوذة من محلات شارع محطة السكة الحديد، على حين توجد بأعلى الأرانب وبأسفلها أربع خرائط للعالم: شمالا، وجنوبا وشرقا وغربا. وفي كل ركن رمز للقوة مختلف. على أن «الكل يلعب دورا في المشيد».

ويستطرد دوكلوس قائلا: «لقد سعيت، وسأواصل السعي بقدر طاقتي للربط بين التصوير التقليدي وبين أبجدية شيلية جدّ محلية من التصاوير - الدينية، والسياسية، أو المرتبطة بالأشياء الشعبية مثل الشعارات والشارات الرياضية.»



الفنان (أرتورو دوكلوس)

وقد أسمى دوكلوس واحدا من الأجنحة الثلاثة الصغرى «كونفيسيو أوريس» (اعتراف شفوي)، وهذه المساحة ذات الحوائط الثلاثة غطيت بثياب قديمة. وفي الغرفة التي أظلمت، خلف قاعدة تحمل ملاكا من البلاستر، تقع العين على صندوق صغير من ذرات المعادن. ويؤكد دوكلوس أنه أيا ما كانت الأشياء التي يملكها الشخص أو يستخدمها فهي تتضمن نوعا من الإفصاح عن أحواله، واستعمالها يجعل منها اعترافا شخصيا، فالأشياء المستعملة مشحونة بذبذبات شخصية، وتكتسب وزنا يتجاوز مجرد خصائصها المادية.

وقد تجلت بوضوح في العرض العاطفية الحدسية العميقة التي تراود دوكلوس الذي علق على ذلك قائلا: «إنني أتعامل مع مفهوم للمساحة المرئية يخضع المشيد لإملاءات اللوحة، وليس العكس. والحق أنك عندما تنظر إلى عملي، فإن ما تراه إنما هو نحو من التفكير، وهذا ما أريد أن أعكسه في اللوحة، ولكن ليس على نحو تأملي مفرط، لأنه شيء يتجاوز كل تأمل ويخترقه. ويختتم دوكلوس كلامه قائلا: «إن اللوحة هي الكل في الكل».

المارتينيشيكيان

تأليف : قسطنطين أكينشا

في سبتمبر الماضي غصت قاعة جويلمان بوسط موسكو فجأة بمئات من البشر ضئيلي القد. عاشوا في جزراستوائية تحت ظلال أشجار تكاد تشبه النخيل. كل شيء صنع من الطين ، السكان الأصليون صغار القامة، أكواخهم، جزرهم المغطاة بالنباتات الغريبة الأشكال، بل وقواربهم السابحة في النهر - الماء وحده في النهر كان حقيقيا.

كان هذا المشيد المسمى «سكان هو» من إبداع اثنين من الفنانين الشبان من أوديسا، هما سفيتلانا مارتينوفا، البالغة من العمر 28 عاما، وزوجها إيجور ستيبين، البالغ من العمر 26 عاما، وقد عرفا بالمارتينيشيكيين. وهما، مثل العديد من الفنانين هنا، لم يتلقيا أي دراسة احترافية للفن. فقد درست سفيتلانا فقه اللغة، أما إيجور فلم يتح له إلا أن يكمل الدراسة الثانوية. وفي الثمانينات أسهما في الحركة الفنية السرية لأوديسا، وركنا إلى تأملاتهما، وعرضا في عديد من المعارض المقامة في شقق سكنية. ولم يكن لفنهما لا الثقل شبه الفلسفي الذي كان لكثير من أنصار التصويرية في أوديسا، ولا الرمزيات السياسية العزيزة على رفاقهما في موسكو.



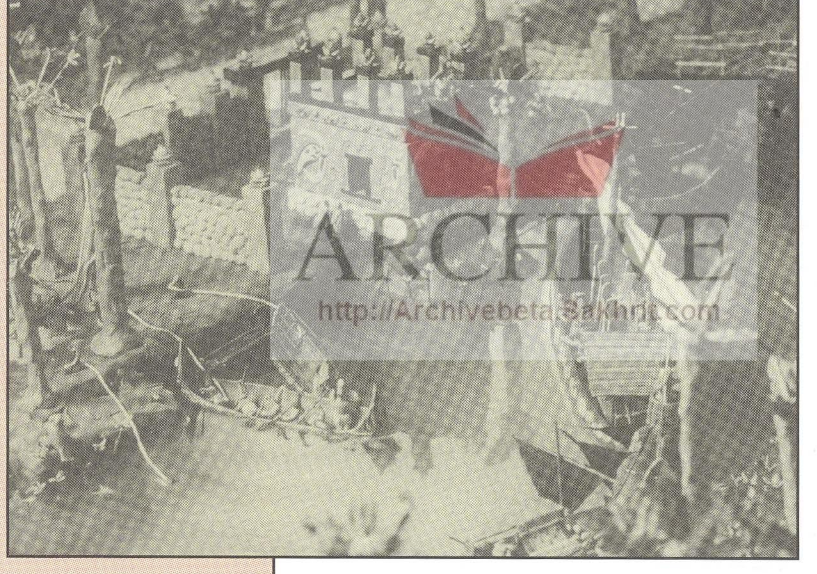
فنانان من أوديسا: سفيتلانا مارتينوفا (28 سنة) وزوجها إيجور ستيبين (26 سنة) ويعرفان باسم جماعي يميزهما في دوائر الفنانين الشبان في أوكرانيا «المارتينيشيكيان».

العنوان الأصلي للمقال :

Ukraine, The Martinchiki.

«لقد أبدعا عالما كاملا من الطين، بلغاته وأساطيره، وحروبه، ومجمع آلهته.

وذات يوم شرعا، كنوع من اللعب غالبا، في صنع أشكال من الطين. وهما يقولان معا إن «الكلمة التي كانت غائبة أول الأمر ظهرت في النهاية. أعطينا بعض أناسنا أسماء بدت مثيرة، ثم كتبنا لهم سيرا. لماذا سمي هذا الشخص، مثلا، تاوينو كرآت؟ من هم أسلافه؟ لماذا ينتهي اسمه بـ «آت»؟ وقلعة آرتيليون التي شيدها لنا هؤلاء الناس - لماذا كان اسمها بهذه الغرابة؟ وقد تبينا فيما بعد أن هذه القلعة سميت بهذا الاسم، وفقا لما ترويه أساطير أناسنا، لأن الكلب السحري آرت كان قد فقد طوقه هنا قبل عدة قرون مضت. ثم أدركنا أن هؤلاء القوم الذين يحملون أسماء ليس بالإمكان أن يعيشوا في بلد بلا اسم. وأن هذا البلد ليس بالإمكان أن يقع بين مجموعة جزر غير مسماة».



أدى هذا الكشف إلى ميلاد عالم جديد. وملأ الفنانان غرفتهما - وكانت في شقة مشاعة بعمارة متهالكة ترجع إلى عهد ما قبل الثورة - ملآ غرفتهما تلك بعشرات من الناس الجدد - مواطنين من بونابا، وأوللا، وكوجا، وشموجو، واشتيا سافتا، وجزر أخرى عديدة. وهؤلاء الناس الصغار يولدون ويموتون (لأنهم بطبيعة الحال مخلوقات فانية) ويجنون فواكه غريبة، ويشاركون في حروب محلية تنشب بينهم من حين لآخر، كما أنهم ينجبون أولادا.

ولكن مبدعي هـذا العالم مـا لبثا أن فقدا حق إمـلاء الأوامر على مخلوقاتهما واكتفيا بالمتابعـة فحسب. ثم أوجدا لكائنات الطين هذه لغات ومعابد، وكتبا تاريخية لكل قبيلة وسيرة لكل فرد.

لم يكن الكوكب المكتشف فـردوسا مفقودا على طريقـة جوجان، وأن مؤلفات التـاريخ وبحوث اللغة ودراسة الأسـاطير التي دبجها هـذان الفنـانـان عن أولئك النـاس لتـذكـرنـا بمجلدات الـوصف الأثنـولوجي للبـلاد «المتـوحشة» النـائيـة التي انتشرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ولم يكن الكـوكب الـذي اكتشفـه المارتينيشيكيـان هـو العـالم الخيالي الأول في الفن الروسي في الآونة الأخيرة. ففي الثمانينات ابتدع فنـان موسكـو التأملي كـونستانتين زفيستـوشيتـوف بلدا اسمـه «بيردو» لعب فيه البطيخ دورا غريبـا. ولكن إذا كان «بيردو» قد بدا في بعض الأحيان أقرب شبها بالاتحاد السوفيتي، فإن النزعة القبلية المثالية لجزر المارتينيشيكيين لا تبعث في الأذهان مثل هذه المقارنات السياسية.

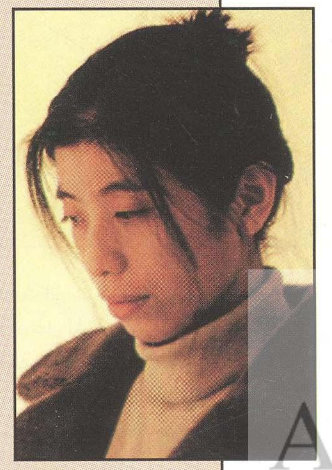
وإلى وقت قـريب كـان المارتينيشيكيـان يهبـان جـزرهما لأصدقائهما. أمـا الآن، فهما يبيعانها. وفي قاعة «رونالـد فيلدمان» للفنون الجميلة بنيـويورك أقيم عرض لهذا العمل. ويتلقى المشتري لقطعة من ذلك العـالم قامـوسا للغة النـاس الذين أصبحـوا ملكه، وسير حياتهم أيضا، ووصفـا للنبات والحيوان على جزيـرته. وبعد ذلك يصبح المشتري ذاته من السكـان الأصليين للمكان، ويمكنه أن يعامل ناسه كما يشـاء، فإما أن يتركهم في سلام ليحيوا في عصرهم الذهبي، أو يتـدخل في حياتهم بأن يبـدأ حربـا، على سبيل المثال، أو يجري تغييرا في الحكومة. وكل ذلك رهن بمشيئتـه. والشيء الوحيد الذي يطلبـه منه الفنانان المبدعان لهذا العالم هـو إخطارهما بمثل هـذه الأحـداث كلها، وذلك حتـى لا يخلو السفـر الكبير عن أخبـار كوكب «سي إي باي آيشانا هوبا». من آخر التطورات التي جرت.

10 ـ اليابان

تأليف: دانا فرائيس هانسين

راي نيتو

إن الفرص المتاحة للفنانين اليابانيين المعاصرين الشبان لبيع لوحة أو تمثال جد ضئيلة، حتى إن البعض منهم قد تخلى عن كل أمل في تحقيق دخل من فنه. وبدلا من ذلك تجدهم يمارسون الفن الطموح الفردي النزعة الذي يريدون أن يبدعوه رغم أنه لا يعود عليهم بالنفع. وليس من غير المألوف بالنسبة لفنان أن يصنع شذرات من قطعة فنية يودعها ركنا من أركان شقته، ثم يجمعها بعد ذلك في مشيدات مركبة تملأ حيز غرفة بأكملها (عادة ما تكون قاعة مستأجرة لفترة قصيرة كأسبوع مثلا)، وبعد ذلك يدمر كل شيء، لأن التخزين يكلفه كثيرا.



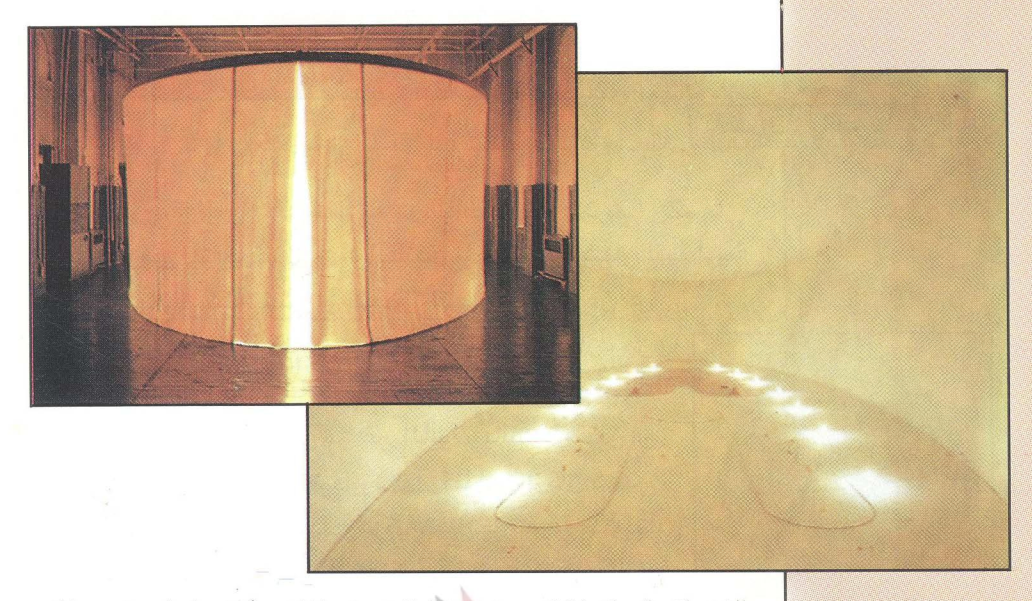
تعمل «راي نيتو» ببطء وتأن. ولم تنجز منذ سنة 1985 سوى ثلاث تركيبات أو مشيدات رئيسية، بحيث استغرق كل منها ما يقرب من عامين.

و«راي نيتو» البالغة من العمر إحدى وثلاثين سنة، واحدة من كثيرين تشكل فنهم تحت هذه الظروف. وعلى الرغم من أن زملاءها يعرضون في كل مناسبة، فإنها قد اختارت أن تركز طاقتها على أعمال ذات أحجام كبيرة. ومنذ تخرجها في جامعة موساشينو للفنون عام 1985، لم تبدع هذه الفنانة النحيفة القد التي لا تخلو من الملاحة - سوى ثلاثة مشيدات بيئية مهمة، باعتبار أن كل مشروع من مشروعاتها يقتضي منها عامين من التحضير. تقول موضحة. «إن عدد المواقع الصالحة لإقامة أعمال بها محدود للغاية هنا. ويغلب أن أتأنى في الوقت لأركز على عمل لموقع اتيحت لي الفرصة أن أتعرفه حقا». وتمضي قائلة: «ولو أتيح لي أن أسلك طريقي دائما، فلسوف أمضي سنة «للالتقاء» بالموقع والتخطيط للمشيد الذي سيقام عليه، وسنة أخرى لمجرد جمع العناصر والمقومات».

وقد خطت هذه الفنانة الجادة خطوات حثيثة منذ أن شغل مشيدها «مكان على الأرض» الذي أبدعته في الخريف الماضي المساحة كلها بقاعة ساجاشو بطوكيو. ثم أعقب ذلك عرض في سبتمبر الماضي في المعرض الذي نظمه المتحف الجديد للفن المعاصر بنيويورك تحت عنوان «المسيرة

العنوان الأصلي للمقال:

Japan, Rei Naito.



«مكان على الأرض».. يدخل المشاهد من شق مفتوح في الستار فيجد مكانا احتفاليا مفروشا ببساط عليه أشكال عضوية بدائية وبناءات ونماذج قزمية.

الفضائية»، كما كانت «نيتو» في الخريف الماضي أيضا واحدة من اثني عشر فنانا قدمهم متحف أوساكا القومي للفنون في عرضه للنحت الياباني في السنوات العشر الماضية. وتقضي نيتو حاليا ستة أشهر بنيويورك حيث تقيم وتعمل بفضل منحة دراسية من المجلس الثقافي الآسيوي. وتعرض رسومها الغنية بالإيماءات في فرانكفورت هذا الربيع ضمن كتاب معرض فرانكفورت لرسوم 93. وهى مكلفة للعام القادم إنتاج عملين كبيرين جديدين في باريس وويلز.

والأطر المحيطة بمشيدات نيتو الشهبية بالخرائط تُبْتَدَع على الدوام تبعا للمساحة محل النظر. كما أنها تكفل الانعزال عن الخارج. وتقول الفنانة: «هذا أول ما يلتقي به الزائر في أعمالي، مما يساعده على تعرف التجربة».

ويتكون المشيد المسمى «مكان على الأرض» من حجرة مسحورة يغشاها الظلام، وتخيم عليها خيمة أميل إلى الاستدارة صنعت من قماش صوفي أبيض. وقد أضيئت الخيمة من الداخل، وبدت ظلال ساكنها وهي تتحرك من جانب إلى جانب على سطحها. ويدخل المشاهد من خلال فتحة في الستار - وحده على الدوام، وقد خلع حذاءه وفقا لرغبة مبدعة العمل - فيجد حيزا احتفاليا متعالياً على الواقع شغل ببساط ذي أشكال عضوية أولية وتراكيب من دنيا الأقزام.

وعندما ننحني راكعين لتفحص هذا العالم المنمنم، ينتابنا الانبهار بالتفاصيل الدقيقة، المستندة إلى سلسلة تكوينات حيوية متراكبة ومجسمة تتخللها أشكال من اللباد، وصفوف من البذور المجففة، وأقواس من الخيزران، وقلاع غامضة - لا يبلغ ارتفاع بعضها بوصة واحدة - صنعت من قطع الأسلاك وكرات من الشمع. إنها شبكة من البنائيات المترابطة الموصولة بجزازات من الأورجانزا وقطع البامبو، ومواد أخرى متنوعة يدخلها الرمل والحجارة وأوراق الزهر والعدسات وشظايا الزجاج المهشم. وفي الوسط شكل أشبه بحقيبة منبعجة صنعت من الأسلاك، ولشدة واقعيتها تبدو وكأنها تتنفس حياة.

وأماكن «نيتو» ذات تأثير قوى، بما لها من قدرة على إثارة الذكريات، لأن المشاهدين يجلبون إليها دلالاتهم الخاصة بهم. وتدرك «نيتو» جيدا تلك القدرة التي لأعمالها على تحريك مشاعر المشاهدين وتقول: «إن أماكني وأشيائي تكمل بحضور الزائر وخياله وتجاوبه».

وتحتل بلا أدنى شبهة خطأ أشكال أنثوية مخصبة جزءا مركزيا في أبجدية نيتو، ولكنها عندما تسأل عما إذا كان فنها نسائيا، توضح بحسم قائلة: «لا أريد أن يرى الناس هذا المشيد وفي أذهانهم أي أفكار مسبقة. كأن يقولوا (هذا عمل عن النساء فحسب) إن عملي أكبر من ذلك بكثير».

وتقدم مشيدات «نيتو» السحرية أكثر من ملاذ يحمي من الكثافة والضوضاء الملاصقين للحياة المعاصرة في اليابان، وهي تقول: «إن واقعة الوجود تتضمن معنى الاحتفال، وتعبر أعمالي عن يقيني واقتناعي بذلك. إن كل زائر يدخل بمفرده إلى هذا الوجود، وفي هذا الزمان وهذا المكان الباعثين على التأمل يمكنه أن يتصل بحقائق أكثر عمقا».

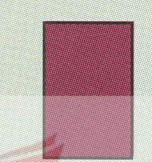
اليانور هيرتني مشاركة في تحرير «أخبار الفن» (آرت نيوز) - سارة جيننجز: مراسلة «أخبار الفن» في أوتاوا - وليام فيفر: مراسل لأخبار الفن في لندن - ديفيد جالواي مراسل «أخبار الفن» في ويبرتال - ماير رافئيل روبنشتين ناقد فني حر وأمين متحف - لوريل بيرجر مراسل «أخبار الفن» في مدريد - نينا أوسا مراسلة «أخبار الفن» في سانتياجو - قسطنطين اكينشا مراسل «أخبار الفن» في موسكو - دانافرائيس هانسين أمينة متحف وكاتبة مقيمة في طوكيو.



تأليف: جون مودي

ترجمة: د. مرقص عوض

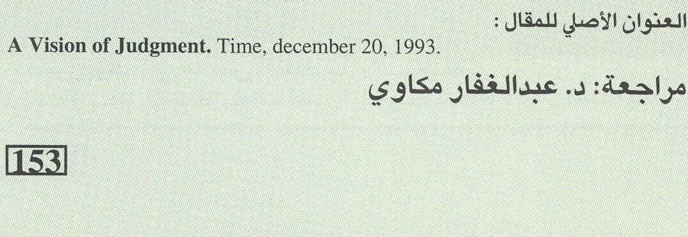
ليوم الحساب



(لوحة مايكل أنجلو الجدارية عن الرؤية الكوارثية تستعيد قوتها الفريدة في إثارة الرهبة والإلهام بعد إتمام ترميمها)

كان تأثير العمل المكتمل غامرا على البابا بولس الثالث عندما شاهده عند الكشف عنه لأول مرة في 31 أكتوبر سنة 1541، فجثا على ركبتيه متضرعا إلى الله قائلا: «رب لا تؤاخذني حسب خطاياي عندما تأتي في يوم الحساب».

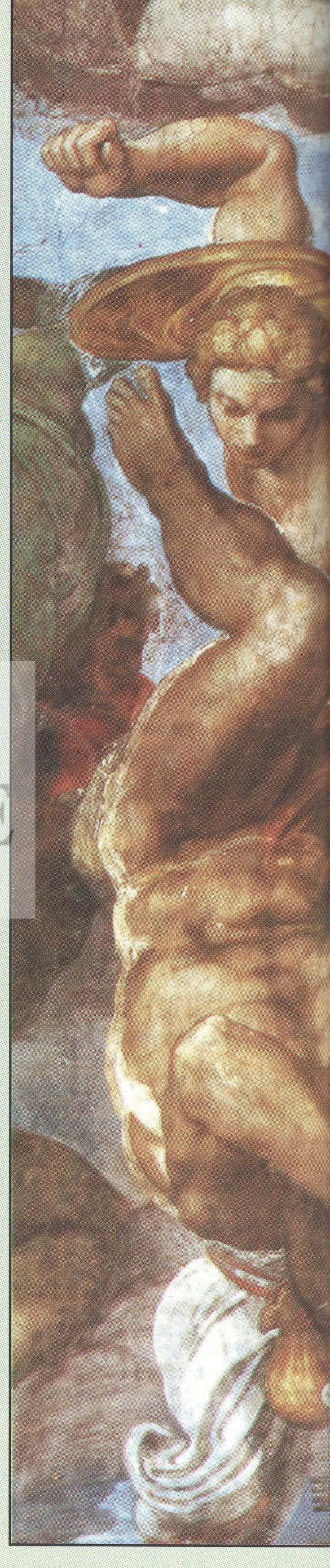
وكان ذلك بالضبط الانفعال نفسه الذي حاول «مايكل أنجلو بوناروتي» بلوغه في لوحته الجدارية الخالدة على الحائط الغربي لهيكل كنيسة سيستين. وعلى مر القرون، ظلت جدارية الحساب الأخير، بقوتها الروحية السامية وبرمزيتها الباقية، تثير الخوف من الله في نفوس رجال الدين المتعجرفين والخطاة البسطاء على السواء. ولكن مرور الزمن أوقع العقاب على اللوحة الرائعة نفسها أيضا. فتراكم عليها غبار القرون وحجب عظمتها الأصلية، وجعل ألوانها الحية الزاهية، خافتة باهتة، واختفت

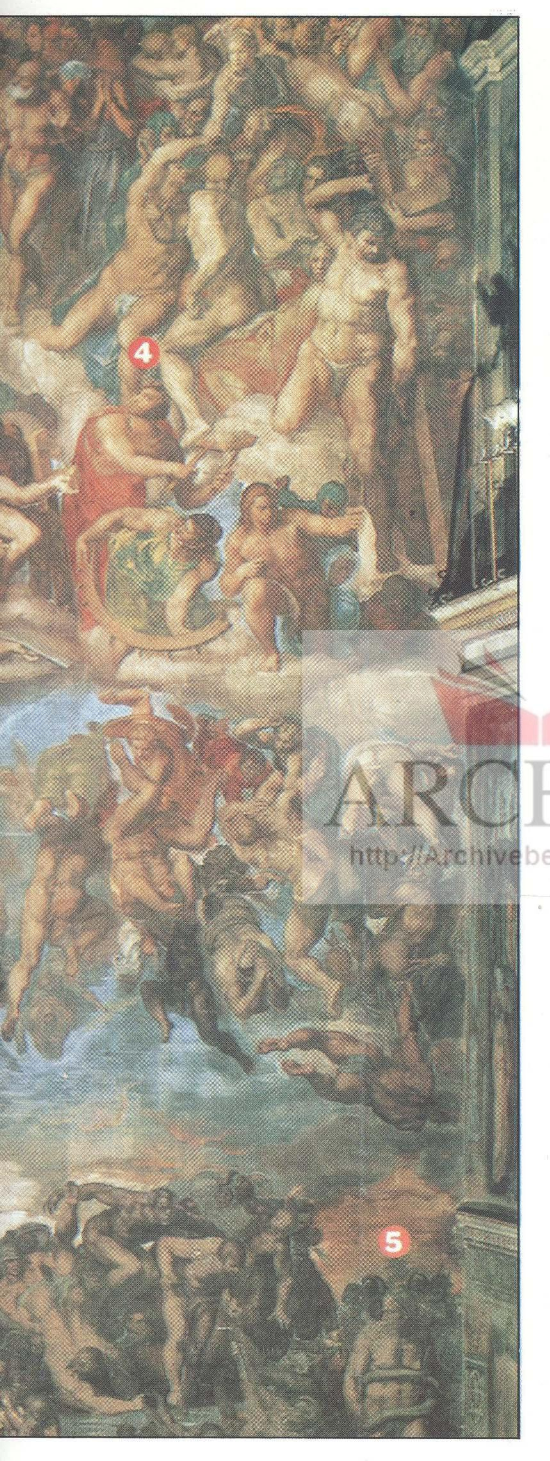


العنوان الأصلي للمقال:

A Vision of Judgment. Time, december 20, 1993.

مراجعة: د. عبدالغفار مكاوي





مواضع كاملة منها خلف الهباب.

ولكن يظهر أن تنظيف اللوحة الذي أوشك على الاكتمال قد أزال معظم ما أصابها، كما يتبين من مجموعة الصور التي حصلت عليها مجلة تايم. وقد عرضت نتائج عملية الترميم في أبريل الماضي في قداس عيد الفصح المهيب الذي أقامه البابا يوحنا بولس الثاني. ويعتبر هذا العمل حدثا مهما بالنسبة لعالم الديانات وبالنسبة لعالم الفنون على السواء.

تقول مؤرخة الفنون كاثلين فلجاريس براندت بجامعة نيويورك، وهي التي تابعت هذا المشروع: «إن فكرتنا عما يحدثنا به الفن عن الله قد تشكلت بما قدمه لنا مايكل أنجلو أكثر من أي فنان آخر وبلوحة «الحساب الأخير» أكثر من أي لوحة من لوحاته الأخرى». وعلى كل حال، فعالم الفن سيكون هو الأقدر على تمحيص المحصلة النهائية، بعد الترميم المثير للجدل للوحات الثلاث والثلاثين السقفية في كنيسة سيستين، الذي تم في سنة 1989.

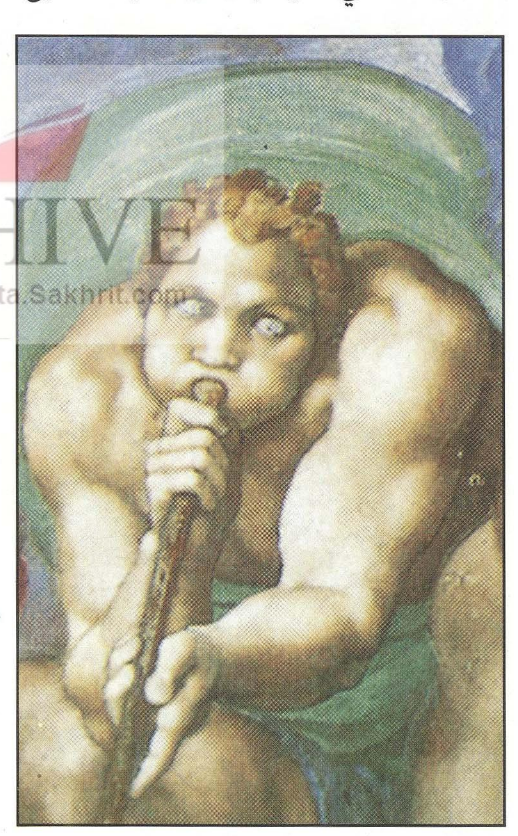
رسمت جميع اللوحات السقفية ولوحة الحساب الأخير على الجص الطري، وفي هذه التقنية تطلى الألوان على الجص وهو لا يزال مبللا فيتشربها السطح على حين هو يجف. ويعترض النقاد بأن استعادة



الحكم الأخير: اللوحة الجدارية المحتشدة برسوم 300 شخص قبل أن يبدأ تنظيف الفاتيكان لها، وتفاصيل العمل المرمم الذي أوشك على الاكتمال:

رسوم السقف ستحدث تغييرات غير مرغوبة في ألوان مايكل أنجلو، ومن الصعب أن تنجو عملية ترميم وتنظيف جدارية «الحساب الأخير» ــ التي ربما كانت أشهر وأهم لوحة جدارية في العالم ـ من مثل هذا الاعتراض.

ورغم ذلك فأثر عملية التنظيف هذه يظل عظيما. فمن الألوان التي انكشفت روعتها ذلك الأصفر المضيء الأخاذ في الهالة التي تحيط برأس السيد المسيح،



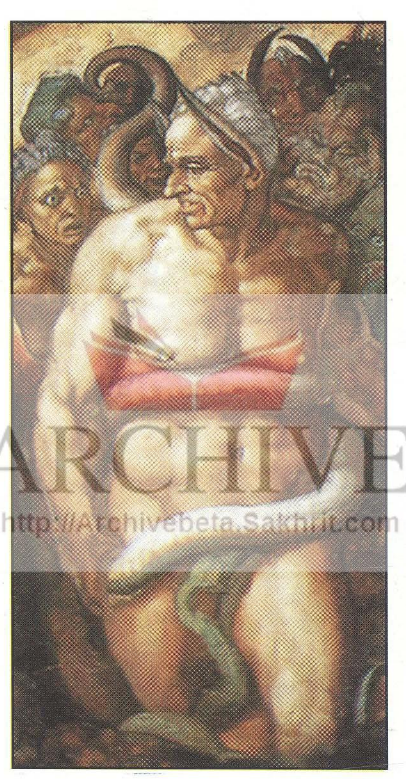
2 ـ ملاك في المجموعة التي تلي السيد المسيح ينفخ في البوق

1 ـ نفسان مخلصتان تذهبان إلى الفردوس.

وذلك الأزرق اللازوردي النابض بالحياة الذي استخدمه مايكل أنجلو في تلوين السماء. يقول فابريزيو مانسينللي، وهو خبير وأمين الفاتيكان على فنون عصر النهضة، إن هذه اللوحة لم تلون بالألوان التوسكانية التي يمكن أن ترتبط بمايكل أنجلو الذي عاش فترة طويلة من حياته في فلورنسا، بل الأحرى أنه استخدم مجموعة ألوان البندقية التي تتميز بالدفء. ومن الواضح أن مايكل أنجلو شاهد أعمال تيتان وتأثر بها».

ولوحة الحساب الأخير تصور دوامة مائجة برسوم أكثر من 300 شخص، يمثلون في المقام الأول رجالا ونساء يواجهون مصيرهم. وعلى حين يتخذ

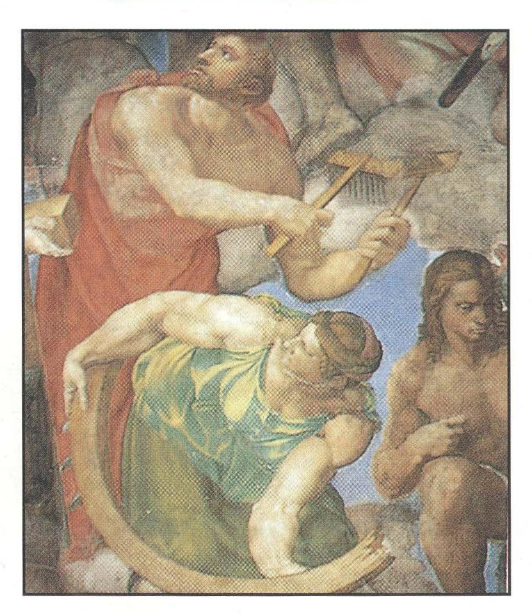
السيد المسيح بجلال خطوة إلى الأمام في وسط اللوحة، يومىء ويتصارع ويتذلل حوله القديسون والملائكة والمخلصون والملعونون في لحظة الهول العظيم المشتركة هذه. وفي أقصى أعالي اللوحة يتعانق ملكان، على حين يداعب ملاك آخر، بحياء، لحية رجل هرم. ثم يلي ذلك وإلى اليمين ملائكة مقاتلون يدفعون بالملعونين إلى الجحيم. ويُرى بوضوح مفتاحا القديس بطرس الضخمان، المصوران بالأسلوب الروماني القديم، الذهبي للسماء والفضي للمطهر. وسبعة الملائكة المذكورون في سفر الرؤيا ينفخون بشدة في الأبواق، منتفخي الوجنات، ومظهرين كتابين للأشخاص على المستوى التالي في اللوحة: أحدهما سفر ضخم دونت فيه أسماء المحكوم عليهم بالذهاب إلى الجحيم، والآخر كتاب صغير دونت فيه أسماء أولئك الذين استحقوا الخلاص.



5 - داشيسينا، على هيئة مينوس، وثعبان يعض أعضاءه الجنسية

وبمجرد أن تعرض اللوحة المجددة سيوجه الكثير من المدح - أو اللوم - إلى مرممها الرئيسي: جيانلويجي كولالوتشي - 64 عاما - الذي ترأس الفريق الذي قام بتنظيف السقف أيضا. وعلى مدى أربع السنوات الماضية وخلف ستائر القماش التي حجبت العمل عن عيون الناس، كان كولالوتشي وثلاثة مساعدين يقومون أولا باختبار محاليل التنظيف المختلفة والزمن اللازم لوضع كل منها، ثم عملية التنظيف الفعلية. وكلها أعمال تحتاج إلى الذكاء والعلم بالقدر نفسه. يقول كولالوتشي: «لتنظيف (الحساب الأخير) لابد أن تعايش روح العصر نفسها التي رسمت فيه، وأن ترى العمل من خلال عيون الفنان، ولكن باستخدام التقنيات الحديثة».

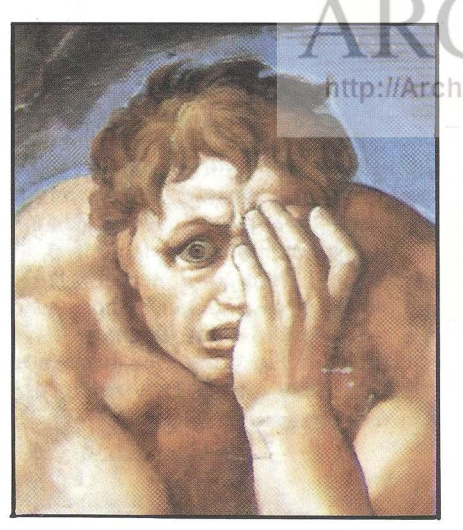
كان كولالوتشي في شبابه - وهو خريج معهد روما المركزي للترميم - يعمل في الستينات كمنظف لوحات تحت التمرين، فيعتلي سقالات الكنيسة، مسلحا بأدوات



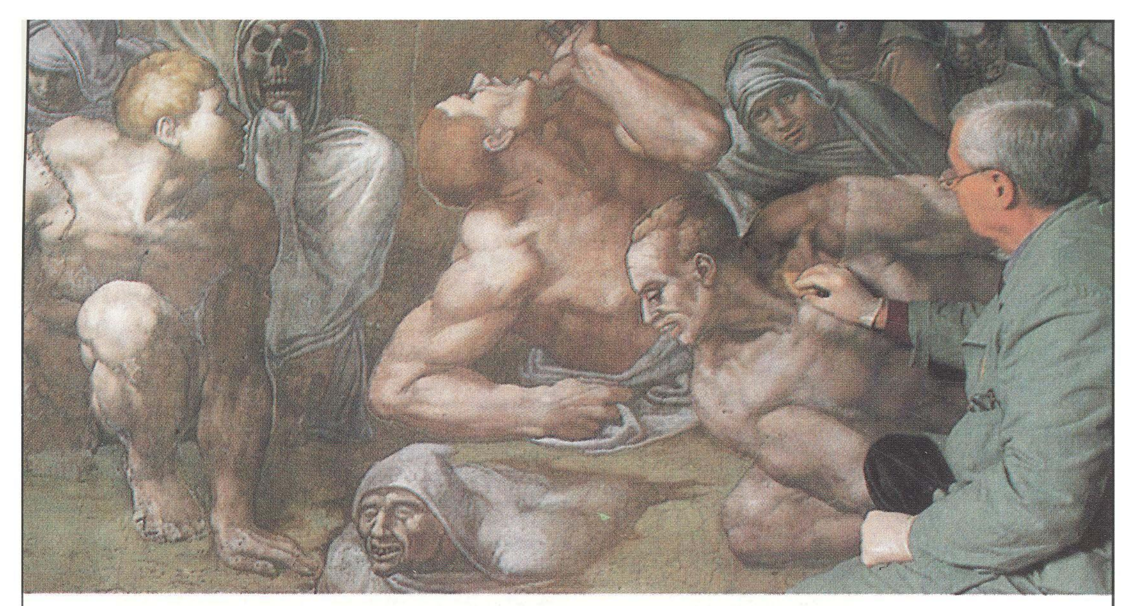
4 ـ القديسة كاترين تحمل جزءا من عجلتها.

التنظيف التقليدية: ذيل الثعلب، ومجموعة فرش من فرو السمور. وكادت حساسيته الشديدة للغبار أن تقذفه إلى حرفة أخرى، ولكنه قاوم واستمر، ووجد ـ مثل مايكل أنجلو ـ أن أعماله لابد أن تصحبها المعاناة والعذاب. يقول كولالوتشي: «ليس المهم أنه غبار مايكل أنجلو، فهو يجعلني أعطس على كل حال».

ورغم أن أنف كولالوتشي لايزال حساسا، فإن أدوات التنظيف التي أصبح يستخدمها الآن صارت أكثر تعقيدا. فبعد أن قضى عاما كاملا في دراسة طبيعة الجدار الذي صورت عليه اللوحة، قبل أن يقوم بأي تنظيف للصورة، التقط معاونوه ألبوما متكاملا من الصور بالأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية للتعرف على المواضع التي قد تثير المتاعب أثناء العمل. وقد أظهرت الصور السبكتروفوتومترية، أي المصورة بأداة قياس شدة الضوء النسبية بين مختلف أجزاء الطيف، للمرممين المواضع التي استعمل فيها مايكل أنجلو تكنيك الرجصفة، أي الرسم على الجص الجاف، والتي ينبغي تنظيفها بطريقة مختلفة. وقد اقترح نحو أثني عشر منظفا مختلفا قبل أن يستقر رأي الفريق على محلول مكون من الماء المقطر به نسبة 25٪ من كربونات الألمونيوم. وبدأ يظهر من خلال ذوبان الطبقة المظلمة أكتاف ورؤوس المخلصين



3 ـ التكبر يغطي وجهه في ألم وكرب.





جهد عقلي: المرمم الرئيسي في المشروع: جيانلويجي كولالوتشي، يمسح بحرص بإسفنجة مبللة بالماء المقطر قسماً من اللوحة الجدارية، ويفحص تفاصيل جزء تم تنظيفه ويصور رأس القديس برثلماوس، ثم وهو يضع ورقا خاصا خاليا من الأحماض يساعد على تفكيك الأتربة والهباب.

والملعونين لأشباح حقيقة من القرن السادس عشر، ظلت مختفية لمئات السنين. ويعلق مانسينللي قائلا: «كانت لوحة الحساب الأخير مقززة تماما، وقذرة بدرجة مذهلة، أما الآن فيمكنك أن ترى كل شيء حاول مايكل أنجلو أن يقوله».

وقد ناسبت رسالة الفنان عن الجزاء الإلهي روح عصره، ربما إلى درجة كبيرة للغاية. فروما في سنة 1527 نهبها الإمبراطور شارل الخامس، واضعا النهاية الفعلية لعصر نهضتها. وكانت الكنيسة الكاثوليكية تحاول التكيف مع التحدي الذي أثارته حركة الإصلاح البروتستانتي. وأدى التطاحن بين العائلات الكبيرة فيما يعرف الآن بإيطاليا، ومراوغات السياسات البابوية، إلى شعور عام بعالم شديد الغموض. وقد أراد كل من البابا كليمنت السابع الذي بدىء في عهده برسم لوحة الحساب الأخير، وخليفته البابا بولس الثالث، أن يدوي هذا العمل الفني لمايكل أنجلو كتحذير بأن الطريق الوحيد إلى خلاص الرب هو من خلال الكنيسة الكاثوليكية.

وتنعكس بوضوح في «الحساب الأخير» ــ ربما الآن أكثر من أي وقت مضى - الطريقة التي سيتم بها هذا الحساب، ويأس الخطاة. وعلى عكس الافتراض السابق بأن نظرة السيد المسيح هي نظرة غضب، تبين من اللوحة المنظفة حديثا أن وجه المسيح ــ الذي اعتمدت ملامحه بجرأة على ملامح تمثال الإله أبوللو الوثني المطل على فناء الفاتيكان - ينم عن عدم الصبر، كما لو كان يقول: «صمتا، سأعلن الآن الحكم الأخير». وربما كان الأكثر إثارة للانتباه أنه لا يوجد في اللوحة أحد - باستثناء العذراء مريم ــ لم يفاجأ بمجيء الخلاص، والخوف البادي على الجميع يؤكد ذلك. ويلاحظ مانسينللي: «أن طريقة مايكل أنجلو في التعبير عن هذا - أي عن عدم اليقين - لم تكن متفقة مع مفاهيم الكنيسة في ذلك الوقت. فقد كانت الكنيسة تريد أن تبرز نفسها باعتبارها اليقين الوحيد، وبدلا من ذلك أظهر مايكل أنجلو أن لا أحد ولا شيء مؤكد»، بما في ذلك الفنان نفسه.

فقد صور مايكل أنجلو نفسه بصورة تثير الشفقة على شكل جلدي بشري مسلوخ يحمله القديس برثلماوس أثناء استشهاده، وهي صورة شاعت كدليل على أن الفنان كان مشفقا على مصير روحه الخالدة. بل استغل مايكل أنجلو اللوحة لتصفية بعض المسائل الشخصية. ويقال إن تشريفاتي الاحتفالات الذي كان يعمل عند البابا بولس الثالث، وهو بياجيو داسينا، قد قال بازدراء لما شاهد زحام الأجساد العارية المصورة في اللوحة، إن هذا الفن مكانه...، وليس في كنيسة البابات. وقد خلد الفنان هذا التشريفاتي المفرط الاحتشام بتصويره الملك مينوس، الذي يحكم على مجموعة من الخطاة الهالكين، وهو نفسه في قبضة ثعبان عظيم غاصت أنيابه في أعضائه الجنسية.

وقد تعقدت المحاولة الأخيرة لتنظيف «يوم الحساب» بالمحاولات السابقة، فقد

أدت قوانين الاحتشام التي أصدرها مجلس مدينة ترنت سنة 1564 إلى تفويض مجموعة من الفنانين الصغار بكسوة بعض رسوم مايكل أنجلو المفرطة العري. وبعد نقاش طويل قرر الفاتيكان السماح بإزالة هذه الإضافات باستثناء تلك التي نفذها مساعد مايكل أنجلو، دانييل دا فولتيرا. ويقول كارلو بيترانجيلي، مدير عام متحف الفاتيكان: «إننا لو أزلنا كسوات دافولتيرا الآن، فلن نجد تحتها إلا الحيطان العارية» مشيرا إلى أن بعض رسوم مايكل أنجلو الأصلية لن يمكن استعادتها.

ومن وجهة نظر المرممين المحدثين، ومحبي الفن، فإن البابا بولس الثالث كانت لديه أسباب قوية تجعله بالفعل يقلق على الكيفية التي سيحاسب بها. فقد كان يقيم هو، ومن جاء بعده، صلوات القداس على مذبح كنيسة سستين الموجود تحت لوحة الحساب الأخير. وفي بعض المناسبات، مثل جنائز الفاتيكان، كانت توقد نحو 100 شمعة مصنوعة من الدهن الحيواني الغليظ، ترسل أشرطة من الهباب اللاذع إلى أعلى، طامسة أجزاء من اللوحة طمسا يتعذر معه معرفتها بعد ذلك. ومن الممارسات العنيفة الأخرى إقامة قبة فوق المذبح في القرن السادس عشر، مدعومة بأربع حلقات حديدية ثبتت في اللوحة بالقرب من موضع الملائكة الذين ينفخون في الأبواق. والأدهى من هذا أن العمال كشطوا بسلالمهم أكثر من ذلك من اللوحة.

صورة ذاتية لمايكل أنجلو، وبقعة زرقاء تبين اختبار التنظيف

أدت التنظيفات السابقة في الواقع إلى أضرار أكثر مما نفعت، خصوصا تلك التي اعتمدت على منظفات مشكوك فيها مثل النبيذ اليوناني اللاذع. يقول بيترانجيلي: «كانت الشموع سيئة جدا، ولكن الأسوأ منها تلك المحاليل الغروية التي تطلى بها أسطح اللوحات لتحيي ألوانها، فكان الهباب والتراب يلتصقان بالغرويات، وتزداد هذه التراكمات التصاقا بالصور بمرور القرون. لقد كانوا يحاولون في الماضي تنظيف اللوحات، ولكن النتائج كانت مرعبة فتتغير الألوان بشكل محزن، ومن ثم كانوا يرغمون على توسيخها مرة أخرى».

وقد وقع المرممون على بعض الأسرار الفنية بطريق المصادفة. فعلى حين كانوا ينظفون أسفل يمين اللوحة في المكان الذي يصور «خارون» يستعين بمجدافه على طرد الخطاة من قاربه في نهر ستكس، اكتشفوا حرفي دي وسي، اللذين لم يلاحظا أبدا من قبل. وهم يعتقدون أنهما توقيع تعسفي لاسم دومينكو كرنفالي، الذي عمل في اللوحة في القرن السادس عشر.

وقد أجاب التنظيف عن سؤال طال الجدل حوله أيضا، وهو سبب إصرار مايكل أنجلو على أن يميل الجانب الأعلى من الحائط إلى الداخل بنحو 24سم. وكان التفسير الرسمي يقول إن الميل يجعل من الصعب على الغبار أن يستقر على الحائط. إلا أن خبراء الفاتيكان يظنون الآن أن مايكل أنجلو كان يريد خلق وضع للمشاهدة المريحة أيضا. والحقيقة أن رسومه كانت ستشاهد من أسفل وليس من السقالات التي كان يرسم فوقها. يقول مانسينللي: «كانت الرسوم خارج نطاق المشاهدة إذا وقفت قريبا منها، ولكن تذكر أنها كانت ستشاهد من الأرض، وهذه تقنية متقدمة جدا»، خصوصا إذا أخذنا في الاعتبار أن الفنان لم يكن يرغب في هذا العمل، وأصر على أن يعرف نفسه في العقد بـ «مايكل أنجلو المثال» قاصدا بذلك أن الرسم مطلب أساسي في النحات.

ورغم خوفه من الموت، عاش مايكل أنجلو 23 سنة بعد إكماله« ليوم حسابه».ومن بين أعماله الأخيرة: الرسوم الجدارية في كنيسة بولين في الفاتيكان، واستكمال مقبرة البابا يوليوس الثاني، وصورتان للسيدة العذراء وهي تنتحب على جسد السيد المسيح وقد شوه إحداهما في نوبة غضب انتابته، وتصميمات لبوابة بيا في روما، وقبة كنيسة القديس بطرس. ويعتبر هذا النحات التوسكاني الفذ أعظم عباقرة الفن في كل العصور، وقد توفي في سنة 1564 عن عمر يناهز التاسعة والثمانين. وفي اعترافه الأخير انتحب قائلا: «أشعر بالندم على أني لم أعمل بما فيه الكفاية لخلاص روحي». ولكن الذين شاهدوا الحساب الأخير المرممة يجدون لديهم سببا قويا – ولو لمرة واحدة – للاختلاف مع الأستاذ العظيم.

هل تستطيع ثقافة ما أن تمنع آثار الأيدز؟



تأليف: كاثرين تيستمين
وبيتر كولز

ترجمة: مريم سليمان الشميري

ينتشر مرض نقصان المناعة المكتسبة - الأيدز - في دول شمال أفريقيا والشرق الأوسط ولكن ببطء شديد عن أي مكان آخر. البعض يقول إن الإسلام يعمل كمانع لهذا الفيروس.

قبل سنوات مضت جاءت سيدة اسمها عائشة إلى مستشفى ابن رشد في كازبلانكا بعد أن علمت أنها مصابة بفيروس مرض نقص المناعة المكتسبة الأيدز. إن زوجها العامل المهاجر أخفى عنها إصابته بهذا المرض قبل زواجه منها ثم توفي على إثره. كما توفي طفلها للسبب نفسه. لقد نُبذت عائشة من عائلة زوجها وأخواتها وإخوانها خوفا من العدوى والإصابة بهذا المرض.

العنوان الأصلي للمقال
Can A Culture Stop AIDS In Its Tracks. New Scientist, 11 September 1993.

مراجعة: د. سعد بن طفلة العجمي

عائشة ماهي إلا واحدة من فئة قليلة ولكنها في ازدياد مطرد في مجتمعات الدول الإسلامية من المصابين بهذا الداء. ومن الصعب الحصول على معلومات عن مرض الأيدز في هذا الجزء من العالم الذي يندر فيه تداول النقاش في أمور الجنس وتمنع الدعارة، وغالبا ما ينظر إلى مرض الأيدز كعقاب وخزي من الله. وتشير البيانات الرسمية إلى أن مرض الأيدز لم يتفش بعد في دول العالم الإسلامي بمعدلات دول أفريقيا الوسطى وأوروبا وشمال أمريكا. والسؤال الآن: هل صدت التقاليد المحافظة الوباء عن أراضيها أو أنها حجبت عن العيان الوجه المألوف لهذا المرض؟.

طبقا لإحصائيات منظمة الصحة العالمية (WHO)، هنالك أقل من 1200 حالة مسجلة عن الأيدز في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. ولكن مثل هذه الإحصائيات تفتقر إلى الدقة، إذ إن تقديرات المنظمة تشير إلى أن هناك عشرة آلاف حالة تقريبا في المنطقة حتى الآن، على حين تصل حالات المشتبه بإصابتهم إلى 75 ألف شخص. ومقارنة بالدول الأفريقية التي تقع في أطراف الصحراء هناك أكثر من ثمانية ملايين من الشباب انتقلت إليهم العدوى وأن أكثر من مليون ونصف المليون قد أصيبوا بمرض الأيدز. إلا أن هذه الأرقام تبقى متواضعة.

التهديد يتزايد:

يقول محمد وهدان مدير قسم مكافحة الأمراض في المكتب الإقليمي لمنظمة الصحة العالمية في الإسكندرية: «إننا لا نعلم مدى الانتشار الحقيقي لهذا الوباء». ومع هذا يعرف وهدان أن الإحصائيات المنخفضة الحالية قد تعطي إحساسا كاذبا بالطمأنينة. صحيح أن المرض لا ينتشر بسرعة انتشاره نفسها في المجتمعات الأخرى ولكنه في ازدياد، بل بدأ يجسد مشكلة حقيقية في المنطقة. ولقد ظهرت أولى حالات الأيدز فقط في أواخر عام 1985 وأوائل عام 1986 مستوردة من أوروبا. إلا أن هناك مظاهر انتشار للفيروس. ويقول وهدان: «أصبح الأيدز الآن محليا وثبت أن ثلثي حالات الإصابة نتيجة الممارسات الجنسية وأغلبها من الشذوذ الجنسي».

وتجدر الإشارة إلى أن المسؤولين في الحكومة يقرّون بعلمهم بأن الأرقام المسجلة لحالات الإصابة بعيدة عن الدقة. ويقول أحمد زيدوه المتخصص في الأمراض الوبائية في وزارة الصحة المغربية: «إنه لو صدقنا أرقامنا الإحصائية فسيكون هناك عدد أقل من الناس المصابين بالأيدز أكثر من حالات الأيدز المصرح بها».

إن التقديرات لعدوى فيروس الأيدز غير مؤكدة، ولكن هناك مقاييس أخرى أخذت تظهر للعيان. ولقد بدأت السلطات الحكومية باتخاذ الحذر الشديد بشأن المتبرعين بالدم، الأمر الذي أعطى بعض التقديرات لانتشار الإصابة بين السكان. وعلى سبيل المثال كان هناك مصاب من بين

كل عشرة آلاف متبرع تقريبا في العام الماضي في الدار البيضاء، وهذا طبقا للتصريح الذي أدلى به السيد العلوي المسؤول في مركز المدينة لنقل الدم.

ولكن حتى لو ظل الوباء نسبيا غير متفش في العالم الإسلامي فإن هناك بعض الاستثناءات الدالة على الخطر، ولعل الإعلان عن 265 حالة في جيبوتي السنة الماضية و650 حالة في السودان يشير إلى ما يمكن أن يحدث في أي مكان آخر. فالمستوي المرتفع في السودان قد يفسر جزئيا بسبب جغرافية المنطقة، إذ إنها تشارك أوغندا وزائير الحدود، وهما من الدول المتأثرة بشدة بهذا المرض. ولكن الأيدز لا يعترف بالحدود الجغرافية أبدا.

وإذا ما تركنا الحالات الاستثنائية جانبا، فمازال المهتمون بمرض الأيدز في دول شمال أفريقيا يسألون أنفسهم عن أسباب انحصار المرض بالمقارنة مع جهات أخرى.

ويؤكد أخصائيو الأمراض الوبائية أن القول في ذلك سابق لأوانه بسبب ندرة المعلومات. وهناك من يؤمن بأن قوة الوازع الديني والتقاليد الجنسية تلعبان دورا في عملية انتشار هذا المرض.

يؤمن جين ـ لوب ري، رئيس برنامج الأيدز في ORSTOM (الدائرة الرسمية للأبحاث التكنولوجية والعلمية لدول ما

وراء البحار في باريس) بأن الثقافة الإسلامية «تعمل دون شك كحاجز» ضد انتشار المرض. ويعتمد تصريح ري على دراسات في الدول الأفريقية مثل السنغال وساحل العاج، حيث يعيش المسلمون وغير المسلمين جنبا إلى جنب. وهناك دراستان منفصلتان في ساحل العاج أوضحتا أن نصف المسلمين وغير المسلمين تقريبا قد يكونون مصابين بالأيدز.

هذه الدراسات بالطبع لا تثبت أن الثقافة الإسلامية نفسها مسؤولة عن

المعدلات القليلة من الإصابات. فالعوامل الأخرى قد تلعب دورا أيضا.

وعلى سبيل المثال، يقول ري: «إن ختان الرجال واسع الانتشار في العالم الإسلامي وذلك لتقليل انتشار الأمراض الناتجة عن الاتصال الجنسي».

في صحيفة «السيدا» وهي نشرة فرنسية متخصصة في الأيدز أخذ إمام جامع باريس المركزي عادل بوبكر يعدد المحظورات في النواحي الجنسية التي هي أقوى في الإسلام عنها في المسيحية. والقرآن الكريم يحذر الإنسان باستمرار من ضعفه ومن طغيان غرائزه الطبيعية. يقول الإمام بوبكر: «أيها العالم الإسلامي إن الأيدز اعتبر قضية غربية جاءت إلينا عن طريق المخدرات والشذوذ الجنسي والاتصال الجنسي غير المشروع».

وحتى في هذا المحيط بدأ المحظور في النقاش عن الجنس يضعف وأصبح الناس أكثر رغبة بالكلام. يقول وهدان: «سنين قليلة مضت ولم يناقش أحد موضوعا عن الاتصال الجنسي. والآن يتكلم الناس بصراحة عن الجنس والموانع». إن الأحوال لا تتغير بالسرعة التي يتصورها البعض. ولكن لا أحد منا يتوقع ثورة ثقافية بين عشية وضحاها. في المملكة العربية السعودية على سبيل المثال يدرس طلبة المدارس مرض الأيدز وأثر الاتصال الجنسي. وفي المغرب، بعد سنتين من الصمت، بدأ الأئمة بإثارة الموضوع. وبين الفينة والفينة تلقى موعظة أو خطبة في المساجد عن آثار مرض الأيدز. ولكن مازالت وزارة الداخلية تتحكم فيما يقوله زعماء الدين.

ويرفض دانييل تارانتولا خبير الصحة العامة في الائتلاف السياسي العالمي للأيدز في مدينة بوسطن، وسابقا في برنامج الأيدز العالمي في منظمة الصحة العالمية في جنيف - الادعاء بأن الجنس محظور في الإسلام، ويقول: «إن الدين الإسلامي لا يعارض مناقشة الجنس مادام الوضع مناسبا والنساء والرجال منفصلين. وقد تناقش النساء الأمور الجنسية وهن بمعزل عن الرجال».

ولكن قد يجد الشباب صعوبة في الحصول على المعلومات التي يحتاجون إليها. ويعترف عبدالمجيد زحاف - اختصاصي أمراض جلدية في مستشفى سفاكس هاشد في تونس ورئيس اتحاد المدينة للسيطرة على الأمراض الناتجة عن الاتصال الجنسي والأيدز، يعترف بأنه مازال يجد صعوبة في الكلام مع أبنائه عن الجنس والعوازل الذكرية. ويعترف أيضا بأنه عندما يكون هناك برنامج في إحدى محطات الأقمار الصناعية الفرنسية يتحدث عن الموانع وكيفية استعمالها «نسرع ونقفل التلفزيون». وفي البلاد التي يكون فيها الأطفال وآباؤهم وأجدادهم يعيشون مع بعضهم، لا يكون مرض الأيدز موضوعا للنقاش العائلي.

هذا الكبت كان جليا في التقرير الحديث الذي قام به الاتحاد المغربي للسيطرة على مرض الأيدز. إذ إن عشرة في المئة فقط من الذين سئلوا يعرفون أن الموانع هي الوسيلة الوحيدة للحماية من عدوى فيروس الأيدز، مقارنة بـ 90٪ في الدول الأفريقية القريبة من الصحراء.

النساء في خطر:

العديد من النساء لهن حقوق أقل من الرجال فيما يتعلق بالحصول على المعلومات وهن أقل قدرة على اختيار المسلك الجنسي. فهناك العديد من القصص للمتزوجات الشابات حديثا، مثل قصة عائشة، اللاتي أصبن بمرض الأيدز جراء انتقال العدوى من أزواجهن الذين أخفوا الحقيقة عنهن. ومن أجل هؤلاء النساء وغيرهن اللواتي مازلن في خطر، تلعب المنظمات الأهلية مثل منظمة ALCS دورا مهما وبارزا في توفير المعلومات والمساندة.

وقد وجدت حكيمة حمش رئيسة قسم الأمراض السارية في مستشفى ابن رشد والمؤسسة لهيئة ALCS أن الحملة التعليمية للنساء وخصوصا الفقيرات منهن قد تنجح في الأحوال الصحيحة. ويقول أحد العاملين في مركز للمعلومات عن الأيدز: «أحيانا تأتي النساء إلى مركز المعلومات مرتديات الحجاب حتى عندما لا تنتمي لغتهن إلى الوسط الذي يُرتدى فيه الحجاب. فتشعر النساء بحرية أكثر عند سؤالهن عن الأمور الجنسية». ولأن المنظمات الأهلية مثل ALCS مستقلة فباستطاعتهن الذهاب إليها حيث لا يصل الوكلاء الرسميون وذلك لأسباب دينية وثقافية. وعلى سبيل المثال تعمل الآن الهيئات غير الحكومية في المغرب مع العاهرات، على حين لا تستطيع الحكومات ذلك، إذ يعد ذلك اعترافا ضمنيا بوجود نشاط غير قانوني. وقد دربت ALCS بعض العاهرات على تعليم نظيراتهن ووزعت الموانع عليهن مجانا. ورحبت وزارة الصحة بصمت بحركة ALCS وغيرها. إن البغاء يوجد كذلك في بعض المجتمعات الإسلامية كما هي الحال في بلدان أخرى. ويوجد في المنطقة أيضا اختلاف في الأوضاع كأي مكان آخر. وما يدعو للدهشة أن البغاء في تونس مقنن ومنظم. وهذه النقطة تعتبر ميزة للعاملين في مجال الصحة إذ إنه يكون في مقدور النساء الحصول على المعلومات والرعاية الصحية وهذا عندما لا يكن مجبرات على العمل في الخفاء.

يقوم زحاف بانتظام بتعليم النساء البغيات في تونس ومدهن بالموانع، ومع ذلك فإنه يعترف بأن هنالك مشاكل. وبعد أن شُنت حملة تعليمية في ديسمبر الماضي ازداد إقبال النساء بوضوح على الموانع وتراجع الطلب عليها في هذه الآونة، لأن ممارسي البغاء يدفعون أكثر للبغايا في حالة الممارسة الجنسية دون عازل.

من الصعب العمل مع ممارسي اللواط المحترفين الذين يعملون بعيدا عن الأنظار.

يقول زحاف: إن احتراف اللواط بالكاد يوجد في تونس إذ إن هذا الأمر يخضع لرقابة شديدة، ومع هذا فإن هناك رجالا يعملون في هذا المجال وهم معرضون للإصابة بعدوى فيروس الأيدز. والأمر نفسه موجود في المغرب. إن الدراسات التي أجرتها ALCS تشير إلى أن الأجانب الذين يمارسون اللواط مع محترفيه يستخدمون في العادة الموانع. إلا أن البغايا أنفسهن لا يعرنها اهتماما. ويقول أمين ـ وهو أحد المتطوعين في المنظمة ـ إن البغايا دائما لا يربطن بين الموانع والحماية من الأيدز، ويعتقدن بأن الأجانب يرغبون في الموانع كنوع من التقليد.

وتتدارس هيئة ALCS في مراكش حالة احتراف اللواط بين شباب المدينة. وتظهر بشكل إجمالي مجموعتان: هؤلاء الذين يخدمون السواح، وهؤلاء الذين يخدمون الرجال المحليين. والذين يأتون الفاحشة مع المواطنين المحليين تبقى ممارستهم سرية للغاية. وفي الدول الإسلامية بالطبع لا توجد مجتمعات للشواذ جنسيا حيث الشذوذ الجنسي محرم. وتقوم هيئة ALCS بمد ودعم محترفي اللواط بالمعلومات واضعة في الاعتبار نجاح مساعيها التي تعتمد في المقام الأول على كسب ثقة الجماعات التي تخشى الغضب والانتقام.

وإذا ماكان الوصول إلى البغايا أمرا صعبا فإن الوصول إلى مجموعة تتعاطى حقن المخدرات لهو أصعب بكثير. إن مدى وأسلوب حقن المخدرات في المنطقة مازالا ضعيفي التوثيق. ويعتقد تارانتولا ــ الذي يؤكد ندرة المعلومات ـ بأن المخدرات قد تكون أكثر انتشارا في البلاد التي تعرف تقليديا باستخدام المخدرات كأفغانستان وإيران.

في المغرب ظهر أول دليل على استخدام حقن المخدر في الشمال حول طنجة وتطوان في 1988 تقريبا. وتعزو الأرقام الرسمية نحو 13٪ من جميع الإصابات بالأيدز المعروفة إلى حقن المخدرات. إلا أن المسح غير الرسمي في طنجة يشير إلى أن هذه النسبة تمثل تقديرات ناقصة. وفي الجزائر أكثر من ربع الحالات المعروفة المصابة بالأيدز هم من متعاطي المخدرات وأغلبهم أصيبوا خارج البلاد. وكأي مكان آخر قد يعدي الناس المصابون بالمرض من خلال حقن المخدر من يعاشرونهم جنسيا فيما بعد.

وعلى حين تتحمل الهيئات غير الحكومية (NGO) الصعاب في مجهوداتها ضد مرض الأيدز فقد بدأت الحكومات بمساعدتها، وفي السودان استجابت الحكومة لنذر الكارثة المهددة بمرض الأيدز الوبائي بتخصيص مبلغ 20 مليون دولار لبرنامج المكافحة. ومع الفقر المدقع للبلاد والمشاكل الأخرى الموجودة فإن هذا المبلغ يعتبر ضخما. وفي المغرب صعدت الحكومة حملتها ضد الأيدز ووزعت رسالة إخبارية مجانية على الأطباء.

حالات مرض الأيدز المصرح بها لمنظمة الصحة العالمية منذ عام ١٩٧٩			
35	لبنان	265	جيبوتي
7	ليبيا	57	مصر
27	عمان	56	إيران
46	السعودية	7	العراق
650	السودان	24	الأردن
8	الإمارات العربية	7	الكويت
لا يوجد	اليمن		

دول شمال أفريقيا والشرق الأوسط	
الحالات الكلية لمرض الأيدز المتراكمة التقديرية	الحالات الكلية لعدوى الأيدز المتراكمة التقديرية
10,000	أكثر من 75,000

حالات مرض الأيدز منذ عام ١٩٨٥ إحصائيات حكومية رسمية	
121	الجزائر
145	المغرب
136	تونس

الأمن الكاذب: تعلم الحكومات أن حالات الأيدز المسجلة لديها ماهي إلا كسر من الأعداد المقدرة بوساطة منظمة الصحة العالمية.
إن الإسلام قد يحجب الوباء بسهولة.

هذه النشاطات ماهي إلا بداية ردود الفعل تجاه الوباء والصورة الحقيقية للأيدز في بعض الدول الإسلامية قد تأخذ بعض الوقت لتؤتي ثمارها. فمن ناحية ينص القرآن الكريم على عقوبة صارمة وذلك في قوله تعالى ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ (النور 2)

ومع هذا فإن المتخصصين بمرض الأيدز وغيرهم من المهتمين في إيجاد وسائل لوقف انتشار هذا المرض، يرون أن المصارحة والمواجهة والسماح بمساواة أكثر للمرأة قد تسمح بمعاملة مرض الأيدز كحقيقة واقعة في الحياة إذ إنه مرض خطير يجب مواجهته.

هل تفسر الوراثة

تأليف : جلبرت شارل

ترجمة: محمد الدنيا

هل الولد سر أبيه؟؟ لا شيء مؤكد على الإطلاق. فمنذ الأزل، والإنسان يبحث عن طبيعة جبلته. ومحاولة التمييز بين ماهو فطري وماهو مكتسب ليست مهمة سهلة. في السابق ومنذ عام 1960، ظن الباحثون أنهم عثروا على صبغي الجريمة. ولكن خاب ظنهم. وتتابعت دراسات أخرى دونما نجاح. واليوم، يتيح علم الوراثة الذهاب إلى داخل خلايانا بفضول. ويأمل البعض في أن يعثر هناك على مفتاح شخصيتنا. وبالتالي، حل جميع معضلات المجتمع.. ولكن حذار من الانزلاقات.

العنوان الأصلي للمقال :

L'hérédié Explique - t - elle Tout? :L'Express, 4 Novembre 1993 .

مراجعة : د. نزار العاني

ـــة كل شيء؟



الدراسة الجينية: ملف للتناول بالملاقط.

علم الوراثة يتفجر. ففي غضون بضع سنوات، اكتشفت مئات الجينات المسؤولة عن أمراض مأساوية. كما وضعت خريطة الجينوم – الدنا DNA المتواري في خلايانا. واليوم، يقف العالم على أعتاب ثورة ستهز الأرواح والأجساد. ولقد أعلن فيما مضى، وخلافا لكل عرف أخلاقي، عن النجاح في استزراع أجنة بشرية! ولكن ألا يتمادى الإنسان وبسرعة زائدة، في سعيه لتطبيق التقنيات الجديدة، ليس على آلامه وأمراضه، بل على شخصيته كلها؟ وهل سيبتلى في الغد بجلب حلول احيائية وجينية لمعضلاته الاجتماعية المحضة؟ وهل سيتمكن من تجنب الانزلاقات، حين يتوصل – إن توصل – إلى معرفة الاستعدادات الوراثية لأدنى سلوك لديه؟.

حينذاك، سيتناول الاختصاصيون الأضابير بالملاقط. «ذاك ديناميت»، «كل شيء قابل لسوء التأويل»، هكذا يردد بتنافس أولئك الذين يحاولون تحديد القواعد الوراثية لسلوك الناس. هل سيمكن للعنف، والميل إلى الكحولية، والذكاء، والقدرة على السيطرة والخضوع، والخجل، والنزعات الجنسية الخ.. أن تجتث بشكل مباشر من «دنا» صبغيات البشر أو لا؟ هل نقتفي في كيفية وجودنا آثار خطى أسلافنا البيولوجية؟ إن كان الرد بالإيجاب، فهل هي غالبة؟ جاء في المثل المشهور: إن هذا الشبل من ذاك الأسد. ويضيف آخر: الكلاب لا تلد قططا. صحيح ذلك أم خطأ؟ إنه سؤال كبير، يلبس ثيابا جديدة بسبب نتائج الدراسات حول التوائم والتطورات الساطعة للبيولوجيا الجزيئية. سؤال قديم، قدم الفلسفة، وسبق له أن شغل بال أفلاطون قبل الميلاد بأربعة قرون والذي «اعتقد بانتقال جوهر طبيعة الإنسان الموروثة من الأب»، على حد قول «ميشيل دويم»، عالم الوراثة والنفس، من المعهد الوطني للبحوث العلمية CNRS ، وكان مؤمنا بإمكانات تحسين النوع البشري أيضا.

الجدل يستجيب:

سبق لليوجينيا (علم تحسين النسل)Eugenisme أن أطلت برأسها. وستعاود الظهور مرارا عبر التاريخ، حتى حدود الفاجعة. لنتذكر المناقشات الحماسية حول الفطري والمكتسب. تقول «سيمون دي بوفوار» المناصرة العنيفة لفكرة «صنع» الطباع: «لا تولد واحدتنا امرأة، بل تصير كذلك». وخلال العهد الستاليني، كان من المعتقد أنه من الممكن قولبة الناس حسب الطلب. وبددت أعمال «كونراد لورنز» و«نيكوتينبرجن» كل هذه التصورات، بقولهما إنه من المستحيل تجاهل ماهو فطري في السلوكيات. وقد انتحل متطرفو اليمين تلك النتائج وشوهوها حين أكدوا أن الإنسان يولد وقد برمج مسبقا. وتتدرج المواقف اليوم أكثر، إذ لا ينفي اختصاصي واحد التأثير الخاص المزدوج للجينات والتربية، وبقي العثور على الصلة المباشرة بين «الدنا» والسلوك. لقد اعتقد هؤلاء مرارا على مدى السنوات بأنهم أمسكوا بها، ومرارا انخدعوا. «صبغي الجريمة» مثلا والذي كان



التوائم:

«البحوث حولهم مواربة»، على حد قول جوناثان بكويث من جامعة هارفارد.



العنف:

هل يمكن عزله مباشرة عن «دنا» صبغياتنا؟.

الاختصاصيون مقتنعين بأنهم قد عزلوه، منذ الستينيات، وبدراسة نزلاء السجون في الولايات المتحدة اكتشفوا زيادة في الرجال الذين لديهم صبغي Y إضافي وهو الصبغي الذي يضفي الذكورة بالقياس مع المعدل

الوسطي الوطني. وصرخ أنصار الأطروحات الوراثية: انتصرنا. وقد سبق للأكثر راديكالية منهم أن تصور طرقا تسم المجرمين بالقوة وأخفقوا!*. بعد ذلك بعدة سنوات، استنتج تقرير صدر عن أكاديمية العلوم الأمريكية

* «الموجود بالقوة والموجود بالفعل»: تعبير فلسفي يعني أن الأول ينطوي على الثاني كبذرة القمح والسنبلة. «التحرير»

أنه لا توجد أية علاقة أحادية المعنى بين الصبغي Y الزائد والسلوكيات العنيفة.

وينطلق النقاش اليوم باطراد، أولا لأن سلسلة من الدراسات حول التوائم كانت حديث الناس منذ العام 1990، وأشهرها دراسة عالم النفس «توماس ج. بوشارد»، من جامعة «مينسوتا»، مينيابوليس (الولايات المتحدة)، والتي شملت ستين زوجا من التوائم الحقيقية - أحادي اللاقحة* Monozygotes - ممن فصلوا عقب الولادة، وتربوا في أسر مختلفة. وهي عينة مثالية، نظرا لاستحواذ كل فرد منهما على ذات العتاد الجيني كشقيقه تماما، ولكن ترعرعا في بيت متمايز. والصحيح، أن بعض توائم «بوشارد» كانوا مثار الدهشة: «جيم» مثلا وكان قد فصل عن شقيقه وسمي «جيم» أيضا وعمره أربعة أسابيع، كلاهما كان يقود سيارة من الطراز نفسه، وقد أسميا كلبيهما «توي»، وكانا يدخنان السجائر ذاتها، ويشربان البيرة عينها، ويقضمان أظافرهما، وكانا قد طلقا مرتين امرأتين تحمل كل واحدة منهما الاسم الأول نفسه - ليندا وبيتي - مدهش! ولكن ليس ذلك كفاية كي نستنتج أن مسلكيهما كان يمليهما إرثهما البيولوجي.

الجنوسية: موضوع حساس جداً.

لقد أخضع «بوشارد» تلك «القبعات»** البشرية لمئات الاختبارات كالحاصل الذكائي IQ*** البعيد عن تحديد الذكاء - والتسامح، والامتثالية، وملكة التكيف، وضبط النفس، والألفة والتدين، والقابلية للسعادة.. إلخ، وهل لهذه الصفات أسس وراثية؟ وكان رد دراسات فريق «مينيا بوليس»، الموثوقة بالإيجاب. وكان لهذه النتائج في الولايات المتحدة وقع القنبلة: «70٪ من الذكاء وراثي!» هذا ما جهرت به بعض عناوين الصحف. «غدا سنتمكن من تمييز الأفراد

*أحادي اللاقحة: عبارة تطلق على أفراد التوائم المنحدرين من البويضة نفسها، أو التوائم الحقيقيين «المترجم».

** القبعة Cobaye أو خنزير الهند من الثدييات المفضلة لإجراء التجارب. «التحرير»

*** حاصل الذكاء "IQ" Intelliigence Quotient: حاصل قسمة العمر العقلي على العمر الزمني مضروباً بمئة. «التحرير».

بعدوانيين»، كما علق بكل جدية مقدم برامج تلفزيوني. وينتفض «جان مديوني»، أستاذ علم النفس الفسيولجي في مركز بحوث البيولوجيا السلوكية التابع للمركز الوطني للبحوث العلمية CNRS في جامعة تولوز الفرنسية، قائلا : «تزييف وكذب صريح. إن الدراسات حول التوائم لا تسمح بقياس التأثير المباشر للوراثة، بل تتيح فقط معرفة تباين الطبع تبعا لتباين جينوم GENOME مجموعة محددة،غيروا العينة، ولن تحصلوا أبدا على النتائج نفسها». ويسلم «جان – ميشيل لاسال»، أستاذ علوم السلوك العصبية في الجامعة نفسها بذلك قائلا: «الأمر معقد قليلا، ربما لعدم وجود تفهم، أو تبسيط للتعريفات العلمية أفضي بنا إلى فداحة التعبير. فالجزم مثلا بأن 60٪ من مواقف الامتثال هي وراثية، مثلما فعلت بعض الصحف، مناف للعقل. ويعلل «جوناثان بكويث»، من شعبة الوراثة الجزيئية في جامعة هارفارد هذا: «وفضلا عن ذلك، فإن البحوث حول التوائم مخادعة، لسبب بسيط هو أن الأسر التي يترعرع فيها هؤلاء الأطفال ليست مختلفة تماما إحداها عن الأخرى». ثم إن بعض « أشخاص» بوشارد كانوا على احتكاك جيد ومسبق قبل

إجراء الاختبارات عليهم، فهل استطاع كل منهم نسخ سلوك الآخر؟ الاحتمال كبير. ويتابع «بكويث» من جهة اخرى: «إن المظهر الجسماني أو البدني لوحيدي اللاقحة متشابه إلى حد كبير بحيث إن المجتمع يميل إلى التصرف حيالهم بالطريقة نفسها».

«المجاهر البيولوجية»:

إذن ، هل تشابهات هؤلاء فطرية أو



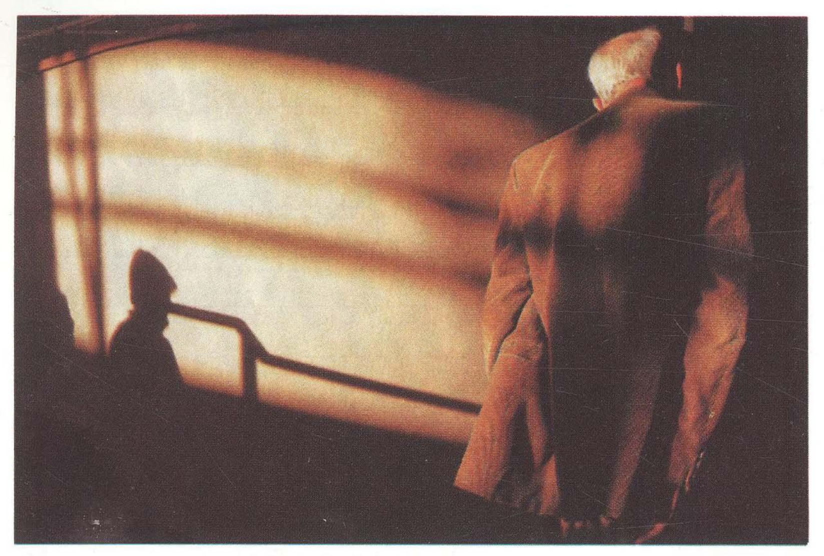
الكحولية: قضية طبيعة أم بيئية؟

مكتسبة؟. من المستحيل أن نحسم المسألة. لقد ظهر في غضون عشر السنوات الماضية أكثر من 4000 دراسة حول التوائم، ولم تحمل واحدة منها دليلا على رابط أحادي المعنى، وقابل للقياس، حول سلوك ما. وقد توافرت للباحثين منذ أمد قريب أدوات أخرى

أصبحت تحت تصرفهم أقوى بمائة، أو بألف مرة، من الدراسات الثقيلة حول التوائم: وبمعونة علم الوراثة استطاعوا الذهاب للإحاطة بعمق خلايانا، ووسم بعض الجينات فيها. وباقصى سرعة أرادوا التطاول على المشكلات الكبرى للمجتمع - الكحولية، والأمراض العقلية، والعنف وعلى موضوع آخر حساس جدا هو الجنوسية Homo-sexualité ترى هل سيقدرون، وقد تجهزوا بمجاهرهم البيولوجية، على تقديم أجوبة واضحة؟ سندلل بعدم وجود أية نتائج مقنعة حقا حتى الآن. ومن الأمثلة: لقد غربلت «إيفلين دومون - داميان» (من المعهد الوطني للدراسات والبحوث الطبية Inserm)، و«ميشيل دويم» نحو 350 دراسة مكرسة للوراثية الكحولية. وقد نشرت استنتاجاتهم مؤخرا في مطبوعات المعهد. وكما كتبوا: «لم نعثر إلا على تخمينات حول التأثير الوراثي، وليس على براهين قاطعة». وفيما يتعلق بأبحاث الأمراض السلوكية فقد توصلوا إلى ذات الاستنتاجات المهمة. وفي العام 1987 كان الـ Amish*، في الولايات المتحدة، وهم من المسيحيين المحافظين المتطرفين الرافضين للعصرنة ويعيشون منطوين على أنفسهم، موضوع الاهتمام الكلي لدراسات «جانيس إيجلاند»، من جامعة «ميامي» بهدف العثور على جينة الذهان الهوسي الاكتئابي Psychose Maniaco - Depressive ، والمنتشر خصوصا عند هذه الجماعة. وسرعان ما أعلنت النتائج: تتموضع الجينة المسؤولة عن الداء على الصبغي 11 .11. وخلال الأشهر التالية تم تحديد جينة أخرى مسؤولة تقع على الصبغي X ، الموروث عن الأم لكن الدراستين سرعان ما فندتا. وأعلن فريق بريطاني عام 1988 من جامعة University College اللندنية عن اكتشاف رابط بين الفصام Schizophrénie والوراثة لدى الأسر المدروسة قد يكون على الصبغي 5 . وبعد بضع سنوات تراجع «هوغ غورلينغ»، المسؤول عن البحث وأنكر ذلك.

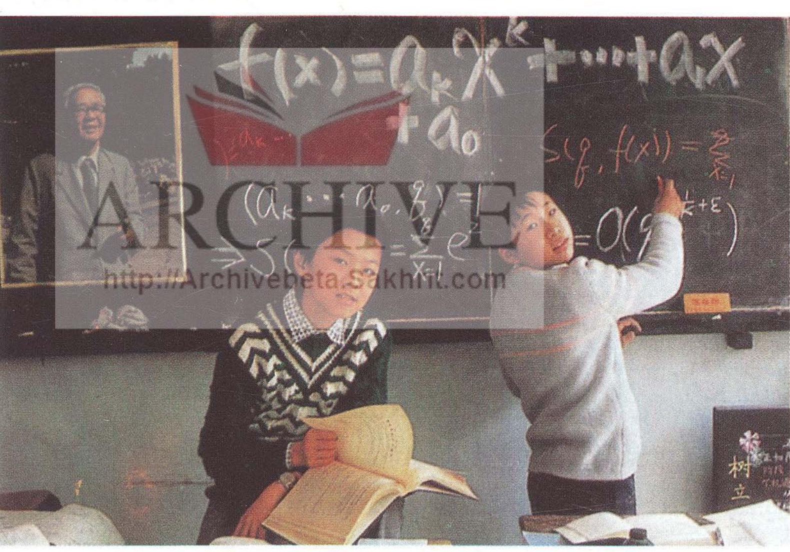
والجنوسية، هل هي شأن وراثي أو ثقافي؟. منذ نحو ثلاثة أشهر، أعلن «دين هامر»، من معهد «شييدا» الوطني للسرطان في الولايات المتحدة، وسط ضجة عظيمة، أنه اكتشف على الصبغي x، لدى 33 زوجا من أصل 40 زوجا من الأقران الجنوسيين الذين أخضعوا للدراسة، منطقة خاصة، ربما تتموضع فيها أو تتوارى الجينة أو الجينات الموجهة لسلوكهم الجنسي. وكان للإعلان وقع الصاعقة في الولايات المتحدة، حيث يقاتل «المستهترون» من أجل الاعتراف بحقوقهم وهنا المشكلة، فلكي تصبح مثل

* الأميش : مجموعة من الأفراد ينتمون إلى فرع من طائفة «المينونيت» البروتستانتية التي أطلقها المصلح الديني «مينو سيمون» 1496 - 1561. وهي طائفة تصر على إعادة تعميد البالغين وترفض عماد الأطفال، كما تناهض الخدمة العسكرية والطقوس والشعائر الدينية العامة، وضد التماس القداسة عن طريق القصاص. أما مجموعة الأميش فترجع في نشأتها إلى الأسقف السويسري «يعقوب أمان» ومنه جاءت التسمية. وهاجرت إلى أمريكا الشمالية واستقرت هناك عام 1638 «التحرير».



الاكتئاب:

قابلية السعادة، هل لها أسس وراثية؟.



الذكاء:

هل هو وراثي أم ثقافي؟.

هذه النتيجة مقبولة من قبل الهيئات العلمية كان يتحتم إعادة اختبارات «مهمة»، وهو الشيء الذي لم يتحقق بعد.

إن أقل ما يمكن قوله هو أن النجاحات في سعي الإنسان لمعرفة طبيعة جبلته وتطويقها لم تكن وافية لماذا ؟ لأننا حيوانات شديدة التعقيد. يقول «فرانسيس سترايبه»، أستاذ علم النفس الوراثي في جامعة تولوز لي ميراي: «الطريق بين الجينوم والسلوك طويلة متشابكة ومتعرجة». وليست الجينة، مع الأخذ بكل حساب، إلا معملا كيميائيا لصنع البروتين الذي سيلعب دورا محددا في عضو

معين. ولن يـؤدي هذا الأخير وظائفـه بشكل صحيح إلا بفضل آلاف الجينــات الأخـرى، وليس الإنسان سوى جوقة ينبغي على جميع الآلات المكونة لها أن تعزف على نحو متناغم، فإذا مــا اختلت إحداهــا نشـزت الآلية كلهــا، بصورة غير محسـوسة غــالبا. فهل من قبيل التفضيل السلـــوكي أن «جــاك» لا يحب الركض، أم لأن رئتيــه، أو قلبه، أو عضــلاته تؤدي وظائفها بسـوية أقل من تلك التي عند جاره؟. وفرانســوا أدني ذكاء بقليل من بيير. فهل ذلك لأن أبـويه ووسطـه قد قـولبوه على هذا النحو، أو لأن عيبا وراثيا جعله غير قادر على احتمال الحليب، وهــذا أخـل بتطـوره الـذهني؟. ويكمل «جــان مـديـوني» قــائلا: «فضلا عن ذلك، هناك عدد كبير من الحالات مـردها إلى اقتران تأثيرات كثير من الجينـات تتبـادل الفعل فيما بينهــا. ويصدق هـذا على الطـول والوزن، وسرعـة النمـو، إلخ .. وعلى الكثير جـدا من المرضيـات Pathologies ». ويتــابع «جوزييـه فينغـولـد»، مديـر مخبر الـوبـائيـات الـوراثيـة في المعهـد الـوطني للدراسات والبحوث الطبية Inserm: «وللتو، تبين لنا تماما من جهـة أخرى وجود طفرات Mutations غير ثــابتة، متفـاوتة الشـدة، على صعيـد جينـات بعض الأمـراض الـوراثيـة. النتيجة: ليست خطورة الإصابة هي نفسها لدى الآباء والأبناء. فهل يمكن أن يكون الأمر مشابها فيما يتعلق بالسلوك؟».

إن الآلة البشرية مركبة، كي تكون معقدة، ونحن بعيـدون أكبر البعـد عن امتـلاك فك خيـوطهـا التي تتشابـك أكثر كلما حــاولنـا تحديـد دور البيئـة. من المعـروف جيـدا أن الأطفال المتبنين في أوساط اجتماعية ميسورة ينجحون إجمالا بصورة أفضل في اختبارات حاصل الذكاء IQ * من أشقائهم وشقيقاتهم الذين ترعرعوا في كنف آبائهم البيولوجيين في ظروف مادية سيئـة. هل يتوقف التعقيد عند هـذا المستـوى؟ أبــدا. إن التعلم يلعب دورا مرجحـا. يقول «سترايبيه» شارحــا: «رصدت صفا عمـر أفراده خمس سنوات في حضــانة للأطفــال، خلال سنة دراسية كــاملة. وكانت طفلة صغيرة قد انعزلت تمامـا عن المجموعة لا بل تعـذبت لقـدومهــا متأخـرة. ولـو كنت قـد قصرت دراستي على ذلك لاستنتجت بأن الفتاة كانت راضخـة. ولكن في العام التــالي كانت هي نفسها رائدة الصف لأنها كانت قد تعلمت بكل بســاطـة كيف تتعرف الأطفــال الآخـرين، واستغلت معــارفها لتصبـح مهيمنة». وكثـرت الأمثلة المشابهة. إن السلوكيات التي كان يظن بأنها غير قــابلـة للتغير، تنقلب لمجـرد تعـديل بسيط في الـــوسط. والأســوأ من ذلـك، هل للعدوانية، والخجل، والامتثالية التعريف نفسه في أوروبا وآسيا وأفريقيا؟ تتفاوت الاستجابات تبعا للمجتمعــات، والثقافــات، والزمن المعيش. قتل الآخـر جريمـة، ولكنـه عمل بطولي خــلال الحرب. ويتشـوش المشهـد فـوق ذلك إن نحن أضفنا إليه دور الهرمـونات الآتية من الأم. هل

* حاصل الذكاء Quotient Intellectuel

تلقى الجنين الهرمونات السليمة خلال تعشيشه في الرحم؟ وكيف أثرت فيه؟ وبالفعل، لا يزال التمييز بين البيولوجي والثقافي حتى اليوم، أمراً دقيقاً كما هو فصل البيض عن الطحين في عجينة قرص من الحلوى.

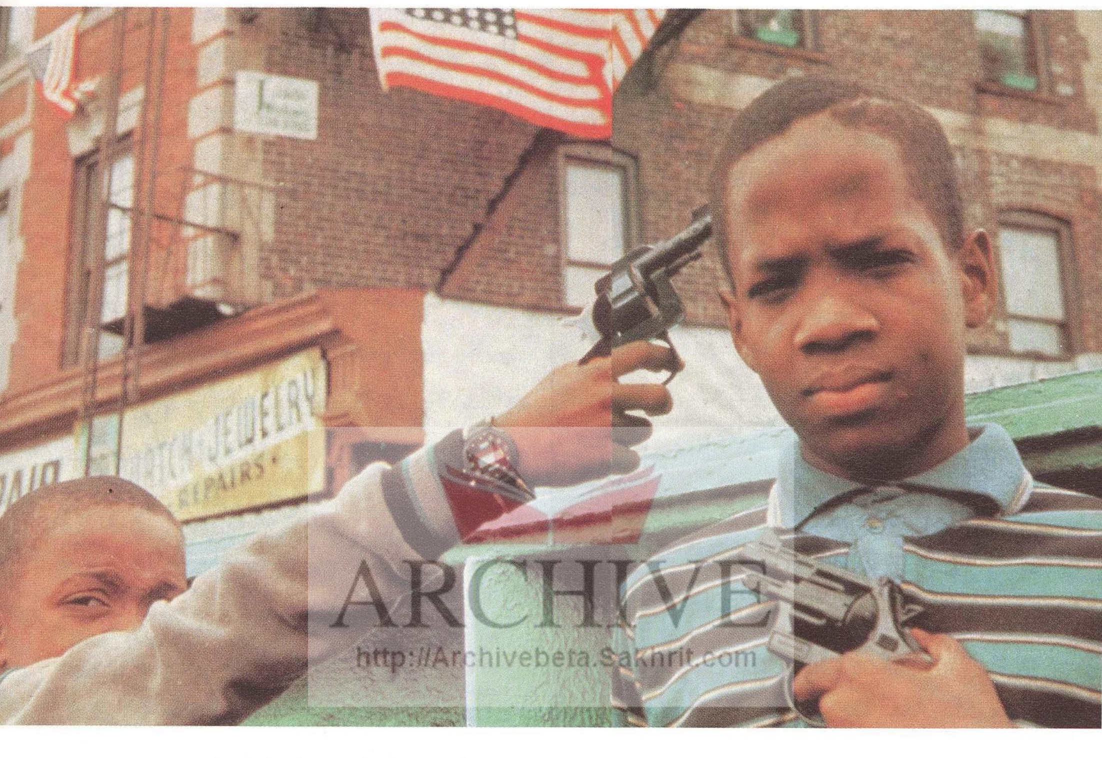
طيف النسالة : Eugenisme

وماذا عن الغد؟ خلافا للدراسات الطويلة حول التوائم، تتقدم البيولوجيا الجزيئية بخطى سريعة. وفي حالة محددة تماما، وعلى صعيد أسرة وحيدة، أحرز الدكتور «هانس برونر» بذاته نجاحا صريحا. وتتعقد الأشياء حين يتعلق الأمر بالتعميم. ولكن لا شيء يثبط من عزيمة العلماء. وعلى الرغم من تشعب المهمة، والإخفاقات السابقة. تسير البحوث على مايرام. ويستخدم - «روبرت بلومين»، من جامعة بنسلفانيا، 100 واسم جيني Marqueurs Genetiques - شدفات «الدنا» الموجودة لدى جميع حاملي السمة نفسها - في محاولة لوسم الجينات المرتبطة بحاصل الذكاء IQ عند الأطفال الأكثر موهبة، ويلاحق «دافيد فولكر» من جامعة كولورادو، شدفات «الدنا» التي تنطوي على قدرات القراءة. وتنجز دراسات أخرى حول الحيوانات الأكثر سهولة إلى حد كبير للمعالجة. ففي «مختبر لورنس ليفرمور» الكاليفورني، تجرى بحوث حول الكلاب وبعض ميادينها : وفاء كلب البكسر Boxer أو عدوانية الـ Pittbulls. وعلى الفئران في كل أنحاء العالم ، حيث تستقصى قدرات التعلم، والميول إلى الكحولية، والطفرات المزاجية، على أمل الانتقال إلى الإنسان، نظرا لوجود توافق في الجينومات Genomes بينهما. هل ذلك ضروري حقا؟ «نعم، تنبغي متابعة هذه البرامج لإثبات أن الإنسان ليس مبرمجا، وأن الوسط يؤدي دوراً راجحا»، على حد عبارة «ميشيل دويم». ويعلق «دانيال كوهين»، مسؤول مركز دراسات تعدد الأشكال البشرى CEPH* منددا: «يهتم علم الوراثة أولا بالعناية بالناس الذين يتألمون. ومن السابق لأوانه جدا الشروع بهذه البحوث، فالإنسان ليس مستعدا بعد» ولا المجتمع كذلك. ماذا سيفعل المجتمع بهذه النتائج إن حصل عليها؟ وإذا تعرفنا فعلا ذات يوم جينات التأهب للعنف، والجنوسية، والجنون، أو العبقرية، فكيف سنستخدمها؟ هل ستعود النسالة Eugénisme* على عجل؟ وهل سنستحدث بعد ثلاثين سنة من الآن، صفوفا للأطفال وفقا لجيناتهم، كما أعلن بمنتهى الجدية باحث أسترالي أثناء مؤتمر عقد في برلين، أيار/مايو 1992؟ «هل يقف العالم الأمثل على عتبة بابنا»؟. على المجتمع كله أن يتفكر في الأمر.

* Centre d'études du Polymorphisme Humain

** اليوجينيا : علم تحسين النسل.

الولايات المتحدة
النظام الأحيائي «البيولوجي» الجديد

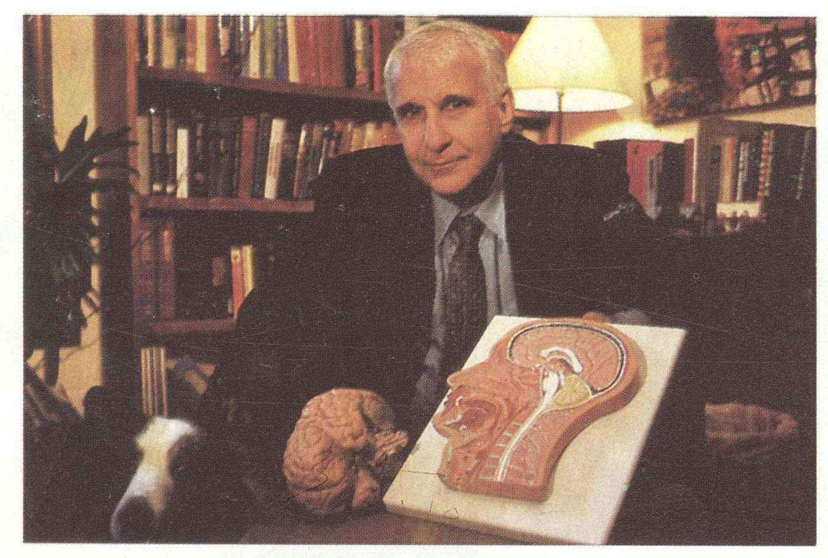


أطفال نيوبركيون سود: لم تستسغ الجماعة الأفرو ـ أمريكية وضعها على كرسي اتهام البرنامج «مبادرة العنف» الذي أطلقه جورج بوش.

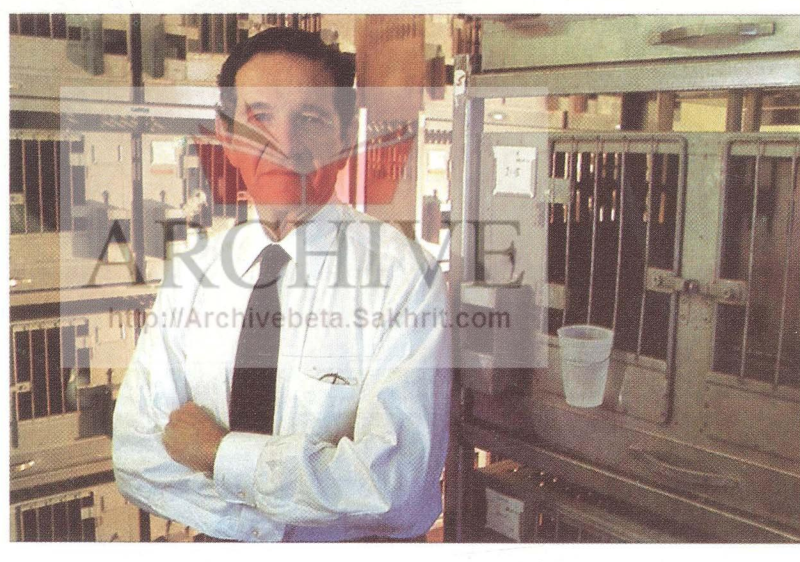
العلماء الأمريكيون على يقين بأن الجنوح هو نوع من الداء المزمن والوراثي. وتنجز اليوم سلسلة من الدراسات برعاية رسمية من معهد الصحة الوطني NIH* وبميزانية تتجاوز 42 مليون دولار. غايتها ملاحقة المجرمين بالقوة، منذ مرحلة الحضانة إن أمكن. وهكذا، فقد أخضع آلاف الصبيان لاختبارات مؤلمة كثيرا بقدر ماهي صادمة، ولتكن جولة في بلاد الظل الأخلاقي.

«ما الذي يجعل بعض الأطفال أكثر نزوعا نحو الجنوح؟ إذا ما نحن عثرنا على الإجابة، فلن تكون هنالك حاجة إطلاقا لبناء سجون جديدة». هذا السؤال لم يطرحه أي شخص عادي، بل طرحه الدكتور فرديريك غودوين العالم النفساني الأبرز في الولايات المتحدة، ومدير شعبة الصحة العقلية في معهد الصحة الوطني الشهير. كيف نتخلص «علميا» من الإجرامية؟ سيغدو هذا السؤال من الآن

* National Institute of Health



الطبيب النفساني «بيتر برغجن»: يعيش الطب الأمريكي حالة من الانزلاق التام».



البروفسور «ريتشارد هيرنستاين» (هارفارد): الميول العدوانية قابلة للوراثة إلى حد كبير.

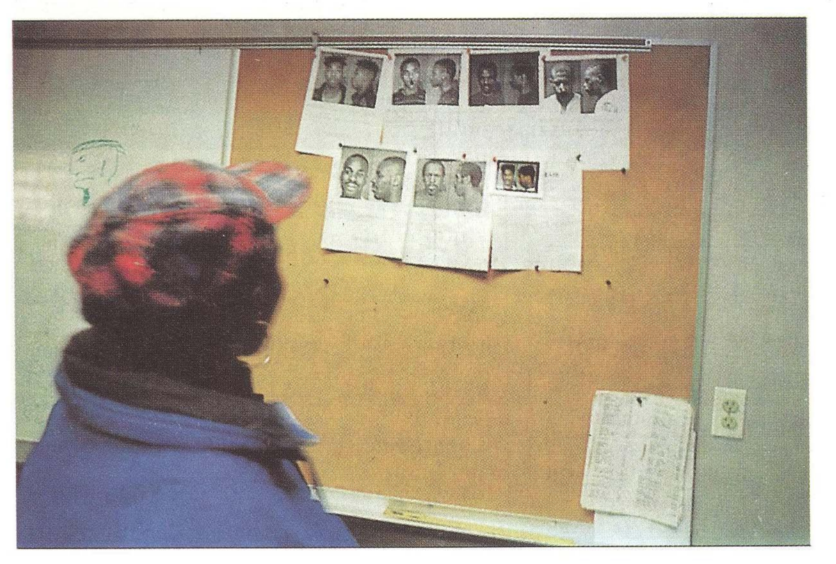
وصاعدا هو الفكرة المتسلطة لدى قسم كامل من الهيئة الطبية فيما وراء المحيط. أولا بمماثلتها بالمرض. ولا يتردد الاختصاصيون الأمريكيون اليوم ابدا في اعتبار العنف نوعا من العلة المزمنة، التي تستمر طيلة الحياة، وتنتقل إلى الأجيال التالية: «سيان كون هذا الانتقال وراثيا أم ثقافيا، يمر عبر روابط الدم أم تربية الأبوين. فالنتيجة هي أن الميول العدوانية قابلة للوراثة علنا. وشئنا أم أبينا، سنعيش في مجتمع تقوم فيه هذه المعرفة». على حد قول «ريتشارد هيرنشتاين»، أستاذ علم النفس في جامعة هارفارد، والاختصاصي في علم الجريمة، والمدافع الكبير عن الفطري. إن أفضل العوالم هو ذاك الذي سيمكن فيه الكشف عن الجانحين المستقبليين في سن مبكرة من الطفولة. وهذا بالتحديد هو الهدف



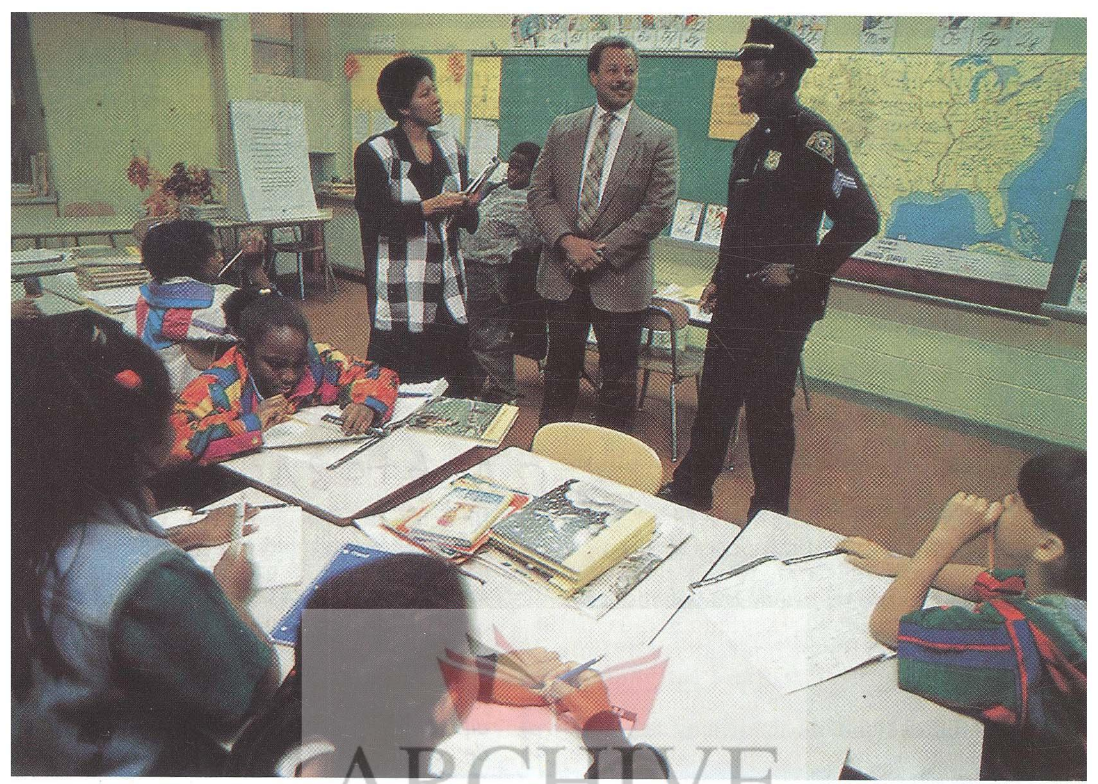
البروفسور جيروم كاغان (هارفارد) «لاتزال المعارف في الميدان البيولوجي بدائية جداً»

الذي يعمل عليه مئات من علماء الأحياء، والأطباء النفسانيين وعلماء الوراثة في مشافي ومختبرات معهد الصحة الوطني.

تمتد مباني هذه المجموعة البحثية الطبية الشاسعة فوق مئات الهكتارات في وسط الجادات الكبرى والحدائق الغنَّاء في «بيثيسدا»، ضاحية واشنطن الأنيقة. هنا تستكمل علاجات الغد، ويتدرب الاختصاصيون، وتتقرر الأولويات بشأن السياسة الصحية. وتعتبر المطبوعات المهورة بختم هذا المعهد مبادىء رسمية وتقرأ على مستوى العالم كله. وفي ذلك يكمن مبرر آخر لنقلق من المشروع البحثي الذي تقوده هذه



لوحة صور الجانحين في مفوضية «نيوهافن» الفرعية: «ينبغي البحث عن العنف في البؤس، والمدارس الرديئة، ونقص الرعاية والعناية» وفقا لعبارة «دانييل كوهين» من جامعة «بال»



في إحدى المدارس: الرقيب ريك راندول، من مفوضية نيوهافن، جاء ليتحدث إلى الأطفال عن العنف.

المؤسسة العريقة، منذ أكثر من عام، حول علاج «السلوكيات العدوانية، والمناهضة للمجتمع، والانتحارية». ان أكثر من 42 مليون دولار سبق وتم توظيفها في سلسلة من 284 دراسة، تتركز بشكل خاص حول الجوانب النفسانية الأحيائية Biopsychi-atriques لدى زمر من الأطفال والمراهقين الجانحين. وهؤلاء الصبيان مطوعون عموما في المؤسسات الإصلاحية وموافقون مبدئيا، لذا فإنهم يخضعون لتدابير مؤثرة من الروائز النفسية والبيولوجية. وفي خطة البرنامج العارمة: أخذت عينة متكررة من الدم، وعمليات «بزل» قطنية (فزع النخاع الشوكي بوساطة إبرة، عبر العمود الفقري)، وتصوير الدماغ بآلة تصوير بوزيتونية Cameraa' Positons * (حقن مواد ناشطة إشعاعيا). ويقر هدف هذه الفحوص بضبط التقنيات التي تتيح وبأكبر ما يمكن، تقصي الأفراد الخليقين بالانغماس في الإجرامية. وبوسعنا الشروع في الاستدلال على هؤلاء منذ مرحلة الحضانة، من عمر 4 إلى 5 سنوات. وسيتراءى حينئذ اقتراح برامج نفسية.

* البوزيتون Positon : من الجسيمات الدقيقة في الذرّة، وهو الإلكترون الحامل لشحنة موجبة.

وعلاجات طبية للأشخاص مثار الخطر من أجل تجنب «النوبات». ولايعتزم معهد الصحة الوطني التطاول على حالات الجنون الجرمي النادرة فحسب، بل الأكثر هو اكتشاف السمات السلوكية وضبطها، كالكحولية، والإدمان على المخدرات، والميل إلى هوس إشعال الحرائق والسرقة، والاعتداء الجنسي. ومشاهدة القسمات البسيطة للشخصية مثل النزق.

الجائحة القاتلة:

نجمت فكرة هذا البرنامج المذهل عن جورج بوش الذي اتخذ قرار إطلاقه في خريف عام 1992، قبيل الحملة الرئاسية، وذلك في إطار العملية الانتخابية الكبرى حول مكافحة عدم الأمان المديني، والتي سميت «مبادرة العنف». وبدا لإدارة كلينتون تحملها بغير حالة نفسية خصوصية، وذلك لأنها متعلقة بحساب اقتصادي بسيط: كلفة الوقاية من العنف أقل خمس مرات من كلفة إصلاح الأضرار بعد وقوعها. ومن الأشياء التي لا تخفى في هذا البلد، ظاهرة العنف، فقد بلغ حجم كارثة وطنية: 23 ألف جريمة قتل سنويا، و مليونا حادثة اغتصاب وسرقة واعتداء - أعلى معدل جرمي في العالم، باستثناء البلدان الواقعة في حالة حرب. ومن فتن لوس أنجلوس إلى الانتحار الجماعي لطائفة «واكو» ، يفتك الوباء القاتل اليوم بالضواحي الأمريكية، حيث تتحد البطالة، والمخدرات، والتمييز العنصري لتعطي مزيجا تزداد انفجاريته بالنسبة نفسها مع البيع الحر للأسلحة النارية. واستدعت الضرورة العاجلة اتخاذ تدابير جذرية. وحين حكم على برامج الوقاية الاجتماعية التقليدية بالعقم وأنها باهظة التكاليف، استدار المعنيون نحو الهيئة الطبية، طالبين منها تعديل سلوكيات الأفراد غير الاجتماعية. ويهتف العالم النفساني الأمريكي .. بيتر برغجن.. : «مركبة الطب الأمريكي تنزلق من دون عجلات تماما. ألا تذكركم معالجة الجانحين على أنهم مرضى عقليون بشيء ما؟ إنه بالضبط ما كنا قد فعلناه في ظل النازية والنظام السوفياتي، حين كان «بريجنيف»، يحتجز المعارضين والكتاب في مشافي الأمراض العقلية» يثور «برغجن»* في كتابه الأخير «طب النفس السمّي» على الصدمات الكهربائية والمداواة الطبية الخطيرة اللا مجدية والتي يتكبدها الأطفال خصوصا. ويتابع «برغجن» قائلا: «إن الطب النفساني على وشك الضياع في مراقبة الأفراد والإلزام. ففي المشافي الأمريكية يستخدمون اليوم مفاهيم، مثل «السلوك المناهض للمجتمع»، الذي يمكن أن نقرأ تعريفاته المذهلة في الكتب الاختصاصية». مثال ذلك الـ DSM-3 «الكراس التشخيصي والإحصائي للاضطرابات العقلية»، الذي نشرته «رابطة الطب النفساني الأمريكي». ونعني به المؤلف المرجعي للأطباء الممارسين والباحثين في العالم كله، والذي سنجد فيه بعد الآن نحو عشرين «مرضا» جديد لم تكن موجودة في الطبعة السابقة، مثل: اضطراب السلوك الذائع

* يعتبر «بيرتر برغجن» البالغ من العمر 55 سنة، والرجل القصير المربع البشوس الوجه وخريج هارفارد، والمتخصص في علم السلوك الطفولي، يعتبر الوجه الآخر للضمير، في عالم طب النفس الأمريكي.

المصاحب للجنوح الطفولي والمحدد بمعايير مثل .. «السرقة مراوغة»، و«التسلل الليلي لثلاث مرات على الأقل»، و«الكذب غالبا» و«التميز بعلاقات جنسية مبكرة» أو مثل «السلوك المعارضي الارتيابي» المسند للأطفال الذين يفقدون السكينة في الغالب، و«يحاجون الكبار» و«يتحدون أو يرفضون الانصياع لمطالب آبائهم»...، و«الذين يستخدمون الكلام البذيء». ويعقب برغجن قائلا: «ماذنب الصبي إن لم يلق الحب، وسيئت معاملته، وعاش وسط نزاعات أسرية أو كان ببساطة أكثر.. «عفرتة» من الآخرين. إن التشخيص القائم يعفي الأبوين من مسؤوليتهما ويسم الطفل بعلامة شائنة ستظل ملتصقة بجلده كالوشم طيلة حياته». ولن نندهش لوجود «برغجن» ثانية في مقدمة معارضي مشروع «مبادرة العنف» والتي أهاج طرحها المبتسر دوامات عنيفة في المجتمع الأسود.

«العلم العنصري»:

في الواقع، قرر معهد الصحة الوطني وجامعة ميريلاند، في أكتوبر 1992، تنظيم ندوة حول « العوامل الوراثية للجريمة». ودعيت نخبة من الاختصاصيين لنقاش الرهانات «الأخلاقية والسياسية» التي أثارتها البحوث حول العنف، والتي ستكشف خطوطها العريضة علانية لأول مرة. ومن بين الأسئلة المطروحة: «هل كمونية العنف لدى السود أكبر مما هي عند الآخرين؟ وإن كانت الإجابة بـ «نعم»، فلماذا؟. وكان ينبغي انتظار ما هو متوقع: أطلق الإعلان عن الاجتماع استنكار الأفارقة - الأمريكيين، وقرىء الربط بين كلمتي «الوراثة» و«العنف» من قبلهم كتحريض حقيقي. ولأرجحية ممثليهم في السجون فإن السود يعدون حقا في طليعة المسؤولين عن تأجج الإجرامية، على حين هم أيضا أول ضحاياها.. وتشكل جرائم القتل اليوم السبب الرئيس للوفيات لدى السود من عمر 15 إلى 34 سنة... لهذا يتهم قادة جماعتهم العلم الأمريكي بأنه «علم عنصري». وهكذا، تشكلت لجان مناهضة لـ «مبادرة العنف» في كل مكان تقريبا. وأثيرت القضية في الكونغرس، وأمام تصاعد هذا الاحتجاج قرر معهد الصحة الوطني إلغاء الندوة. ومنذ ذلك الحين انكفأت إلى الصمت التام، وأضحت كلمة «عنف» فيها محرمة. ويتشبث الباحثون الذين يتحدثون فيها ببقاء أسمائهم مجهولة. وبالنسبة للرسميين فهم يرفضون صراحة التحدث إلى الصحافة، أمريكية كانت أم أجنبية. مع ذلك، لم تتوقف التجارب بسبب ذلك. وعقب الصخب الإعلامي، تشكلت لجنة تضم اختصاصيين من أصقاع الولايات المتحدة لتثمين أعمال معهد الصحة الوطني. وقدمت نتائج تقويمها علنا في أكتوبر الفائت. واعتبرت اللجنة أن الدراسات «مقبولة أخلاقيا»، وأوصت بمتابعة المشروع. وبقوة هذه المساندة قرر معهد الصحة الوطني إحياء المؤتمر المجهض، وبات كل شيء جاهزا لجولة جديدة. ما الحجج العلمية التي تدعم هذا المشروع؟ هل يمكن فعلا التحري عن العنف بيولوجيا؟ ويستدرك «جيروم كاغان»، أستاذ علم نفس التطور في جامعة هارفارد، قائلا: «لاتزال المعارف في هذا الميدان بدائية جدا». وعبثا جرى البحث لزمن طويل عن مفتاح

النزعة العدوانية ناحية التستوستيرون، الهرمون الذكري. وينفتح اليوم كما يبدو ميدان جديد مع الـ «سيروتونين» Serotonine . هذا الناقل العصبي، الذي يقوم بدور مهم في نقل الرسائل الكيميائية بين العصبونات إذ إنه كما هو معروف يتدخل في تعديل العديد من الوظائف، مثل الجوع، والنوم، والنشاط الجنسي، والاستجابات للشدّة Stress. وقد أظهرت دراسات قادها معهد الصحة الوطني بشكل خاص، إلى وجود علاقة بين معدل السيروتونين في الدماغ وسلوكيات النزق الاندفاعية Impulsifs، والنزعات الانتحارية والكحولية. و«إجمالاً يمكن أن يكون وجود معدل ضعيف من السيروتونين مؤشرا على الشخصية العدوانية»، كما أوجز «إميل كوكارو»، الطبيب النفساني، من جامعة بنسلفانيا. ومؤخرا، اكتشف باحث هولندي هو الدكتور. هانس برونر. عيبا جينيا له صلة بفاعلية السيروتونين في أسرة صبيانها من ضحايا نوبات الغضب المرضية. ولكن لا شيء يبرهن أن هذه الجينة منتشرة بصورة شاملة بين السكان، أو أنها على ارتباط مباشر بالعدوانية. وقد أراحت هذه النتائج الباحثين ولكن، مع معضلة واحدة: السيروتونين، كبقية الوسائط العصبية، لا يدور سوى في الأنسجة العصبية. ولقياسه لابد من إجراء «بزل» قطني، وتلك عملية دقيقة، ومجهدة، ومؤلمة على وجه الخصوص. ويتساءل «دونالد كوهن»، مدير مركز الطب النفساني الطفولي في جامعة «يال»: «لماذا إذن هذا الإصرار على الرغبة في تطبيق حلول تبسيطية على معضلات معقدة؟ إن مداواة العنف بالعقاقير لن تكون على ما يرام، وإذا كانت الإجرامية قد انفجرت في الولايات المتحدة خلال هذه السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة، فذلك لأن ميزانيات المعونة الاجتماعية كانت تنخفض بلا انقطاع إبان عهد الإدارة الجمهورية، أيام ريغان وبوش. وينبغي البحث عن أسبابها في ميادين البؤس، والمدارس الرديئة، وقلة العناية، وليس في روائز الكشف المزعومة» ولا شيء يعوق البحوث حتى البدائية منها في توسيع رقعة الأهمية المتزايدة باطراد، والتي يتولاها علم الأحياء لدى المؤسسات القضائية والاجتماعية. إن الاستفادة من البصمات الجينية غدت مألوفة في المحاكم خلال السنوات الأخيرة. على حين شرع مكتب التحقيقات الفدرالي حاليا بتأسيس بنك للمعلومات يفهرس جوانب «دنا» DNA جميع المجرمين الذين أوقفوا فوق الأرض الأمريكية.

ويتعزز هذا الاتجاه من خلال الأدوية التي نزلت حديثا والمزدانة بمزايا عجائبية في علاج «اضطربات الشخصية». وبناء على ذلك يُعطى الـ Prozac، الذي يوصف عادة كعلاج مضاد للاكتئاب، والرهاب، والسلوكيات القسرية Compulsifs، لنحو 5 ملايين أمريكي اليوم. وهذا الجزيء هو محط الاهتمام كله منذ أن لوحظ تأثيره المنبه لفعالية السيروتونين - دون معرفة السبب بدقة. لا يهم، لأن الاختبارات جارية لمعرفة فيما إذا كان الـ Prozac يستطيع تهدئة المجرمين «الاندفاعيين».

أدوية عجيبة

تجري اليوم في الولايات المتحدة صياغة مشروع كبير بالتدريج لتهدئة الأفراد

كيميائيا. ولن يقتصر تطبيقه على الجانحين فقط. ويسمح هذا المشروع أيضا بملاءمة أفضل بين التلاميذ المشاغبين ومتطلبات النظام المدرسي. وهكذا، يتناول أكثر من مليون طفل أمريكي، من سن 3 إلى 17 سنة، كل صباح، أقراص «ريتالين» Ritaline، وهو عقار مهيأ لمعالجة «اضطراب عوز التنبه». إن هذه المتلازمة، المنطبقة على الصبيان الشاردين ومفرطي النشاط والاندفاعيين – بتعبير أبسط : أولئك الذين لا يثبتون على شيء، – تنتشر كما يبدو منذ عدة سنوات وكأنها النار في الهشيم، فحوالي 10٪ من الصبيان، و5٪ من البنات، من العمر المدرسي ربما يكونون اليوم قد اصيبوا وعولجوا. ويعقب «برغجن» متهما: «لم يستطع أحد حتى الآن أن يبرهن على وجود هذا المرض، الذي يبدو وكأنه قد اخترع بكل جزئياته بسبب المصالح الكبرى للمخابر الصيدلانية». على كل حال، لا تبدو فاعلية «الريتالين» مثيرة لأدنى شك، إذا ما صدقنا مقالات المديح المكرسة له في الصحف. وليس مهما أن يكون هذا العقار، المشتق من الأمفيتامينات (المنبه الذي يهدىء المضطربين، وهنا المفارقة)، مصنفا في الولايات المتحدة في فئة الكوكايين نفسها، والبربيتوريات، ومشتقات الأفيون. كما لا تهم آثاره الجانبية مثل تأخر النمو، والاكتئاب، وظواهر الاعتياد، والتي لوحظت على الأشخاص المعالجين به لفترات طويلة. فاستخدامه ينظم أمور الجميع، بمن في ذلك المعلمون، الذين يجدون أنفسهم قبالة صفوف هادئة، والأطباء النفسانيون، الذين يبتهجون لكونهمُ قادرين على تسوية المشكلة ببضعة أقراص، والأهلون أيضا، الذين يتلقون الشروح بأن أولادهم يعانون اضطرابا بيولوجيا صرفاً ليس فيه ما يجعلهم يشعرون بأنهم مسؤولون عنه.

في هذا الصدد، يقول عالم الوراثة «جوناثان بكويث»، الباحث في معهد هارفارد الطبي Harvard Medical School: يجد علم أحياء السلوك اليوم نفسه متورطا بالاعتبارات الأيديولوجية، والاقتصادية، والسياسية التي تتمخض عن انحراف البحوث وتزييف القرارات». وفي منطقة شيكاغو، تكاد تنطلق اليوم واحدة من أضخم حملات البحث والاستقصاء البيونفساني والتي لم يحدث مثلها قط، حول «متنبئي العنف الاجتماعيين والطبيين»، حيث سيخضع عشرة آلاف طفل على مدى عشر سنوات لرقابة فرق أطباء، وعلماء أحياء، وعلماء اجتماع، وعلماء وراثة. ويصل صافي كلفة هذه الدراسة إلى مبلغ ضخم هو 12 مليون دولار سنويا، تدفعها وزارة العدل، ومعهد الصحة الوطني، ومؤسسة ماك آرثر، الخاصة، التي ترعى البحث العلمي. ويقود هذه الدراسة الطبيب النفساني الأسود، «فولتون إيرلز»، من جامعة هارفارد، وعالم الاجتماع «ألبرت ريس»، من جامعة يال. والغريب أن الاثنين يُصنفان كمعارضين للبحوث البيونفسانية. يقول «ألبرت ريس»: «هنالك فيض من الأشكال المتباينة للعنف، والتي حدد علم الأحياء بعضها إلى حد ما. ويجب أن يكون المرء معتوها ليزعم بأن العنف شأن بيولوجي محض. ونحن نعيش للأسف في عالم يوجد فيه الكثير من المعتوهين».

يجب أن نثق بالإنسان

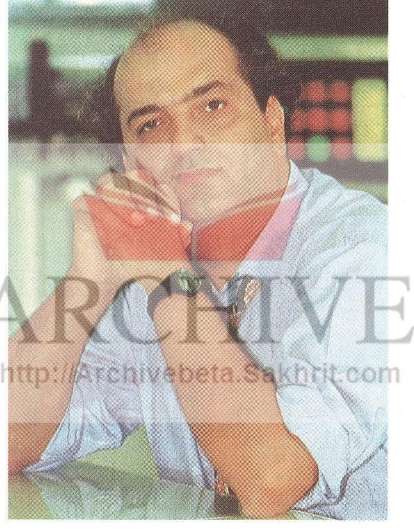
لقد أنجز البروفسور .. «دانيل كوهين»، المدير العام لمنشأة «جان – دوسيه» – مركز دراسات تعدد الأشكال Polymorphisme البشري CEPH*، بالتعاون مع فريقه في مخبر Genethon ، أول خارطة للجينوم البشري. وقد نشر هذا المتفائل – بطبيعته أو استراتيجيته – مؤخرا، كتابا بعنوان «جينات الأمل» من منشورات «روبير لافون». وهاكم هذه المقابلة. التي أجرتها معه «الإكسبرس».

– هل سيتم يوما ما العثور على جينات السلوك؟

* دانييل كوهين: الشيء الوحيد الذي يتيح لنا القول إن هنالك أساسا وراثيا للسلوكيات هو النماذج الحيوانية. فبعض سلالات الكلاب معروفة بعدوانيتها، مثل الدوبرومان Dobermans، أو بميولها الوسواسية Obsessionnels، مثل الجعيد Ca-niches.على حين أن الإنسان خلافا لذلك هو أكثر تعقدا وامتزاجا، فالضغط الاجتماعي هو من الشدة بحيث يستحيل مطلقا قياس مقدار نصيب ما هو فطري وماهو بيئي في سلوكنا، باستثناء الحالات المتطرفة: الأمراض، والذهانات Psychoses، والفصام، والاندفاعات Pulsions القاتلة. غير أنني أعتقد أنه لا يمكن التكهن بشيء، خارج بعض الحالات المرضية، عند عدد محدد من الأفراد، لأن هنالك التباسات Biais أينما كان.

– ما هذه الالتباسات على سبيل المثال؟

* من أجل تقدير ظاهرة ما في العلوم، ينبغي قياسها بالأرقام. ماذا يتطلب بالتحديد قياس سلوكٍ ما؟ ليس بوسعنا معرفة الطريقة. لنفترض أننا نريد البحث عن جينة العدوانية. فماذا نحسب؟ أنحسب عدد الصفعات التي يوجهها شخصٌ ما؟. الشيء نفسه ينطبق على الذكاء، والخجل، إلخ.. والمناقشة منتهية بالنسبة لي. فهذه البحوث لا تنطوي اليوم على أي طابع ملحّ.



دانييل كوهين:
«من الخطأ تعزيز سوق الخوف»

– ما رأيكم في المشروع الأمريكي حول الكشف عن الأطفال الجانحين؟.

* لم يكن لزاما علينا قط أن نشرع بهذه الدراسات، إنها الفضيحة التي ينبغي استنكارها بلا هوادة. هنالك عملية تنازل

* Centre d'étude du Polymorphisme Humain

كليـة عن الفعل الاجتماعي فيما وراء المحيط. لقد ولـد هذا البلـد في قلب العنف، واستمر في العنف.

لماذا لا تـزال الأسلحـة تبـاع حتى الآن بشكل مقنن في الولايات المتحدة؟ إن أمرّ ما في إخفـاق العلم يبـدأ في لحظة إعفـاء الإنسـان لنفسه، من أجل تبجيل إدارة علميّة مـزعومة للبشرية.

- إذن والحالـة هـذه، أيـة بحـوث تستحق عنـاء المتابعـة على صعيـد علم الوراثة؟

* أدركتم - ولا بـد - معياري الـرئيسي: الفائدة المباشرة، لتجنب الآلام، كأن نبحث عن أسس التأهب (الاستعـداد المسبق) المحتمل للكحولية، التي تقتل سنويا آلاف الأشخاص. لم لا؟

- ولكن إلا تخشـون حـدوث أنماط أخرى من الانحراف؟

* كانت هنالـك على الدوام تجاوزات، أما الآن فيمكن عرض المشكلات عـلانية. ينبغي تثقيف الجمهور. فأنـا اعتقد أن النـاس أكثر قابلية للإعلام مما نظن. هل كان يمكن لهتلر أن يفعل ما فعل لو كـان لوسائل الإعلام من النفـوذ مـا تستحـوذ عليـه اليـوم؟ إلا أن الصحف، والتلفـزيـون، بعنـاوينهما المثيرة، تتعهـدان مسيرة الخوف. إنهما يشرعـان بإقـلاق الناس، لأسرهـم، واحتجازهم أكثـر بترويعهم. النتيجـة: ينتهي المطـاف بنـا إلى القول: إن الإنسان، في جوهره سيىء، ويجب ألا نثق به.

- ماذا تقترحون؟

* ما نقيـض الخوف؟ الشجاعـة. ألا يلزم قليل من الشجـاعـة كـي تتقـدم الأمـور؟ هل انتفى مفهوم الخطـر بتاتـا في مجتمعنا؟. نعم، إننـا نفعل أشيـاء في وسعهـا أن تتكشف عن مخاطر. إلا أن النتيجة يمكن أن تتمخض أيضا عن تطورات طبية حقيقية. من قال إن الإنسان الصالح فينـا لا يضاهي الطالح؟ بـالنسبة لي، فلقـد انحـزت إلى الشجاعـة أصـلاً، ليس عن قنـاعـة، أو من قبيل التفـاؤل، بل كمـوقف استراتيجي. لقـد ضقت ذرعـاً بأولئك الـذين يطلقون التحـذيرات، في كل حين، بأن الكـارثة هي قاب قوسين أو أدنى بقليل! كفانا انصياعا لتلك الأخـلاقية البيروقـراطيـة التي تشل كل شيء. إن المجتمع الذي لا يتطور مآله الموت.

- بيد أن التيقظ ضروري..

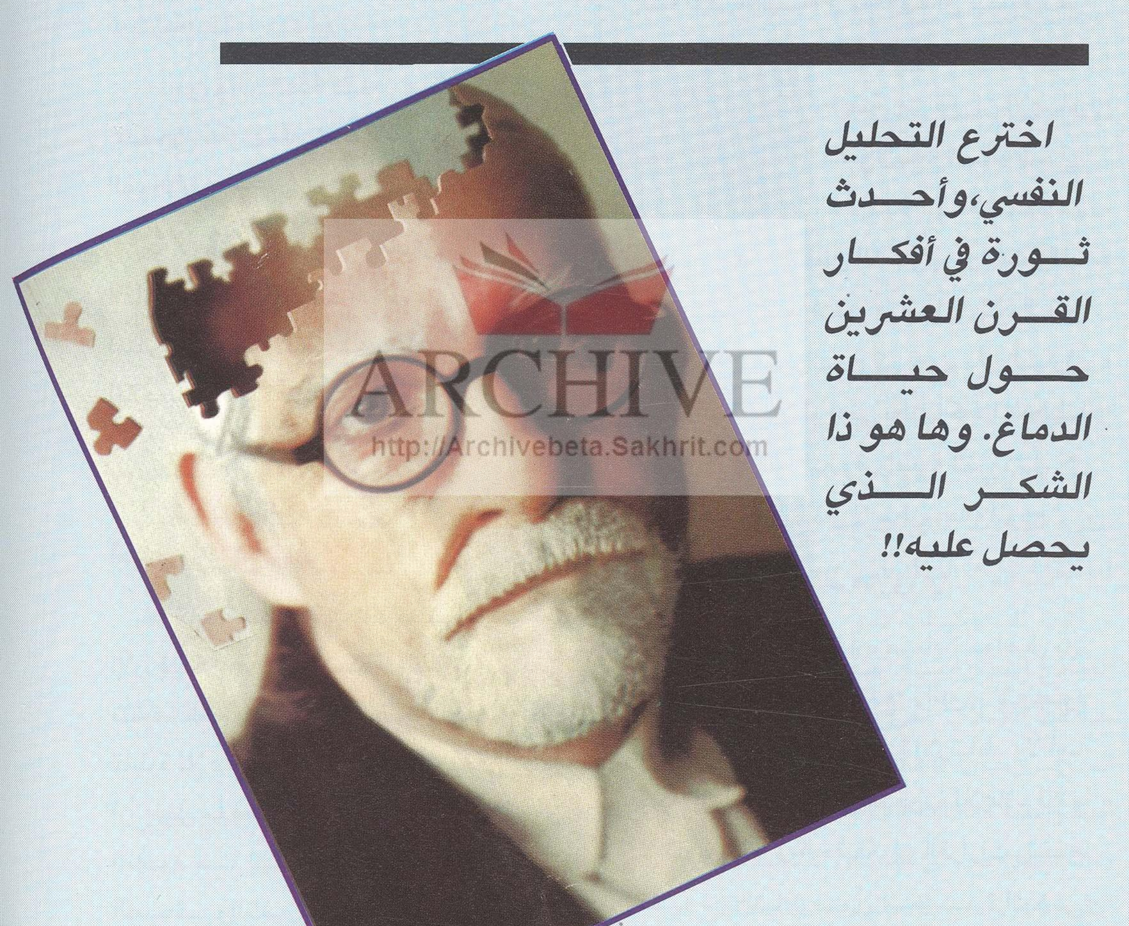
* ينبغي قطعـا إرسـاء تـواصل بين الاختصـاصيين والمجتمع. واليوم، لا وجـود لأيّـة بنية تـؤمن مثل هـذا الارتباط. ولا أيـة بنية! إن لجنة الأخلاق موجودة للإعلام لكنها لا تقوم بذلك في الحقيقة. إن القرارات يتخذها قلـة من النـاس، دون استشـارة المرضى، المعنيّين بالأمر أولاً. لا أحد يدافع عن مصالح أولئك الـذيـن يتألمون، مـع أنهم أول من يستحق أن نؤدي إزاءهم الواجبات.

الهجوم على فرويد

تأليف: بـول غـراي

ترجمة: خـالد الجبيلي

اخترع التحليل النفسي، وأحدث ثـورة في أفكـار القرن العشرين حـول حياة الدماغ. وها هو ذا الشكـر الـذي يحصل عليه!!



العنوان الأصلي للمقال:
The Assault On Freud. Time, November 29, 1993

مراجعـة: د. هـاني الـراهب

كثيرة هي وسائل مواجهة تقلبات الدهر. فبعض الناس يخافون الأرواح الشريرة ويسترضونها. ويرتب آخرون جدول حياتهم حسب ما تظهره الكواكب في فلك البروج. وثمة من يفترضون أنهم يحملون، في مكان ما داخلهم، شيئاً يدعى باللاوعي. وهو يكاد يكون غير مرئي، رغم أنه يمكن أن يلمح خلسة في الأحلام ويسمع في زلات اللسان. غير أن اللا شعور ليس مسافرا سلبيا يسافر متخفيا في رحلة الحياة، ولديه القدرة على جعل مضيفيه ينتابهم حزن شديد أو أن يسلكوا سلوكاً غريباً وذاتي التدمير. وعندما يحدث ذلك، فإن الحلول تكمن في الذهاب إلى عيادة طبيب مدرب تدريبا خاصا، والاستلقاء على أريكة والبدء بالتحدث.

إن رفض الاعتقادين الأولين باعتبارهما خرافتين ممكن بسهولة، إلا لدى أولئك الذين يؤمنون بهما. أما الثالث - وهو اعتقاد بالنظرية الكلاسيكية للتحليل النفسي الذي وضعه سيغموند فرويد - فقد أصبح، في هذا القرن الذي يموج بالاضطرابات، النموذج السائد للتفكير والتحدث عن السلوك الإنساني. وإلى درجة كبيرة، فإن أفكار فرويد وتخرصاته وتصريحاته قد تغلغلت إلى ماوراء دائرة أتباعه المتخصصين إلى عقول وأحاديث العامة. إذ إن الأشخاص الذين لم يقرأوا قط كلمة من أعماله (جهد ضخم مؤلف من 24 مجلدا في الترجمة الإنجليزية) «يعرفون» أشياء يمكن إرجاعها، في بعض الأحيان بحذر، إلى فرويد وهي: حسد القضيب، قلق الإخصاء، رموز الأعضاء الذكرية، الأنا، الهو والأنا العليا، الذاكرة المكبوتة والرغبات الأوديبية والتصعيد الجنسي. لقد أصبحت هذه المجموعة الغنية من الاستعارات للحياة العقلية، عبر مجموعة واسعة من العالم، شيئا قريبا جدا من المعرفة المشتركة، الشائعة

لكن ماذا لو كان فرويد مخطئا؟

هذا السؤال قائم منذ أن أصدر فرويد أولى كتاباته المتعاملة علنا مع التحليل النفسي في أواخر التسعينات من القرن التاسع عشر، ويطرح حاليا بإلحاح لم يسبق له مثيل، وذلك بفضل توافق التطورات التي تثير الشكوك، ليس فقط حول طرائق فرويد، والاكتشافات والبراهين والسلسلة الواسعة من العلاجات المستمدة منها، بل كذلك حول الأهمية الدائمة لتوصيفات فرويد للعقل. إن انهيار الماركسية، تلك النظرية الموحدة الكبرى التي شكلت القرن العشرين وبلبلته، يتكشف عن أشياء بشعة. ما الفظائع الضمنية أو الأحلام الجديدة التي يمكن أن تبرز، إذا ما سقط كذلك صرح فرويد المعقد الخالد؟

قد لا يحدث ذلك، وفي حكم المؤكد أنه لن يحدث أبدا على الفور. غير أن ثمة قوى جديدة تقوض الأسس الفرويدية التي من بينها:

= التكاثر الإشكالي، وخاصة في الولايات المتحدة، للاتهامات بالإيذاء الجنسي، والشعائر الشيطانية، وتقديم الأطفال كأضحيات، وما شابهها من أناس، يرشد الكثيرين منهم المعالجون، فيتذكرون فجأة مايزعمون أنهم كبتوه منذ سنوات أو عقود

ماضية. (انظر القصة التالية). ورغم أنه يكاد يكون في حكم المؤكد أن فرويد كان سينظر إلى معظم هذه الاتهامات بارتياب ماحق، فإن نظريته في الكبت* واللاشعور تستخدم - ومعظم الفرويديين يقولون إنه يساء استخدامها - لتأكيد صحتها.

= النجاح المستمر الذي تحققه العقاقير في معالجة الاضطرابات العقلية، أو التخفيف من حدتها، بدءاً من الكبت إلى الفصام (الشيزوفرانيا). إذ يتناول مثلا ما يقرب من 10 ملايين أمريكي مثل هذه الأدوية. ومن فضل فرويد، أنه كان قد تنبأ بهذا التطور. فقد كتب في 1938، قبل وفاته بعام واحد: «قد يعلمنا المستقبل أن نمارس تأثيرا مباشراً، بوساطة المواد الكيماوية». ومازال الاعتراف بأن بعض العصابات والذهانات تستجيب بشكل جيد للأدوية، ينسحب أمام ما اعتبر أصلا مجالا للمعالجة بالتحليل النفسي.

= اقتراحات كلينتون للعناية الصحية في الولايات المتحدة، ويالغرابة التي تحفز إجراء تحليلات عن التكلفة - الفائدة في مختلف أنواع الطب، والتي تشمل معالجة المرض العقلي. ومهما كانت الحلول التي قد تجد طريقها إلى الكونغرس، يقر العديد من الخبراء بأنه لن يتم توفير التأمين للشفاء الناطق باسم فرويد (يبلغ متوسط تكلفة ساعة التحليل النفسي، البالغة 50 دقيقة، 125 دولاراً). ويقول الدكتور فريدريك ك. غودوين، مدير المعهد القومي للصحة العقلية: «من الواضح أنه لن تتم تغطية تكاليف التحليل النفسي الكلاسيكي، الذي يتكرر من أربع إلى خمس مرات في الأسبوع لمدة أربع أو خمس سنوات. ولن يتم تغطيته بسبب عدم وجود دليل واضح على فائدته». وللحقيقة، فإن غودوين يعترف بأنه أحد المعجبين بفرويد المنظر.

= كم ضخم من الكتب الجديدة التي تهاجم فرويد والتحليل النفسي الذي ابتدعه لوجود مجموعة كبيرة جدا من الأخطاء والتكرارات والمخادعة والهراء العلمي.

إن الظاهرة الأخيرة هذه، هي تكثيف لقصة مستمرة. ففيما كان فرويد يكسب إلى جانبه فصائل وفرقا من المنتسبين فإنه ـ هو وأفكاره ـ كان يجتذب باستمرار هجوماً حادا ، غالبا من أوساط ذات نفوذ. وفي بداية 1909، كتب الفيلسوف ويليام جيمس في إحدى رسائله أن فرويد «أدخل في نفسي شخصيا الانطباع بأنه رجل تستحوذ عليه أفكار ثابتة». وكان فلاديمير نابوكوف، الذي تتبع رواياته التخيلات الفردية الطليقة والتي لا يمكن التنبؤ بها، يتهكم باستمرار بقوله «الطبيب المشعوذ فرويد» و«الطبيب الدجال من فيينا». ولأسباب مشابهة، عارض لودفيغ فتجنشتين التأثيرات التصنيفية لأقانيم/لمضامير التحليل النفسي، رغم أنه أطرى فرويد إطراء مشوباً بالذم بقوله: «إن تفسيرات فرويد الخيالية الخلّبية (وبالضبط لأنها في غاية الذكاء) لا تخدم أحداً. والآن أصبح بحوزة كل حمار هذه الصور لكي يستخدمها في «تفسير» أعراض المرض».

* الكتب: إبعاد الأمور غير السارة عن الذاكرة إلى اللاشعور (المترجم).

إن المطر المطرد من المناقشات المعادية لفرويد لم يؤثر كثيراً في تثبيط نظرياته العديد أو التثبيط من حماسة أتباعه. وفي الواقع، فقد أقام فرويد مظلة من الواضح أنها منيعة إزاء انتقادات مبادىء التحليل النفسي. وقد وصف هذه الخلافات في الرأي، من المرضى أو أي شخص آخر، على أنها «مقاومة»، ومن ثم أكد أن أمثلة من هذه المقاومة قد وصلت إلى «إثبات واقعي لصالح صحة» تأكيداته. ولفترة طويلة، فقد عمل التحليل النفسي العجائب على طريقة «امسك حرامي»، فقد تنجح معالجة أولئك الذين عارضوا هذه الطرائق، وقد يتم استبعاد آخرين، ربما بمصافحة ودية وابتسامة، على أنهم حمقى.

لقد تداعى ذلك الدفاع اللامنطقي إلى حد كبير. إن اكتشاف وثائق تتعلق بفرويد وأوساطه في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى نشر وثائق من قبل ممتلكات فرويد، وفرت مجموعة واسعة ومطردة من الإثبات بشأن الرجل وأعماله. وإن بعض التقييمات الأولية الجديدة مثيرة للقلق.

فمثلا ، انفصم التعاون الذي دام عشر سنوات بين فرويد وكارل غوستاف يونغ فجأة في 1914، مع ظهور عواقب عميقة للنظام الذي ساعدا على خلقه. وبذا أصبح هناك أتباع لفرويد وأتباع ليونغ، تربطهم عداوات متبادلة. لماذا توقف تعاون مثمر دافىء بانفصال شديد البرودة؟ في «منهج بالغ الخطورة» يجادل جون كار، عالم النفس السريري الذي أطلع على يوميات ورسائل ومجلدات جديدة في كتابه هذا، بأن النزاعات الفلسفية المتنامية بين فرويد ويونغ، قد تفاقمت ودخلت شكل لعبة الفأر والقط للشك الجنسي والابتزاز. فقد اعتقد فرويد أن مريضة سابقة ليونغ تدعى سابينا سبيرلين كانت كذلك عشيقة ليونغ، وحدس يونغ بدوره أن فرويد كان قد تورط في علاقة مع زوجة أخيه مينا بيرنايس. وأصبح بحوزة كل من العدوين، نتيجة هذا الانقسام، قنابل كان بإمكانها تفجير سمعتيهما من فيينا إلى زيوريخ وبالعكس، فآثر كلاهما الانسحاب، وتقاسما غنائم دراساتهما، واكتفيا بمعارضة مبادىء النظرية.

هل كانت تلك طريقة لتأسيس علم موضوعي؟ يحاجج المدافعون عن فرويد بأن حياته الخاصة ليس لها علاقة بإسهاماته في المعرفة - زعم غريب نوعا ما إذا علمنا أن فرويد قد أفاد بأن تطويره للطريقة التحليلية كان قد بدأ بتحليله الرائد لنفسه. غير أن أرنولد ريتشاردز، محرر نشرة رابطة التحليل النفسي، يرفض أي اهتمام بسلوك فرويد الخاص، ويقول: «لا ينطوي على نتيجة علمية عملية. ولا علاقة له بنظرية فرويد أو ممارساته».

ماذا إذن بشأن الهجوم على نظرية فرويد وممارساته؟ ففي كتاب «الأب يعرف أكثر: استخدام وإساءة استخدام القوة في قضية دورا لفرويد» يقدم الأكاديميان روبين تولماك لاكوف وجيمس سي. كوين وجهة نظر جديدة عن واحدة من أشهر تحليلات فرويد التي أجريت دون إتقان. فعندما طلبت دورا،

البالغة من العمر 18 عاماً، مساعدة فرويد بناء على إلحاح والدها في 1901، روت له القصة التالية: كان والدها على علاقة مع زوجة السيد «ك»، من عائلة صديقة. وكان السيد ك يولي اهتماما جنسيا بدورا منذ أن كانت في الرابعة عشرة، وكان والدها يشجعها على ذلك، كوسيلة لإبعاد الاهتمام عن علاقته بالسيدة ك. وبعد سماع هذه الرواية، لم يصدقها فرويد، كما يقول أنصار المرأة. وقرر أن لدى دورا في الحقيقة رغبة جنسية بالسيد ك، ولديها رغبة أيضاً بتوجيه ضربة لأبيها، وانتقد رفضها «الهستيري» لاتباع ميولها الحقيقية، وقبول ظروفها، وإرضاء الجميع وإشباعهم، ومن ضمنهم هي. وقد تركت علاج فرويد بعد ثلاثة أشهر.

إذا بدا هذا القول إدانة، فإن أشياء أخرى مماثلة يمكن إيجادها في كتاب إلن استرسن «السراب الخلاب: بحث في أعمال سيغموند فرويد» (محاكمة مفتوحة). ولكونه عالم رياضيات، فإن استرسن تعرض لاتهامات وجهها إليه الموالون لفرويد بأنه هاو وغير مؤهل لمناقشة أسرار التحليل النفسي. ربما كان الأمر كذلك، إلا أن تفحصاته الصارمة للتضاربات والبراهين المزيفة والأكاذيب الواضحة في روايات فرويد نفسه عن الحالات الإفرادية تشكل قراءة مزعجة. وغالبا ما تكون مناقشة استرسن فعالة جدا عندما يستشهد مباشرة بالطرائق العلاجية للمحلل. ويبدو فرويد بانتظام أشبه برجل تحرٍ يقوم بحل جريمة قبل سؤال الشاهد الأول: إن المبدأ يكمن في أنني «يجب أن أخمن السر وأبوح به للمريض مباشرة». وعندما كان فرويد يقوم بالتشخيص، تكون القضية، بالنسبة له، قد انتهت، رغم استمرار العلاج: «ينبغي ألا تضللنا الإنكارات الأولية. فإذا تمسكنا بما استنتجناه، فإننا في النهاية سنتغلب على كل مقاومة عن طريق التأكيد على طبيعة اعتقاداتنا التي لا تزحزح».

مع أخذنا في الاعتبار أن الحالات الإفرادية التي أصدرها فرويد تسجل نتائج غير قاطعة بل وتثير الرثاء، فقد تبنى بعض الموالين موقفا تراجعياً: قد لا يكون فرويد ضليعاً في ممارسة ما كان ينادي به، إلا أن تلك الهفوة لا يمكن أن تلغي نظرياته.

ينبغي الآن على هؤلاء المدافعين أن يواجهوا كتاب «المصداقية في النظرية السريرية للتحليل النفسي» بقلم أدولف غرونباوم، فيلسوف العلوم المرموق والأستاذ في جامعة بيتسبرغ. ويتناول الكتاب، الذي يقوم على أساس نقد غرونباوم في 1984 لأساسيات التحليل النفسي، موضوعا واحدا (مفاده: لا يمكن لأحد أن يطبقه إذا لم يحمل درجة الدكتوراه)، وهو تهديم عويص وهادىء، وفي بعض الأحيان مثير للجنون، لمقام التحليل النفسي كعلم. ويدرس غرونباوم برصانة عدداً من الفرضيات الرئيسة في التحليل النفسي: نظرية الكبت (التي دعاها فرويد «حجر الزاوية» الذي يقوم عليه بناء التحليل النفسي كله)، والقدرات التمحيصية التي يوفرها تداعي الأفكار الحر، والدلالة التشخيصية للأحلام. ولا يزعم غرونباوم أن فكرة الذكريات المكبوتة خاطئة مثلا، بل

يجادل بأن فرويد أو أياً من أسلافه لم يتمكنوا من إثبات وجود علاقة سبب ونتيجة بين الذاكرة المكبوتة والعصاب الناجم أو الذاكرة المسترجعة والشفاء اللاحق.

وخارج هذا الصدد، يتمكن غرونباوم من أن يجعل بحثه النقدي أسهل فهما للأشخاص العاديين. وعن الرابطة المفترضة بين الإساءة عند الطفولة والعصاب عند البلوغ، يقول: «إن مجرد القول إن الشيء الأول قد حدث، والشيء الثاني قد حدث، ونتيجة لذلك فإن الأول قد سبب الآخر، ليس بكاف عليك أن تثبت أكثر من ذلك». ويجد غرونباوم أخطاء مماثلة في الأهمية التي علقها فرويد على الأحلام والأعمال غير المتقنة، كتلك التي تدعى بالهفوات الفرويدية: «وتنطوي هذه المبادىء الثلاثة كلها - نظرية العصاب، ونظرية لماذا نحلم ونظرية الهفوات - على المشكلة نفسها. وكلها معرضة للخطر بسبب فشل فرويد في إثبات علاقة سببية بين الكبت والمرض. ولهذا السبب فإن أساس التحليل النفسي متقلقل». متقلقل إلى أية درجة؟. مما يدعو للاهتمام، أن غرونباوم نفسه يظن أنه لم يفقد كل شيء، رغم أن حكمه ليس بهيجا تماماً: «لا أعتقد أبدا أن فرويد قد مات. إن السؤال هو، هل هي تفسيرات جديرة بالثقة؟ هل ثبتت صحة الفرضيات ببراهين مقنعة وقوية الحجة؟ إن جوابي عن ذلك هو لا».

فرانك سولواي، باحث زائر لعلوم التاريخ في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا، وناقد لطرائق فرويد منذ زمن طويل، يتخذ نظرة أكثر إيحائية فيقول: «إن علم النفس مبني على رمال رخوة. إنه أشبه بفندق ذي عشرة طوابق يغوص في أساس غير سليم. ويقيم المحللون في هذا المبنى وتقول لهم إن المبنى يغوص، فيقولون: إننا بخير لأننا في الطابق العاشر».

من المؤكد، أن الرؤية من هذا العلو الخيالي تظل مستقرة إلى حد كبير. إذ يحب المحللون النفسانيون الإشارة إلى أن معالجتهم تكسب أنصاراً لها في إسبانيا وإيطاليا وأمريكا اللاتينية، بالإضافة إلى أجزاء من الاتحاد السوفياتي السابق، حيث كان محظورا في الماضي. ويتقاطر ما يقرب من 14 ألف سائح في السنة على متحف فرويد في لندن، حيث يجوبون المنزل الذي كان فرويد يملكه قبل وفاته بسنة واحدة في هامستد. وقد بقيت ابنته آنا، التي تابعت عمل والدها بمهارة وتفان، في ذلك المنزل حتى وفاتها في 1982. وتبقى مكتبة فرويد وغرفة مكتبه التي تضم أريكة مكسوة بسجادة شرقية. كما تركها هو. ولعل بعض الزائرين قد جاءوا بعد أن شاهدوا على شاشة التلفزيون على القناة الرابعة فيلما وثائقيا أعده بيتر اسوايلز، أحد النقاد المتشددين لفرويد بعنوان «أفكار سيئة من القرن العشرين: الفرويدية». وإذا كان الأمر كذلك، فإنه يبدو أن اهتمامهم بأشياء تخص فرويد وجديرة بالتذكر لم يتناقص. ويقر مايكل مولنار، مدير أبحاث المتحف ومحرر يوميات فرويد، بأن التحليل النفسي يواجه تحديا من العلاجات الجديدة بالأدوية والتقدم الذي تحرزه البحوث الوراثية. لكنه يحاجج: «إلا أن فرويد في وضع أفضل من ماركس».

قبالة القناة الإنجليزية، افتتحت مسرحية

في باريس بعنوان «الزائر» من تأليف الكاتب المسرحي الفرنسي الشاب إريك إيمانويل شميت، وهي تصور فرويد الهرم وابنته آنا كشخصيات رئيسية. وفي الوقت نفسه، يقام معرض في الـ Grand Palais بعنوان «الروح في الجسد» تعرض فيه أشياء تتداخل بين الفن والعلم. ومن بين المعروضات الرئيسية الأريكة التي كان يستلقي عليها مرضى فرويد في فيينا. وفي مكتبه ذي الأثاث الجلدي على مسافة مبان قليلة، فإن سيرج لوكلير، البالغ من العمر 69 عاما، والرئيس السابق للجمعية الفرنسية للتحليل النفسي، يراقب هذا اللغط الثقافي في فرنسا ويقارنه بالتهجمات على فرويد في الولايات المتحدة. ويقول: «إن ما حدث للتحليل النفسي الفرويدي في أمريكا، هو خطأ المحللين النفسانيين الأمريكيين». ويضيف: «لقد جمدوا الأشياء وجعلوها في قالب عقيدة، أو دين تقريبا، له تزمته الخاص بدلا من أن تتغير مع الزمن».

ومن جانبهم، يقر المحللون النفسانيون الأمريكيون بأن فرويد يتلقى ضربات قاسية في الآونة الأخيرة، إلا أنهم ينكرون أن تأثيره أو أهميته قد ذوت نتيجة لذلك، يقول جورج هـ. أليسون، المحلل في سياتل: «اعتقد أن تأثير فرويد في الصحة العقلية والعلوم الإنسانية أكبر بكثير مما كان عليه منذ 40 سنة. وإني أسمع الكثير مما كتب وقيل عن فرويد». ويشير أليسون إلى تشعب فنون العلاج – ويوجد الآن أكثر من 200 علاج بالتحدث تتنافس في سوق الصحة العقلية في الولايات المتحدة. ويجرى من 10 إلى 15 مليون أمريكي نوعاً من المعالجة بوساطة التحدث – ويجادل «بأنها تستند إلى المبادىء الفرويدية، ورغم أن الكثير من الأشخاص الذين يتصدرون هذه الحركات هم ضد فرويد رسميا. فإنهم يقفون على أكتاف عبقري».

هذه الصورة تثير مجدداً السؤال حول الرمال الرخوة. فإذا كانت نظريات فرويد حقاً مهلهلة، كما يقول نقاده، إذن ما الذي يبقي العلاجات مدينة لها ولا يجعلها تدخل ببطء في طي النسيان كذلك؟ من الناحية الفرضية لا شيء، رغم أن قلة تتوقع أو تريد أن يحصل ذلك. ومن المثير للدهشة، أن بيتر كرامر، مؤلف الكتاب الأكثر رواجاً في الوقت الحالي «الإنصات إلى بروزاك»، يدافع عن العلاج بالتحدث عنه وعن مؤسسه، إذ يقول: «حتى المحللون الفرويديون لا يلتزمون مائة بالمائة بفرويد. إن العلاج النفسي أشبه بالأشجار ذات الأغصان، حيث يدعى كل غصن من الأغصان بأنه ينتمي شرعيا إلى النسب نفسه وهو فرويد، غير أنه لا يوجد أي غصن ينبثق من الجذر. وسنكون مخطئين تماما إذا ألقينا في البحر العلاج النفسي أو فرويد».

كان فريدريك كروز، أستاذ اللغة الإنجليزية في جامعة كاليفورنيا، في بيركرلي، ومراجع وناقد مشهور، قد طبق بحماسة المفاهيم الفرويدية على الأعمال الأدبية، وكان يدرّس طلابه أن يفعلوا الشيء نفسه. ثم زال عنه هذا الوهم، ويعتبر الآن واحداً من أقسى

نقاد فرويد في أمريكا. وحتى عندما كان يناقش أن فرويد كان كذابا وأن بعض آرائه لم تنشأ عن ملاحظات سريرية بل نشأت عن «فولكلور»، يزداد كروز حذراً حول التوقع بعالم يصبح فجأة من دون فرويد أو طرائقه ويقول: «إن أولئك المهتمين منا بالإشارة إلى أوجه فشل فرويد الفكرية، ليسوا بشكل عام خبراء في مجال العلاج النفسي. ولن اتخذ موقفاً فيما إذا كان العلاج النفسي جيداً أم لا».

إن مثل هذا الحذر قد ينصح به جيدا، فلم يكن فرويد أول من وضع فرضية اللاوعي، بل لهذا المفهوم أصل فكري قديم. كما أن فرويد لم يثبت أبدا، من الناحية التجريبية أن العلماء سيقبلون وجود اللاوعي. إلا أن جوناثان وينسون، الأستاذ المتقاعد في علوم الأعصاب في جامعة روكفلر في مدينة نيويورك، الذي أجرى أبحاثاً واسعة على فيزيولوجيا النوم والأحلام، يزعم أن حدس فرويد بوجودها كان صحيحاً، حتى لو لم تحقق نتائجه الهدف المنشود. إذ يقول: «إنه محق بأنه توجد بنية سيكولوجية متماسكة تحت مستوى الوعي. إن هذه بصيرة نافذة رائعة يستحق الثناء عليها.كما يستحق الاعتبار والتقدير على حدسه بأن الأحلام هي «الطريق الملكي» إلى اللاوعي».

أخيرا، قد تكون تلك هي المشكلة المركزية حول الإعلان أن فرويد قد انتهى. فمع كل تأثيره ونفوذه، فإن الاستهانة به باتت من قبل الزملاء والمرضى على حد سواء، وعلى الرغم من جميع خطايا الشطب والتنطع التي يلقيها النقاد في الماضي والحاضر بشكل صحيح على أريكته، فقد تمكن من بناء صرح فكري يلوح بأنه قريب من تجربة العيش، وجارح، أكثر من أي نظام آخر يمارس حاليا. إن ما ورثه لم يثبت (رغم أن محاجاته تخالف ذلك) حتى الآن على أنه علم من العلوم. وقد يتكشف في المطاف الأخير أن التحليل النفسي وجميع تفرعاته لا يمكن الاعتماد عليها أكثر من الاعتماد على علم دراسة القحف (الجمجمة) أو التنويم المغناطيسي أو على أي من العلوم الزائفة الأخرى التي لا حصر لها، والتي قدمت ذات يوم أجوبة غير موثوقة أو عزاء كاذبا. إن التأكيدات التي قدمها فرويد بأن حياتنا الداخلية غنية بالدراما والمعاني الخفية سوف نفتقدها إذا ما اختفت، ولن تبقي شيئا في مكانها.

بعد فترة وجيزة من موت فرويد الفعلي في 1939، كتب ي. هـ. أودن، أحد كتاب القرن العشرين العديدين الذين نقبوا في التحليل النفسي لاستخراج رموزه الكثيرة وصوره، كتب مرثية اختتمها بالبيتين التاليين:

حزين هو إيروس، مشيد المدائن

وأفروديت الفوضوية تذرف الدموع

إن اختيار أودن لشخصيات الأساطير اليونانية كان مقصودا وملائما، ولعل هوميروس وسوفوكليس والآخرين سيثبتون، عندما يقال ويفعل كل شيء، أنهم مرشدون للحالة الإنسانية أفضل من فرويد. إلا أنه لم يعرض عن مثل هذه المنافسة.

نقاد فرويد في أمريكا. وحتى عندما كان يناقش أن فرويد كان كذابا وأن بعض آرائه لم تنشأ عن ملاحظات سريرية بل نشأت عن «فولكلور»، يزداد كروز حذراً حول التوقع بعالم يصبح فجأة من دون فرويد أو طرائقه ويقول: «إن أولئك المهتمين منا بالإشارة إلى أوجه فشل فرويد الفكرية، ليسوا بشكل عام خبراء في مجال العلاج النفسي. ولن اتخذ موقفاً فيما إذا كان العلاج النفسي جيداً أم لا».

إن مثل هذا الحذر قد ينصح به جيدا، فلم يكن فرويد أول من وضع فرضية اللاوعي، بل لهذا المفهوم أصل فكري قديم. كما أن فرويد لم يثبت أبدا، من الناحية التجريبية أن العلماء سيقبلون وجود اللاوعي. إلا أن جوناثان وينسون، الأستاذ المتقاعد في علوم الأعصاب في جامعة روكفلر في مدينة نيويورك، الذي أجرى أبحاثا واسعة على فيزيولوجيا النوم والأحلام، يزعم أن حدس فرويد بوجودها كان صحيحاً، حتى لو لم تحقق نتائجه الهدف المنشود. إذ يقول: «إنه محق بأنه توجد بنية سيكولوجية متماسكة تحت مستوى الوعي. إن هذه بصيرة نافذة رائعة يستحق الثناء عليها.كما يستحق الاعتبار والتقدير على حدسه بأن الأحلام هي «الطريق الملكي» إلى اللاوعي».

أخيرا، قد تكون تلك هي المشكلة المركزية حول الإعلان أن فرويد قد انتهى. فمع كل تأثيره ونفوذه، فإن الاستهانة به باتت من قبل الزملاء والمرضى على حد سواء، وعلى الرغم من جميع خطايا الشطب والتنطع التي يلقيها النقاد في الماضي والحاضر بشكل صحيح على أريكته، فقد تمكن من بناء صرح فكري يلوح بأنه قريب من تجربة العيش، وجارح، أكثر من أي نظام آخر يمارس حاليا. إن ما ورثه لم يثبت (رغم أن محاجاته تخالف ذلك) حتى الآن على أنه علم من العلوم. وقد يتكشف في المطاف الأخير أن التحليل النفسي وجميع تفرعاته لا يمكن الاعتماد عليها أكثر من الاعتماد على علم دراسة القحف (الجمجمة) أو التنويم المغناطيسي أو على أي من العلوم الزائفة الأخرى التي لا حصر لها، والتي قدمت ذات يوم أجوبة غير موثوقة أو عزاء كاذبا. إن التأكيدات التي قدمها فرويد بأن حياتنا الداخلية غنية بالدراما والمعاني الخفية سوف نفتقدها إذا ما اختفت، ولن تبقي شيئا في مكانها.

بعد فترة وجيزة من موت فرويد الفعلي في 1939، كتب ي. هـ. أودن، أحد كتاب القرن العشرين العديدين الذين نقبوا في التحليل النفسي لاستخراج رموزه الكثيرة وصوره، كتب مرثية اختتمها بالبيتين التاليين:

حزين هو إيروس، مشيد المدائن
وأفروديت الفوضوية تذرف الدموع

إن اختيار أودن لشخصيات الأساطير اليونانية كان مقصودا وملائما، ولعل هوميروس وسوفوكليس والآخرين سيثبتون، عندما يقال ويفعل كل شيء، أنهم مرشدون للحالة الإنسانية أفضل من فرويد. إلا أنه لم يعرض عن مثل هذه المنافسة.